تاريخ فلسطين

تأليف

عمر الصالح البرغوثي وخليل طوطح

تقديم وفهارس

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

الطبعة الثانية

دار المعارف

obeikandl.com

obeikandl.com

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

التقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق البشر الصادق الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع الهدى أما بعد:

فيقول المؤرخ إسكندر عزيز عن فلسطين وصهيون: معتمدًا على ما ورد فى الكتب السماوية:

آدم أول من آمن بإله واحد له ملك السماوات والأرض، خلقه سبحانه من صلصال، وسواه فى أدق تكوين وأجمل تصوير، ونفخ فيه من روحه.. وأوسع له من رزقه.. ثم أخلفه سلالة من الأخيار أوصلوا الإيمان إلى سيدنا نوح..

جاء ا لطوفان.. ثم مضى عهده.. فعاد البشر إلى سابق عهدهم من الميل عن التقوى إلى الهوى، وعن الدين والإيمان بالله إلى الكفر والإشراك وعبادة الكواكب والأوثان، فجاء إبراهيم ولم يكن أقل ورعًا وتقوى وإيمانًا من نوح.. لام قومه على عبادة الكواكب والأوثان فنقموا عليه وأرادوا به كيدًا..

﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ (١)

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢)

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٧٠ – ٧١.

(٢) سورة العنكبوت الآيتان ٢٦ – ٢٧.

تفرعت ذرية سيدنا إبراهيم فى إسحق وإسماعيل، وتشتت سلالتاهما فى أنحاء الأرض، وقد تدرجت سلالة إسحق إلى المسيح عيسى :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (١)

وتدرجت سلالة إسماعيل إلى النبى سيدنا محمد ﷺ :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (٢)

---

(١) سورة آل عمران الآيات ٤٨ - ٥٠.

(٢) سورة البقرة الآيات ١٢٧ - ١٢٩

ترك سيدنا ابراهيم - بوحى من ربه - أرض أور ما بين النهرين - مسقط رأسه ورأس أبيه، قاصدًا الأرض المباركة التى أعطاه الله بها عهدًا لسكناه وسكنى أبنائه وسلالة أبنائه - ما بين الجزيرة وأرض كنعان :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١)

استوطنها بعد أن جاب البادية وزرع القفار، ورزقه الله فيها إسماعيل واسحق:

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (٢)

ولقد أنجب إبراهيم إسماعيل من هاجر، وأنجب إسحق من سارا وقال لربه:

﴿ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٣)

أقام بنو إسرائيل سلالة إسحق بادئ ذى بدء فى أرض فلسطين حالّين على أهلها، ثم نزحوا إلى أرض مصر إثر يوسف الصديق :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (٤)

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٣٧.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٩.

(٣) سورة إبراهيم الآيتان ٣٥ - ٣٦

(٤) سورة يوسف الآية ٩٩

نزحوا إليها واستوطنوها جيلاً بعد جيل، تمتعوا فى رحبها، وتمتعوا بخصبها ولكنهم لم يندمجوا فى أهلها، ثم ضاقت بهم أرضها، فضموا رحلهم، وشدوا رحالهم، وموسى على رأسهم، وقد جابوا القفار، وتاهوا فيها أربعين حولاً، حتى انتهوا إلى نهر الأردن، إزاء أرض جدهم الأعظم إبراهيم..

وبعد أن هجروها أربعين ومائتى سنة عادوا إليها على زعم أنها مازالت أرضهم، وكثيرًا ما تركوها بعد ذلك ثم عادوا إليها، وقد أصبحت بمضى الأجيال ومرور الآجال أرض غيرهم ممن أقاموا بها واستوطنوها جيلاً بعد جيل من بعدهم.. دخلوا الأرض واغتصبوا الديار واستوطنوها بالسيف وبالنار.. وقد أتوا بأهلها من الإرهاب ما تقشعر منه الأبدان، وتشيب منه نواصى الولدان، مما يتلونه فى كتبهم بفخر وإيمان..

«سقط السور وأخذوا المدينة.. وأحرقوها بالنار مع كل ما بها.. قال الرب ليشوع لا تخف ولا ترتعد، خذ معك رجال الحرب واصعد إلى عاى.. فتفعل بها وبملكها ما فعلت بأريحا وملكها، غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لأنفسكم.. دخل بنوا إسرائيل المدينة وأحرقوها بالنار كقول الرب ولما انتهوا من قتل جميع أهل عاى أسقطوهم جميعا بحد السيف حتى فنوا، فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر ألفًا.. جميع أهل عاى.. وأما البهائم وغنيمة تلك المدينة فنهبها بنو إسرائيل لأنفسهم.. وأحرق عاى وجعلها تلا أبديًا خرابًا، وعلق ملك عاى على الخشبة حتى المساء.. وعند غروب الشمس أنزل الجثة وطرحها عند باب المدينة.. ولما سمع جميع الملوك ما حل بعاى اجتمعوا لمحاربة يشوع.. ولما انتهى يشوع وبنو اسرائيل من ضربهم ضربة عظيمة حتى فنوا قال يشوع لقواده «تقدموا وضعوا أرجلكم على أعناقهم ثم ضربهم وعلقهم على الخشب ثم أنزلهم وطرحهم فى المغارة.. وأخذ يشوع*...مقيدة وضربها بحد السيف مع ملكها..

ثم اجتاز إلى عجلون وضربها بحد السيف.. ثم إلى حبرون وضربها بحد السيف مع ملكها.. ثم إلى ديبر وضربها بحد السيف.. ثم إلى حاصور وأحرقها بالنار.. ثم أبادهم.. ولم يبق نسمة.. ثم شرع بنو إسرائيل فى قسمة الأرض..

(*) هناك نقص فى الأصل.

« وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار.. وضربوا.. وضربوا.. وضربوا بحد السيف.. وكمن ابيمالك فى الحقل ونظر وإذا الشعب يخرج من مدينة.. فقام عليهم وضربهم وحارب المدينة كل ذلك اليوم وأخذها.. وقتل الشعب الذى بها.. وهدمها ووضع أغصان الشجر على العرج وأحرق عليهم العرج بالنار.. فمات جميع أهل البرج نحو ألف رجل وامرأة..

« وضرب الرب بنيامين أمام اسرائيل.. وأهلك بنو إسرائيل من بنيامين فى ذلك اليوم خمسة وعشرين ألفا.. ثم .. ثم.. ثم.. ثم.. إلى أن جاء المسيح عيسى رسولاً إلى بنى إسرائيل.. فكانت الكلمة سيفه.. وكان هو من الكلمة.. أتاهم.. وقاتل بلسانه.. وانتصر بلسانه.. وهدى بلسانه.. وقهر بلسانه.. وكانت وصيته فى القتال.. « الحق والحب » .

جاء المسيح عيسى إلى بنى إسرائيل فقال: ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ ﴾[1].

ثم رحل جُل من كفروا به عن أرض فلسطين إلى أنحاء الأرض متشتتين يبتغون الرزق وجمع المال.. كما ابتغوا قديمًا فى أرض مصر جمع الأقوات والغلال، وقد استوطنوا شتى الأقطار والأمصار.. مندمجين وغير مندمجين.. وهم ما زالوا طامعين فى أرض فلسطين مدعين أن الله أعطاها عهدًا لإسحق ويعقوب، ولأبناء اسحق ويعقوب، ولسلالة إسحق ويعقوب، إلى أبد الآبدين.. إذ ورد فى توراتهم: «وقال الرب لإسحق اسكن هذه الأرض أنت وسلالتك وسأكون معك».. «ستتضاعف ذريتك فتفوق نجوم السماء عدًا».. وقال الرب ليعقوب: «أنا الرب إله إبراهيم وإسحق – هذه الأرض التى تتوسدها – أرض بتل أى بيت الله.. هى لك ولذريتك». ولكنى أحسبهم قد أغفلوا أن عهد إسحق هذا ورد فيه: « وأقطع لك بها – أى الأرض – العهد الذى قطعته لجدك إبراهيم من قبل وهو أن الأرض جميعها ما بين أنهر الأردن والفرات ومصر موطن لإبراهيم ولأبناء إبراهيم ولذرياتهم أجمعين.

---

(١) سورة الصف الآية ١٤

« قال الرب لإبراهيم اخرج من أرض أور – بلادك وبلاد قومك – واذهب إلى حيث أوحيك..» .. « فرحل إبراهيم ومعه لوط ابن أخيه وسارا زوجه إلى أرض كنعان، قال له الرب: «هذه الأرض ميراث ذريتك.

ثم انتقل إبراهيم غرب بتل – أى بيت الله – ولما وجد الأرض مجدبة قصد إلى أرض مصر – ثم عاد مصر ثريًا، ونزل ما بين بتل وعاى.. وقد افترق عنه لوط ونزل فى وادى الأردن.. أما إبراهيم فقال له الرب: ارفع عينيك وانظر شمالاً وجنوبًا، شرقًا وغربًا فهذه الأرض التى تراها جميعا ستكون لذريتك من بعدك.. وستكون ذريتك كتراب الأرض لا تعد ولا تحصى..

« انظر إلى السماء وخبر عن عد نجومها، كذلك سيكون عد ذريتك من بعد..».. « ثم وضعت له هاجر المصرية إسماعيل بعد أن حزنت وابتأست ويئست فقال لها ملاك الرب: « لا تحزنى فإن الله سيهبك من إبراهيم ولدا أسمه إسماعيل – أى يارب اسمع لى – لأن الرب سمع لك صوت أحزانك. وسيكون ابنك هذا جبارًا قويًا، وسيقيم مع أخوته.. وسيضاعف الرب فى سلالته بحيث لا تعد ولا تحصى»..

« وبعد أن أنجب إبراهيم إسماعيل ظهر له الرب وقال له: «سيكون اسمك من اليوم إبراهيم – أى أب شعب كبير – وسيأتى منك أمم..» .. «أنا الرب الذى أخرجك من أور لترث ذريتك هذه الأرض، وسأعطيك وأعطيهم أرض كنعان إلى أبد الآبدين.. وستكون أبا لأمم تترى.. وسيأتى ملوك من سلالتك».

« ثم أنجب إبراهيم إسحق من ساراه فقال له الرب: «وسأقطع لأبنك إسحق عهدًا ولذريته من بعد.. وأما إسماعيل فقد باركته وسينجب ذرية كبيرة وسيكون راس أمة عظيمة.. وسيأتى منها اثنا عشر ملكًا» ..

وقد ورد فى التوراة أن إسماعيل كان بعد بلوغه الثلاثين من عمره قد عاد إلى كتف أبيه إبراهيم كما ورد أن عيشو بن إسحق وشقيق يعقوب تزوج من بنات إسماعيل وأن أبناء إبراهيم إخوة إسماعيل وإسحق من غير هاجر وساراه – أمثال

زمران ومديان ويقطان – قد تكاثرت ذريتهم وتشتت أسرهم فى أنحاء الأرضين شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا – وفى أرض كنعان وفى غير أرض كنعان ما بين نهر مصر المبارك ونهر الأردن حتى نهر الفرات العظيم.

والآن وبعد مئات ومئات السنين يقول بعض اليهود من الصهيونيين: إن بلاد الله الواسعة قد ضاقت بهم وضاقوا بها.. فأصبحت جيلاً بعد جيل لا تطيقهم ولايطيقونها.. وما ذلك إلا لأنهم لا يندمجون.. بل لا يريدون أن يندمجوا.. اضطهدهم الألمان فى بلادهم وفى غير بلادهم.. ثم حاربهم غير الألمان، وحاروا فى أمرهم.. وقد عجزوا عن أن يجدوا لهم موطنًا قوميًا فيه يصمدون وإليه يستكينون، كما عجزوا عن أن يجدوا حتى الآن سبيلاً لأن ينزلوهم جميعا فى صهيون.. لأن صهيون أصبحت موطن أبناء أبيهم إسحق الذين انفصلوا عنهم من حوالى ألفى سنة إذ آمن أكثرهم بعيسى.. ثم آمن أكثرهم بمحمد ﷺ ، كما أصبحت موطن أبناء عمهم إسماعيل الذين أسلموا من بعدهم ومن قبلهم.

وقد أصبح أهل فلسطين الآن يتناجون: « ماذا جنينا حتى ينزح إلينا هذا الخليط الصهيونى الأجنبى الذى تركنا وهاجر وغاب قرنًا بعد قرن وجيلاً بعد جيل، فأصبحت له مواطن تترى فى مشارق الأرض ومغاربها، وإذا ما توالد وتكاثر أتانا ظلمًا وعدوانًا ليغصب أرضنا، وينتزع أقواتنا، ويستحل أراضينا، ودورنا».

وغير أهل فلسطين يقولون: «ونحن ماذا جنينا حتى تبقى تلك الفئة الصهيونية الثائرة بين أظهرنا وهى لا تريد أن تندمج فينا ما حيِيَت وما حيينا» لادينها ديننا، ولا دمها دمنا، ولا ذريتها ذريتنا.. تزاحمنا مساكننا وتنافسنا أرزاقنا، وتنتزع من أفواهنا أقواتنا وتكدس فى خزائنها أموالنا.. ثم هى تزعجنا وتشاغبنا لنجدد لها عهد أرضها.. وقد أصبحت الأرض موطن سلالة الجد الأكبر إبراهيم – عرب وغير عرب – نصارى ويهود ومسلمين.. ذرية إسحق وإسماعيل ولوط ويقطان ومديان وزمران، ممن لم ينزحوا عن الأرض بل استقروا بها قرنًا بعد قرن.. فأصبحت بطبيعة الحال موطنًا قوميًا لهم دون سواهم..

قلق الصهيونيون فى بلاد الله قاطبة، وأقلقوا أهل البلاد قاطبة، فهم لن يسعدوا – على زعمهم – إلا فى فلسطينهم، وهم لن يستريحوا إلا على طينهم، وهم لن يأنسوا إلا لتل أبيبهم. وهم لن يهدأ لهم بال ولن يهنأ لهم حال حتى يأتيهم كبير منهم – شرتوك أو ابن جريون – يلهمه ربه – كما ألهم موسى ربه – أن يعود بهم إلى فلسطينهم، وحتى يخلف كبيرهم هذا أبيمالك آخر يضرم النار فى الديار ويرك الآثار.. وحتى يخلف كبيرهم هذا يشوع جديدًا يضرب السيف فى الرقاب، وينزل على أهل الأرض أقسى العقاب.

« أى رجال صهيون من سلالة يهوذا وإسحق ويعقوب! أتاكم عيسى فيكم ومنكم نبيًا، فانشققتم فئتين – منكم من تبعه وآمن به فأصبحوا نصارى ولم يفتئوا لا هم ولا سلالاتهم يهودًا منكم - لا من ملتكم ولا من أمتكم – إن صح تسميتكم أمة – وقد كانوا أصلاً منكم – ذرية ودما. ومنكم من نفر ولم يؤمن به – وقد هاجر جلهم وأنتم منهم وتشتت شملهم فى أنحاء العالمين جيلا بعد جيل وبقى بعضهم فاندمج فى المسلمين والنصارى من سلالة إسماعيل وإسحق، فأصبحوا جميعا فلسطينيين – طعام هؤلاء حل لهؤلاء، وقد رفع عنهم الحرج أن يسكنوا وأن يأكلوا سويا، فأصبح من فرضهم الوطنى أن يدفعوا عنهم وعن أرضهم شراذمتكم الأجنبية الطامعة الجبارة، تأتيهم من مشارق الأرض ومغاربها، تجر الجور فى أذيالها، وتحمل الجوع فى أحشائها – لتطغى عليهم وتوقع الرعب فى قلوبهم والخراب فى ديارهم».

«ما بالكم تتهافتون على أرض غيركم تغتصبونها ظلمًا وعدوانًا لتنشئوا فيها دولة جبارة مدججة بالسلاح من دينكم بعد أن أصبح دينكم عالميًا لا قوميًا كما أصبح الدين المسيحى وكما أصبح الدين الإسلامى دينين عالميين» .

ولقد أصبحتم عنصرًا عاملاً فى أمم الأرض جميعا تستغلون خيراتها، وتكتسبون ثرواتها، فما بالكم لا تندمجون فى تلك الأمم وقد عشتم بين ظهرانيهم آجالاً وقرونًا وأجيالاً.. وما بالكم تطمعون فى أرض لم تعد بعد أرضكم، بعد أن تركتموها آجالا وقرونا وأجيالا، وما أجرأكم! تطمعون فى هذا الشطر الصغير

تنتزعون من أهله أقواتهم وأرزاقهم لتصبحوا دولة جبارة. لا شوكة فى قلب الأمم العربية فحسب – بل خنجرا يسيل دما، سبق أن استللتموه فى عهد أشور والأكاسرة والفراعنة والروم، وكيف يكون ذلك وقد قال نبى فيكم: «أى أبناء أورشليم التى قتلت الأنبياء ورجمت الرسل كم وددت أن أجمعكم سويًا كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولكنكم لم تجتمعوا.. وأصبحت دياركم منكم قاعًا صفصفًا.. وسوف لن ترونى حتى يأتيكم من يقول لكم: «تبارك الذى جاءكم من قبل الله ربكم».. ولكنه لن يأتيكم.. وإن أتاكم.. فسوف لن تقبلوه».

وقد قال لكم نبيكم المسيح عيسى الذى جاءكم منكم ولكم نبيًا، فنبذتموه: «سيؤخذ منكم مُلك ويعطى لأمة حسنت أعمالها».

ما أجرأكم على الله وعلى أنبيائه! – بعد أن اضطهدتموهم وكذبتموهم ورجمتموهم وعذبتموهم – تطلبون العود لأرض نبى بعثه الله منكم فأنكرتموه، فحكم على دياركم أن تكون قاعًا صفصفًا فتشتتم فى مشارق الأرض ومغاربها، وغضب الله يتبعكم.. لا لن يقبل قبر نبيكم هذا ولا مسجد نبيكم ذاك أن يكونا فى عقر دولتكم المزعومة، وقد أصبح هذا المسجد وذاك القبر آمنين فى عقر ديار من آمنوا بها دونكم، وقد أصبحا لأمم المسلمين والنصارى مقدسين محرمين.

وأنتم أى عرب فلسطين.. ضحوا بمالكم فى سبيل صون أرضكم من تلك الشرازمة الغاشمة ولو صبغت بزكى دمائكم.. وها قد هبت الدول العربية إخوتكم – للأخذ بناصركم وإقصاء أعدائكم وأعدائهم عنكم وعنهم..

ولكننى أوصيكم خيرًا بمن تخلف بين ظهرانيكم يهودًا من سلالة إسحق جيلاً بعد جيل فهم ما زالوا مثلكم أبناء جدكم الأكبر إبراهيم، اجعلوا منكم ومنهم أمة فلسطينية واحدة طيبة متحابة، وقد جمعكم أصلاً جد واحد عظيم هو سيدنا إبراهيم تنزعج روحه وتضطرب رفاته إذا ما رآكم وإياهم تتطاحنون وتتقاتلون، وقد ورد فى توراتهم أنه عندما توفاه ربه أغمض جفونه راضيا على عينين قريرتين بين ولديه – جدكم إسماعيل، وجدهم إسحق – عن جنبيه..

والسلام..

والحمد لله رب العالمين ..

ويضيف الأستاذ جفرى بطرس غالى فى كتابه « فلسطين » عن الصهيونية وفلسطين فيقول :

أصل الدعوة الصهيونية

رحل اليهود عن فلسطين من ألفى سنة، هربًا من اضطهادهم فى فلسطين على أيدى غزاتها الرومان.

واستقر كل فريق من اليهود فى البلد الذى قصد إليه، أو انتهى إليه مطافه، وحاول جهده أن يندمج فى أهل البلد، يتكلم لغتهم، ويعتاد عاداتهم، ويطالب بما لهم من حقوق وبما عليهم من واجبات.

وكان اليهود فى القرون الوسطى يعاملون، فى معظم البلاد الأوروبية، معاملة مجحفة ظالمة. فكان يجب عليهم أن يسكنوا أحياء خاصة بهم. وأن يحملوا شارات تميزهم. وكانوا ممنوعين من تولى المناصب العامة أو مزاولة بعض المهن والحرف.

إلا أن هذه القيود زالت تدريجيًا. وفى العهد الحديث أصبح لا أثر لها، فى أوروبا أو أمريكا، فى الأوضاع الرسمية.

إلا أن اليهود–وهم فى جميع بلاد الدنيا أقلية–مافتئوا يشكون من أنهم يشعرون–فى الواقع ؛وفى بعض الحالات– بتمييز خفى فيه بعض الإجحاف بهم.

ويذكرون، على الأخص، القضية الشهيرة التى قامت فى فرنسا فى أواخر الجيل الماضى، وهى قضية الضابط اليهودى « دريفوس » الذى اتهم بالتجسس لأعداء بلاده وخيانة وطنه، وانتهت قضيته إلى تبرءته، بعد أن مرت القضية بمراحل استغرقت من الوقت سنوات وانقسم فيها الجمهور الفرنسى فريقين: أحدهما يعلن صراحة كراهيته لليهود، ويدعو إلى اعتبارهم غرباء عن البلد الذى

استوطنوه، ويرى الفريق الآخر أن اليهود مواطنون أوفياء، لا يختلفون عن سواهم إلا من حيث عقيدتهم الدينية. ولا شأن للدولة فى العقائد.

وانتهز صحفى نمسوى يهودى، يدعى « تيودور هيرتزل »، هذه المناسبة - وكان فى بلاده صحفيًا خاملاً - فأخذ يعلن أن لا أمل لليهود فى أن يظلوا أقليات فى البلاد التى استوطنوها، ودعا، بادىء ذى بدء، إلى أن يهاجر اليهود إلى « أوغندا » البريطانية، فيحولوها إلى بلد يهودى.

إلا أن هيرتزل وجد أن معظم البؤساء من اليهود يشعرون بأن العودة يجب أن تكون إلى فلسطين، لأن فلسطين هى أرض الميعاد المذكورة فى كتبهم المقدسة.

فاندفع هيرتزل مع التيار. وطالب بالعودة إلى فلسطين. أى إلى صهيون، ودعيت حركته بالصهيونية.

على أن معظم اليهود قابلوا الدعوة بآذان صماء.

وفى سنة ١٩١٤م ، بلغ العدد الإجمالى لليهود الصهيونيين الذين يرغبون فى الهجرة إلى فلسطين - التى كانت تابعة وقتئذ لتركيا - ١٢ألف مهاجر فقط.

وكان عدد اليهود فى هذا العهد فى فلسطين كلها سبعين ألفًا، يقابله من الفلسطينيين العرب، المسلمين والمسيحيين ستمائة ألف.

ولما طالت الحرب العالمية الأولى، أرادت بريطانيا العظمى أن تستميل إليها اليهود فى العالم أجمع، وبصفة خاصة اليهود فى أمريكا وفى ألمانيا وفى بلاد الأعداء، على ما سنعود إليه فيما بعد، فأصدرت تصريحاً عرف بتصريح بلفور.

ومعلوم أن تصريح بلفور جاء فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ فى صورة كتاب صدر من المستر بلفور باسم الحكومة الملكية البريطانية، إلى اللورد روتشيلد، بصفته من زعماء الصهيونيين. وهذا التصريح فى حد ذاته، لا يعنينا فى الواقع كثيرًا. لأن كتابًا يصدر من وزير بريطانى إلى أحد الأفراد البريطانيين لا يربط إلا الحكومة البريطانية ولا يمكن أن يكون له، من الوجهة القانونية الدولية، أية قيمة.

أما السند ذو الخطر الدولى الحقيقى فى قضية فلسطين فهو ما اصطلح على تسميته بصك الانتداب. وهو قرار أصدره مجلس عصبة الأمم فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢، ولم يدخل فى دور التنفيذ إلا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣. وقد صدر تطبيقًا للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم. والقرار يتضمن مقدمة مطولة، تتلوها ثمان وعشرون مادة، تفصل واجبات الدولة التى عهد إليها، باسم عصبة الأمم، بأن تتولى، مؤقتًا، إدارة فلسطين، مندوبة عن العصبة.

وقد جاء فى الحيثيتين الثانية والثالثة من المقدمة، ما يأتى ترجمته الحرفية، وهو فى قضية فلسطين بيت القصيد :

« لما كانت الدول المتحالفة الكبرى قد اتفقت كذلك على أن تكون الدولة المنتدبة (أى بريطانيا العظمى) مسئولة عن تنفيذ التصريح الذى أصدرته حكومة صاحب الجلالة البريطانية فى ٢ نوفمبر سنة١٩١٧م، والذى اعتمدته الدول المذكورة، فى مصلحة إنشاء منزل قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، على أن يكون مفهوما بوضوح ألا يؤتى شىء قد يلحق ضررًا بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة الآن فى فلسطين أو بالحقوق والأوضاع السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أية دولة أخرى .

« ولما كان هذا التصريح يتمم الاعتراف بالرابطة التاريخية بين الشعب اليهودى وبين فلسطين، وبدواعى إعادة تشييد منزلهم القومى فى هذا البلد. . . » .

هذا النص –الذى تقيدنا فى ترجمته بأن نلتزم حرفيته، لأننا فى مجال يحسب فيه لكل حرف حسابه،– هو أساس النكبة التى نكبت بها فلسطين العربية.

وقد يكون – على ما نرى شخصيًا – فى العودة إليه دون سواه مفتاح الفرج.

البدع الثلاث

وفى هذا النص بدع ثلاث، لم يسبق لبعضها مثيل فى عالم العلاقات الدولية :

أولاً : ذكر ما سمى « بالشعب اليهودى » .

ثانيًا : ذكر ما سمى « بالمنزل القومى » .

ثالثًا : ذكر ما سمى « بالرابطة التاريخية » بين شعب وبلد.

الشعب اليهودى

أما عن « الشعب اليهودى » فالاعتراف بوجوده هو تمهيد للنظريات العنصرية التى مجدتها الاشتراكية النازية وبنت عليها سياستها فى كراهية الألمان لليهود كراهية رسمية، واضطهادهم وإبادتهم أو ترحيلهم عن البلاد عنوة.

والسؤال الأول الذى يتبادر إلى الأذهان هو: هل يكوِّن اليهود، فى شتى دول العالم، ما يصح أن يسمى، من الوجهة العلمية البحتة، « شعبًا » له مميزاته الاتنولوجية الخاصة، التى تختلف عن مميزات عموم الشعب الذى يعيش كل فريق من اليهود فى أوساطه، منذ مئات السنين؟

والواقع أن المدى الذى بلغته العلوم فى مادة أصول الشعوب ومميزاتها، لا يزال يدع مجالاً فسيحًا للجدل وتضارب الآراء.

ويكفى أن نضرب مثلاً واضحًا للمصاعب التى يلاقونها، فى الوقت الحاضر، فى الولايات المتحدة الأميريكية، للتمييز بين « البيض » و « السود » ، عندما يختلط دم الاثنين اختلاطاً متواصلاً، فقد نشرت مجلة « تايم » الأميريكية الكبرى، فى ١٢ أغسطس ١٩٤٦م ، بحثًا يفيد أن هناك، فى الولايات المتحدة، قراب ثمانية ملايين من البيض، يجرى فى عروقهم دم أسود، وهناك فى كل سنة ما يربو على العشرين ألف مواطن ينتقلون خلسة من تعداد السود إلى تعداد البيض. وهذا كله من جرّاء الاختلاط الجنسى بين البيض والسود الذى يجعل التمييز فى السلالة عسيرًا، فى كثير من الأحيان.

فإذا كان الأميريكيون لم يهتدوا إلى حدٍّ فاصل بين البيض والسود، فكيف يريد البعض أن يقول بأن اليهود الذين يعيشون فى الأوساط الأوروبية والأميريكية

والشرقية منذ مئات السنين، وهم لا يختلفون عن سائر أفراد الشعب فى اللون أو فى المأكل أو فى المسكن أو فى العادات والأخلاق أو فى اللغة، وكثيرون منهم يتزاوجون بالمسيحيين وغيرهم، تمكنوا مع ذلك بالاحتفاظ، على مر الأجيال ووفرة الاختلاط، بطابعهم الاتنولوجى الذاتى الذى يسمح لعالمٍ، يقدِّس العلم لذاته، أن يقول بأنهم لا يزالون يكوِّنون « شعبًا » ؟ ؟

وقد كان العلماء اليهود أوّل من فند النظريات العنصرية. وأثبت أنه لا يوجد، من الوجهة العلمية البحتة، ما يصح أن يسمى بالعنصر اليهودى، وهذا عندما أرادوا أن يدفعوا عنهم خطر التمييز العنصرى الذى هدّد هتلر به كيانهم فى أوروبا الوسطى.

روابط الشعب اليهودى

ومن الأسئلة المحرجة التى توجه إلى دعاة الصهيونية – وهم يعملون جهدهم على التهرب منها، فيجب أن يعمل العرب جهدهم على تكرار توجيهها فى كل مناسبة – هى تعريف الرابطة التى يدَّعون أنها تربط بين الصهيونيين الذين يقولون إن تصريح بلفور صدر لمصلحتهم، وإن لهم حقوقًا دولية فى الهجرة إلى فلسطين. فما نوع هذه الرابطة؟

فلو استبانت لنا هذه الرابطة، لوضحت مميزات هذا « الشعب اليهودى » المزعوم.

لا يمكن أن يقال بأن الرابطة دينية – لأن الدين عقيدة وإيمان – وكثيرون من الصهيونيين، فى فلسطين وفى العالم، يجاهرون بأنه لا عقيدة ولا إيمان لهم. وإنما هم من الملحدين، المائلين عن العقائد، الطاعنين فى الأديان. وفضلاً عن ذلك، فالقانون الدولى لا يعرف الأديان، إنما يعرف الجنسيات والتبعية القومية.

لذلك، لما قيل للرئيس ترومان: إنه ينبغى له أن يعمل على أن تفتح أبواب الولايات المتحدة للمهاجرين اليهود، لأن هذه النتيجة المنطقية العملية لعطفه

السياسى عليهم، قال الرئيس: إنه لا يصح للقوانين أن تنظر لأديان المهاجرين، وإنما تنظر لمواطنهم فحسب.

فلا يصح مثلاً لقوانين الهجرة، فى الولايات المتحدة، أن ينص فيها على أنه يقبل عدد كذا من المهاجرين « اليهود »، وإنما ينص فيها على قبول عدد معين من المهاجرين اليوغوسلافيين أو البولنديين أو الأوروبيين عمومًا.

فالتمييز القانونى بين المهاجرين إنما يكون على أساس جنسياتهم، وليس على أساس دينهم، فالأديان فى نظر الدولة كلها سواء.

هذا ما قاله الرئيس ترومان. والحق معه .

وهو يؤيد ما نقترح على العرب أن يذهبوا إليه فى دعايتهم – من أن الرابطة بين الصهيونيين ليست رابطة « دينية » – فأى فرد يستطيع اليوم أن يعتنق الدين اليهودى، عن عقيدة يراها، فهل تحوله فى العقيدة يدمجه فى الشعب اليهودى، ويجعل له الحق الدولى فى أن يطالب بالهجرة إلى فلسطين ؟

ولو كانت الرابطة دينية، لوجب أن ينص على ألا يقبل فى فلسطين إلا اليهودى المؤمن، فإذا ضعف إيمانه، تلاشت جنسيته، وتبخر حقه فى البقاء فى فلسطين.

وهى أيضًا ليست بالرابطة العنصرية، فقد أثبت علماء اليهود ذاتهم كما سبق أن ذكرناه – فى محاولتهم دحض المزاعم النازية عن وجود عنصر آرى، وعنصر يهودى – أن الكثيرين من يهود أوروبا لا تجرى فى عروقهم قطرة من دم اليهود الذين أرحلهم الغزاة الرومان عن فلسطين من ألفى سنة، وأن اليهودى البولندى واليهودى الصينى واليهودى الحبشى لا تجمع بينهم أية رابطة عنصرية، تقوم على أساس علمى جدى.

وكذلك لا تربطهم التقاليد المشتركة، فبعض اليهود إباحيون، وبعضهم محافظون، وبعضهم متطرفون فى النزعات العصرية، وغيرهم من أنصار الرجعية، ومنهم الشيوعى، ومنهم المحافظ، ومنهم الثورى.

فلا سبيل إلى استنباط مميزات من التقاليد والعرف، يصح أن تعتبر رابطة بين اليهود، إذا ما انعدمت الرابطتان الدينية والعنصرية، كما أسلفنا.

فأية رابطة يمكن إذن لدعاة الصهيونية أن يقولوا بوجودها بين قومهم، تجمع شملهم وتجعل من أشتاتهم بناء مرصوصًا؟

لقد انتهى مفكرو اليهود، بعد الجهد، إلى أن قالوا: إنه لا يربط اليهود بعضهم ببعض إلا كراهية غيرهم لهم ! !

ونحن نقول، بلسان العرب، إن هذه الكراهية – التى انتهى الصهيونيون إلى أنها الرابطة الوحيدة التى توثق عراهم، وتجعل منهم جماعة – لا وجود لها أصلاً فى كثير من البلاد، ما لم تكن نتيجة لتصرفات اليهود ذاتهم، وعلى الأخص الصهيونيين منهم.

ولقد أفضى سعادة عبد الرحمن عزام باشا، بصفة كونه الأمين العام للجامعة العربية، بتصريح فى لندن أذاعته « روتر » فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٦م – بمناسبة انعقاد مؤتمر فلسطين، ننقل منه الفقرات الآتية، وهى فى الواقع تعبر عن شعور أغلبية العرب نحو اليهود، وقد تشبعنا منها فى بحثنا هذا:

« إن العرب لا يضمرون الحقد لليهود، ونحن لا نرغب بحال من الأحوال فى توسيع نطاق روح العداء للعنصر السامى، بل نأمل ألا تخلق الاضطرابات السياسية فى فلسطين فروقًا مصطنعة بين شعب عظيم كالعرب وشعب عظيم آخر كالشعب اليهودى».

« لقد كنا دائمًا أصدقاء تربطنا بهم روابط السلام منذ قرون، وفى اعتقادنا أن فى وسعنا أن نبرهن للعالم أن اليهود والعرب يستطيعون العيش معًا فى سعادة، ولهذا فقد جئنا هنا لمعالجة هذه المشكلة دون أى عداء نحو الجانب الآخر » .

وإننا لنؤيد الأمين العام فيما ذهب إليه من أنه لا حقد ولا عداء فى الشرق نحو اليهود.

وإنما نخالفه كل المخالفة فى ذكره «للشعب اليهودى».

فمن رأينا أن العرب والأوروبيين إنما يجب أن يعرفوا فى كل البلاد « مواطنين يهود» . ولا يعرفون، أبدًا ، حيث كان، « شعبًا يهوديًا » .

ومن الجوهرى، فى رأينا المتواضع، أن تنسق سياسة العرب فى قضية فلسطين على القول بأن اليهود أفراد من المواطنين، لهم دينهم ولنا ديننا – وأن هؤلاء الأفراد إنما يكوِّنون أقلية دينية تستحق الحماية المحلية، ولا يكوِّنون بحال من الأحوال، لا فى الشرق ولا فى غيره، «شعبًا» له حقوقه الدولية، ووجوده الذاتى، وزعماء ووكالات وما تدعيه من امتيازات.

فكما أنه لا يوجد فى بريطانيا العظمى شعب بروتستانتى وشعب انجليكانى وشعب كاثوليكى وشعب ملحد وشعب يهودى، وإنما يوجد شعب بريطانى، لكل من أفراده أن يتبع الدين الذى يعتقد به فى قرارة نفسه، وهو فيه منه إلى ربه، وكذلك لا يوجد فى مصر شعب مسلم وشعب قبطى وشعب يهودى، وإنما يوجد شعب واحد هو الشعب المصرى، يتساوى أفراده فى الحقوق والواجبات، وهكذا فى كل من البلاد المتمدينة. فإن النظرة القائلة بأن هناك « شعبًا يهوديًا » يقوم قاسمًا مشتركًا فى كل من بلاد العالم، لهى نظرية هدّامة للأسس القومية، نسّافة للروح الوطنية نتيجتها المنطقية الحتمية تكون – مع شديد الأسف وبالغ الخسارة - أن يعتبر المواطنون اليهود، فى كل من بلاد العالم، غرباء عنه، دخلاء فيه، ما داموا يصرّون على القول بأنهم أفراد « لشعب » غير شعب البلد الذى ولدوا فيه، واستقروا فيه بعد آبائهم وأجدادهم فاستوطنوه.

فالبلاد لا تعرف من أبنائها إلا من ينتمى لها دون سواها.

وتأبى لأى من أبنائها أن يكون له، وقت ما يشاء، أن يعلن أنه صهيونى، فتفتح له أبواب بلد فلسطين، وينزع رداء قوميته الأولى ليصبح فلسطينيًا، ولا يبقى فى بلد مولده وموطنه إلا إذا فضل ذلك على الرحيل إلى فلسطين بمحض اختياره.

إزدواج الأوطان

إن النظرية القائلة بوجود « شعب يـهودى » لـه فـى فلسطين وطـن أو مـنزل قومى، لهى نظرية ابتدعها الصهيونيون. وهى تزعزع من أساسها مبـادئ القـانون الدولى العام والخاص، القائلة بأن لكل امرىء وطنًا واحدًا ، لا ثانى له.

والمواطنون اليهود، فى كل بلد، المخلصون حقًا لبلدهم، الموالون لمصالحـه دون سواها، الشاعرون بقوميتهم فيه شعورًا صادقًا، هؤلاء اليهود هـم الذيـن يجـب أن تلجأ إليهم فلسطين العربية، فـى دعايتـها الدوليـة لحمايتـها مـن خطـر «المـنزل القومى» الذى وعد بلفور بإنشائه لهم فى فلسطين.

فهذا المنزل، لو أتيح له أن يقوم، لا بد أن يصبـح – مجـرد وجـوده – خطـرًا على اليهود، على قدر ما هو خطر على العرب.

فالمواطنون اليهود يجب أن يكونوا، فى وطنهم، ألد أعداء الصهيونيـة الدوليـة والمنزل القومى.

فمصلحتهم الحيوية تقتضى منهم ذلك.

حذار من التمييز العنصرى

لقد مات هتلر. وقطعت فـروع النظريـات التـى زرعـها، إنمـا الجـذوع لاتـزال قائمة، والجذور لا تزال تمتد فى تربـة قـد تصبـح خصبـة إذا ارتـوت مـن منطـق الظروف.

فالجذوع والجذور لا تقتلع إلا بمر الزمن. ولا سيما جذوع النظريات العنصرية.

ولما كانت حقوق اليهود فى الهجـرة إلى فلسـطين طبقًـا لوعـد بلفـور وللقـرار الصادر فى ٢٤ يولية سنة ١٩٢٢م مـن مجلـس عصبـة الأمـم - أساسـها المذكـور صراحة فى الوثيقتين إنما هو وجود «شعب يهودى» وأن هذا الأسـاس، إذا صح وجوده، لكان أقوى الدعائم التى تقوم عليها دعاوى التميـيز العنصـرى المجحـف باليهود فى العالم أجمع – فيجب أن تبرز هذه المسألة فى الدعايـة الدوليـة التـى

يقترح على الأمم الشرقية أن تنظمها لنجدة فلسطين، طبقًا للخطة التى سنعرضها فيما يلى :

فالمواطنون اليهود – فى كل بلد – يجب أن يقنعوا بأن قضية فلسطين العربية هى قضيتهم. ومنع الهجرة إلى فلسطين يوطد مركزهم هم فى موطنهم. والقضاء على «المنزل القومى» اليهودى يترتب عليه، مباشرة ومنطقياً، تثبيت أقدامهم حيث هم، وحماية مصالحهم حيث تقوم فعلاً الآن، والحيلولة دون كراهيتهم واضطهادهم فى البلد الذى استوطنوه، وأصبحوا فيه من أبنائه المخلصين الأوفياء.

نكرر إذن أن من مصلحة اليهود فى جميع بلاد الدنيا أن يعملوا غاية جهدهم لتعتبر اليهودية رابطة « طائفية » روحية ، لا رابطة « شعبية » سياسية .

ومن يقل بعكس ذلك، يفتح الأبواب من جديد، فى الغد القريب أو البعيد، للنظريات العنصرية المجحفة باليهود، تلك النظريات التى تمكنت الديمقراطيات من التغلب عليها. إلا أنها قد تعود ذات يوم، فى البلاد الديمقراطية ذاتها، وتكون أشد فتكًا بالمواطنين اليهود، وأبلغ فى القضاء على مصالحهم المشروعة فى البلاد كافة – لو استمر اليهود على تغذية هذه النظريات بتضامنهم الدولى، ومطالبتهم المستمرة بأن تصبح فلسطين منزلاً قوميًا لشعبهم المختار.

فإلى اليهود البريطانيين والأمريكيين والفرنسيين والمصريين، وغيرهم، يجب أن يوجه الشرق دعايته الدولية على أساس ما قدمنا من اعتبارات.

فمنهم جاء الخطر على فلسطين العربية.

ومنهم قد يجىء الخلاص لفلسطين العربية.

وإلا، إذا استمروا على القول بأنهم شعب دولى له طابعه الخاص، وإن فلسطين منزلهم القومى، لهم فيها حقوق أزلية، لأعملوا بأيديهم معاول الهدم فى كيانهم المحلى. وكانوا فى النهاية من الخاسرين.

بدعة المنزل القومى

والنظرية المبتدعة الثانية التى جاء لنا بها بلفور فـى وعـده، ومجلـس عصبـة الأمم فى قراره، هى نظرية « المنزل القومى » .

فللمجتمع الدولى قوانين ومواثيق ومعاهدات واصطلاحات.

نعرف فيها الأمم، والدول، والحكومات، والشعوب.

نعرف لكل منها معناها ومغزاها.

أما المنزل القومى – ومن الخطأ الشائع أن يـترجم بأنـه « الوطـن القومـى » إذ إنه قد سمى فى الأصل الإنجليزى National Home وسمـى فـى الأصـل الفرنسـى Foyer national – فلم نر له أثرًا فيمـا سـبق مـن المؤلفـات والمعـاهدات والوثـائق، ولا فى الأسفار الفقهية، وقد تصفحنا الكثير منها. لعلنـا نـهتدى فيـها إلى أصـل قانونى لهذا الاصطلاح الغريب.

ولما كانت العبرة فى هذه الشئون إنما هى بـالتطبيق، فقـد أثبـت التطبيـق فـى فلسطين، منذ سنة ١٩١٧ إلى الآن، أن الأوضاع الدولية والمحلية لا تستسيغ هـذا التعبير ولا تهضمه.

فلا العرب ولا اليهود أدركوا إلى اليوم ما المقصود مـن إنشـاء « مـنزل قومـى » لليهود فى فلسطين.

ومن لم يدرك القصد يضل السبيل .

فالباب الثانى الذى نقـترح وُلُوجـه – دخولـه – فـى الدعايـة الدوليـة لقضيـة فلسطين فى الوقت الحاضر، هو إبراز كل ما يجـافى الأوضـاع السياسـية الدوليـة والمحلية المألوفة فى بدعة « المنزل القومى » .

وربما كان خير الوسائل لإبراز الغرابة والاستنكار فى ذلك هـو افـتراض إيجـاد «منازل قومية» لشعوب غير الطائفة اليهودية فى بلد غير فلسـطين، مثـل إيجـاد منزل قومى للأرمن، ومنزل قومى للبولنديـين المشـتتين. ومنـازل قوميـة للاجئـين السياسيين فى شتى بلاد العالم.

وكلما أكثرنا فى دعايتنا – على الوجه الذى سنبينه فيما بعد – من ضرب الأمثلة المحلية ، أبرزنا ما فى نظرية « المنازل القومية » من غرابة لا تستسيغها الأوضاع الدولية أصلاً، فى غير فلسطين، فلا يستساغ، بالقياس، إيجادها فى فلسطين ذاتها.

بدعة الروابط التاريخية

والبدعة الثالثة التى أتى بها القرار الذى أصدره مجلس عصبة الأمم فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢م هى الإقرار بوجود « رابطة تاريخية » بين الشعب اليهودى وبين فلسطين، تدعو إلى إعادة تشييد منزلهم القومى فى هذا البلد. ونورد فيما يلى العبارة الواردة فى النص الإنجليزى لقرار المجلس :

" Whereas recognition has thereby been given to the **historical connection** of the **Jewish people** with Palestine and to the grounds for reconstituting their **National Home** in that country.

ولما كانت هذه الفقرة الموجزة تتضمن البدع الدولية الثلاث التى كانت السبب المباشر فى نكبة فلسطين، وكنا، كما أسلفنا، فى مجال لكل حرف فيه معناه ومرماه، نورد فيما يلى النص الفرنسى الرسمى للقرار المذكور:

Considerant que cette declaration complete la reconnaissance des **liens historiques** du **peuple juif** avec la Palestine et des raisons de la reconstitution de son **foyer national** en ce pays.."

هذه البدعة الثالثة – ألا وهى بدعة « الروابط التاريخية » – لا تقل خطورة عن السابقتين، وإذا توسعنا فيها، هدمنا من أساسه الاستقرار الدولى القائم الآن.

فشعوب الأرض كثيرة الرحيل، وهناك علم، قائم بذاته ، لا غرض له إلا تتبع تواريخ رحيل الشعوب، وتيارات الهجرة على مر الأجيال، من بلد إلى بلد.

ويقولون اليوم إن أعظم مدينة إيرلندية هى نيويورك، وأعظم مدينة يونانية هى نيويورك، وأعظم مدينة إيطالية هى نيويورك أيضًا. ولا شك فى أن سلالة المهاجرين اليونانيين والإيطاليين والبولنديين والهولانديين يبلغ عددها أضعاف

عدد أهل هذه البلاد المستقرين فيها حالاً. كما أن سلالة اليهود فى العالم يبلغ عددها بلا جدال أضعاف أضعاف عدد الأجداد اليهود الذين أرحلهم الرومان عن فلسطين منذ ألفى سنة.

إلا أن المهاجرين، مهما تكن بلادهم الأصلية، قطعوا بينهم وبينها، عند رحيلهم عنها، كل الروابط السياسية التى كانت تربطهم بأوطان مولدهم.

وفى البلاد التى قصدوا إليها تجنسوا بجنسيتها، وتكلموا بلغتها، واندمجوا فى مجتمعها، وتزاوجوا من أبنائها، حتى ضاعت معالمهم الذاتية فأصبحوا فى مصاف غيرهم من المواطنين، وكلهم على قدم سواء.

هذا ما فعله المهاجرون الاسبانيون والإيطاليون واليونانيون والإيرلنديون والاسكندينافيون والبريطانيون والهولانديسون الذين منهم تكونت أغلب الأمم الأميريكية.

كذلك بالذات فعل الفلسطينيون اليهود فى جميع بلاد العالم.

والفرق الوحيد الذى نراه من الوجهة الدولية بين المهاجرين اليهود وبين المهاجرين غير اليهود، أن اليهود رحلوا عن فلسطين من ألفى سنة بينما أن المهاجرين غير اليهود رحلوا عن بلادهم فى خلال المائتى السنة الماضية.

فإذا قلنا إنه يصح، من الوجهة الدولية، للشعب اليهودى المستوطن فى أوروبا وغيرها، أن يعود إلى فلسطين التى رحل عنها من ألفى سنة استنادًا إلى الروابط التاريخية بين الشعب وبلد رحيله، كان لنا أن نقول أيضًا إنه يصح لكل من أفراد الشعب الإيطالى المستوطن فى أمريكا، من مائة سنة، أن يعود إلى إيطاليا رغم أنف سكان إيطاليا الحاليين. وكذلك للشعب الايرلندى فى أمريكا أن يعود إلى أيرلندا. وللشعب اللبنانى فى البرازيل أن يعود إلى لبنان. وللشعب اليونانى أن يعود إلى اليونان سواء أرضى بذلك السكان الحاليون لهذه البلاد أم أبوا. وكل ذلك تطبيقًا للمبدأ المبتدع القائل بوجود رابطة، تدوم إلى أبد الآبدين، بين البلد الذى هاجر منه المهاجرون وبين سلالة هؤلاء المهاجرين.

هـذا التوسع المنطقى فـى التطبيـق يفضـح غرابـة المبدأ المبتـدع، فـى خدمـة الصهيونية، من وجـود رابطـة تاريخيـة بـين « الشـعب اليـهودى » وبـين أرض فلسطين – تلك الرابطة المزعومة التى كانت فى مقدمة عوامل نكبة فلسطين.

فالباب الثالث الذى نقترح ولوجه فى الدعوة الدولية لقضية فلسطين، هو باب استنكار وجود روابط دائمة بين الشعوب، والأراضى التى رحلت عنـها. والتدليـل على أن الأخذ بهذا المبدأ فيه القضاء على الاستقرار الدولى فى العالم أجمع.

فمـا يسـرى علـى فلسـطين يجـب عـدلاً أن يسـرى علـى غـير فلسـطين، إذا ما اتحدت الأركان والعوامل. ولن يشعر الرأى العام فى العالم – وعليه كمـا أسـلفنا كل الاعتماد – بالظلم الذى تتضمنه حالة خاصة.

إلا إذا عممت المبادئ، ذاتها التى طبقت فى الحالـة التـى يضـرب المثـل بـها تعميما يترتب عليه مساس واضح بالمصالح المحلية الشتى.

الفكرة الصهيونية تجسمت فى سنة ١٨٥٥م

سبق أن ذكرنا أن الصهيونية لم تدخل فى حيز الوجود إلا فى منتصف القرن الماضى – أى بعد رحيـل اليـهود عـن فلسـطين بثمانيـة عشـر قرنًـا، عندمـا بـدأ الصحفى النمسوى « هرتزل » بالدعوة إليها.

وفى سنة ١٨٥٥م، اشترى سير موزيس مونتيفيـوره أول ضيعـة فـى فلسـطين، بجوار يافا، ليستغلها مهاجرون يهود، يريدون أن يعودوا إلى أرض الميعاد.

وفى سنة ١٨٩٧م تألفت أول هيئة صهيونية فى العالم.

وفـى سـنة ١٩٠٠م كـون البـارون إدمونـد دى روتشـيلد « الجمعيـة اليهوديـة الاستعمارية » .

وكل هذه المجهودات لم تفلح إلا فى أن جعلـت اثنـى عشـر ألفـا مـن اليـهود يهاجرون إلى فلسطين، وهذا من سنة ١٨٥٥م إلى سنة ١٩١٧م فانضموا إلى اليـهود الفلسطينيين الأصليين، بحيث أصبح العدد الإجمالى لليهود يقارب، فى فلسـطين كلها، فى أواخر الحرب العالمية الأولى ثمانين ألفًا.

الظروف التى صدر فيها تصريح بلفور

وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧م صدر وعد بلفور كما قلنا. وجاء مكللاً لسلسلة من الجهود المضنية التى بذلتها بريطانيا العظمى لجعل الجالية اليهودية الأميريكية، صاحبة الصول والنفوذ فى الولايات المتحدة، تضغط على حكومة الولايات لحملها على الاشتراك فى حرب سنة ١٩١٤م - ١٩١٨م إلى جانب الحلفاء، بدلاً من أن تستمر فى عزلتها والتزامها الحياد.

ولقد برر المستر لويد جورج هذا التصرف فى خطاب له بمجلس العموم البريطانى، فى ١٩ يونيه سنة ١٩٣٦م، فقال : « كان يهمنا جدًا أن نحصل على معاونة مشروعة يمكن الحصول عليها. وقد خرجنا من الاستعلامات التى بلغتنا من كل جهة فى العالم، بأنه كان حيويا بالنسبة لنا أن نحصل على تعضيد الطائفة اليهودية لقضيتنا » .

بذلت بريطانيا إذن ما بذلته من وعد إلى اليهود ليعضدوها فى الحرب العالمية الأولى.

وكانت تأمل أن يعضدها - إلى جانب اليهود المقيمين فى بلاد الحلفاء - اليهود المقيمون فى بلاد الأعداء ذاتها كاليهود الألمان والنمسويين والمجريين والبلغاريين وغيرهم، على أمل أن يصبحوا فى بلادهم ما اصطلح على تسميته - فيما بعد - بالطابور الخامس.

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها فتحت أبواب فلسطين على مصراعيها أمام المهاجرين الصهيونيين.

وإذا بهؤلاء يحجمون عن المهاجرة إلى بلاد أجدادهم الأبعدين. ويؤثرون البقاء حيث استوطنوا، هم وآباؤهم، وأجدادهم. حتى إن كبار الصهيونيين أعيتهم الدعاية، فى أوساط اليهود، للرحيل إلى فلسطين. واضطروا إلى أن يبذلوا الأموال الطائلة لإقناع بضعة ألوف من اليهود، أغلبهم من المعدمين المتعطلين، إلى أن يقصدوا إلى فلسطين، حيث كفلت لهم، من المساعدات المالية والاقتصادية والسياسية، أبعدها أثرًا وأوسعها مدى.

ومع كل ذلك ففى العشر سنوات الأولى من عهد الانتداب البريطانى الرسمى على فلسطين – أى من سنة ١٩٢٢م إلى سنة ١٩٣٢م – لم يزد العدد الإجمالى لليهود فى فلسطين، إلا من ثلاثة وثمانين ألفًا إلى مائة وثمانين ألفًا.

أى كانت الزيادة، فى المتوسط، عشرة آلاف يهودى فى السنة بما فى ذلك الزيادة الطبيعية بالتناسل فيما بين اليهود.

وفى نفس الفترة الزمنية، زاد – بالتناسل – عدد العرب المسلمين فى فلسطين مائة وتسعين ألفا، أى ما يقرب ضعف زيادة اليهود.

اضطهاد اليهود فى أوروبا الوسطى

ظل إذن اليهود ، فى أوروبا، يجافون فكرة الرحيل عن البلاد التى استقروا فيها من أجيال، للقصد إلى فلسطين ، تلبية للدعوة الصهيونية، إلى أن أصبحت حياتهم فى موطنهم لا تطاق، على ما نعرضه فيما يأتى :

وليس هذا فى ألمانيا فحسب، بل وفى النمسا وفى تشيكوسلوفاكيا وفى بولندا وفى إيطاليا وفى فرنسا وفى هولاندا وفى بلغاريا وفى المجر وفى يوغوسلافيا، وفى بلاد أخرى عديدة.

أما فى ألمانيا، فقد بدأت محاربة اليهود العلنية الرسمية فى أبريل سنة ١٩٣٣م، حيث منع اليهود من مزاولة المهن والفنون. ثم صدرت فى سنة ١٩٣٥م القوانين المعروفة بقوانين « نورمبرج » التى حرمت اليهود فى ألمانيا من جميع حقوقهم المدنية، وأجبرتهم على أن تصبغ أعمالهم وصناعاتهم بالصبغة «الآرية». وفى سنة ١٩٣٧م كان مائة وسبعون ألفًا من اليهود الألمان قد اضطروا إلى الرحيل عن ألمانيا، يهيمون على وجوههم، باحثين عن بلد قد يفتح لبعضهم أبوابه.

أما فى النمسا، فيكفى أن نذكر أن عدد اليهود الذين كانوا ينتحرون يوميًا فى فيينا بلغ متوسطه اليومى، فى سنة ١٩٣٧م، خمسمائة انتحار فى اليوم الواحد. وكانت الجمهورية النمسوية يبلغ مجموع سكانها ستة ملايين، منهم نصف مليون من اليهود، أباد الألمان ثلثهم، فى الشهور القليلة التى تلت اكتساحهم النمسا.

وفى تشيكوسلوفاكيا، حيث كان السكان عددهم الإجمالى ١٤ مليوناً منهم نصف مليون يهودى، كان اضطهاد اليهود شديدًا منذ معاهدات الصلح فى سنة١٩١٩م. فقد صدرت قوانين تمنع اليهود من مزاولة أغلب المهن، إلى أن تمكن الرئيس « بنيش » من إلغائها. إلا أن أزمة ميونيخ، وتغليب كلمة ألمانيا فيها، ترتب عليها، فى سبتمبر سنة ١٩٣٨م صدور قوانين جديدة لاضطهاد اليهود، وشددت أحكام هذه القوانين بعد خمسة أشهر. فزال عن الوجود عشر عدد اليهود فى تشيكوسلوفاكيا.

أما فى بولندا ، فكان عدد السكان واحدًا وثلاثين مليونًا، عشرهم من اليهود– وكانت فى «فارسوفيا» وغيرها من المدن البولونية أحياء كاملة لايسكنها إلااليهود المحافظون – وكانت كراهية اليهود سائدة فى البلاد من قديم الأزمان. وبلغ اضطهادهم مبلغًا لا يتصوره العقل، عندما اجتاحت الجيوش الألمانية الأراضى البولونية فى سنة ١٩٣٩م ثم فى سنة ١٩٤١م.

وصدر فى إيطاليا « المانيفستو الآرى» فى يوليو سنة ١٩٣٨م وأقره المجلس الفاشستى الأعلى فى أكتوبر، وابتدأت إيطاليا فى اضطهاد اليهود على النمط النازى. إلا أن اليهود كان عددهم قليلا فى إيطاليا، ولم يتحمس الإيطاليون فى اضطهادهم.

وفى فرنسا بدأ اضطهاد اليهود رسميًا منذ عقد الهدنة مع ألمانيا فى ٢٢ يونية سنة ١٩٤٠م، واحتلال فرنسا عسكريًا.

وأصدر المارشال « بيتان » قانونين فى أكتوبر سنة ١٩٤٠م وفى يونية ١٩٤١م، الغرض منهما القضاء على اليهود والمصالح اليهودية فى فرنسا وهى كثيرة. وبلغ اضطهاد اليهود أوجه فى صيف سنة ١٩٤٢م. وكان عددهم يبلغ نصف مليون يهودى فى فرنسا كلها.

وكذلك بلغ اضطهاد اليهود فى هولاندا أشده فى يولية ١٩٤٢م، فى عهد الاحتلال الألمانى. فمنع اليهود من مزاولة أية مهنة أو تجارة. ومنعوا من ركوب

«الترام». ومنعوا من دخول المحال العامة. ثم تقرر نفى أغلبهم إلى بولندا. وقد حال انهيار ألمانيا دون تنفيذ ذلك.

أما فى المجر. فكان اليهود فى غابر الأزمان يخضعون لقوانين خاصة مجحفة بهم. وقد ألغيت فى سنة ١٨٦٧م، إلا أن كراهية اليهود بقيت. وعوملوا معاملة شاذة فى عهد بلا خان، ثم فى عهد جومبوس فى سنة ١٩٣٢م. وفى سنة ١٩٣٨م صدر قانونان يحرمان على اليهود تولى الوظائف العامة وأغلب المهن.

ولا داعى لأن نستعرض هنا، بالتفصيل، التشريعات والوسائل التى استعين بها للقضاء على اليهود فى شتى بلاد أوروبا الوسطى. ففيما ذكرناه الكفاية لتصوير الحالة العامة.

هذه كانت دراسة شبه مستفيضة حول فلسطين والصهيونية والمشكلة التى تشغل بال كل عربى والتى تثير الرأى العام العالمى فى وقتنا الحاضر والتى تجعل إسرائيل تستخدم كل أساليب البطش والقوة والإرهاب فإلى متى تنتهى هذه المشكلة وتعيد الحق لهذا الشعب المكافح.

وأثناء وجودى فى المكتبة المركزية لجامعة القاهرة وجدت كتاباً فى غاية الأهمية فى وقتنا هذا، وهو « تاريخ فلسطين » لعمر الصالح البرغوثى وخليل طوطح. حيث يتناول الكتاب فلسطين منذ بدء التاريخ حتى الاحتلال الانجليزى وظهور الصهيونية على الساحة السياسية فى العالم. فالكتاب موسوعة تاريخية وجغرافية لهذه البقعة الغالية فى وطننا العربى، وقد طبع هذا الكتاب أول مرة عام ١٩٢٣م فى مطبعة بيت المقدس.

وأسأل الله العون والمغفرة والله المعين.

القاهرة فى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

obeikandl.com

مقدمة الكتاب

لما رأينا الأمة العربية جادة فى بناء جامعتها التى لا تقوم إلا بإحياء تاريخها عمدنا إلى وضع تاريخ فلسطين لما له من الأهمية التاريخية ولأنه يجب عَلَى كل إنسان أن يدرس تاريخ بلاده وأمته ثم تاريخ الأمم الأخرى، وقد استطردنا فى البحث عن شرقى الأردن وسورية والعراق والحجاز ومصر وما هبط إلينا من الأمم الغريبة ليستفيد منهُ الطالب ويستعين بهِ الأستاذ فلم نفرط فى اختصار الحوادث الأجنبية كما أنا لم نسهب فى تفصيل أخبار العرب ونفخنا فيهِ من الروح الوطنية المفرغة فى قالب التاريخ الذى كنا نظنهُ سهل المأخذ قريب التناول فالفيناه صعب المرام بعيد المنال تعجز الأفكار عن استجلاء مشاكله وتجمد القرائح فى تدقيق متناقضة لاسيما أن تاريخ العرب غامض لم ينخله الناقدون وقد تخلله فترات من الزمن لم يسجلها المؤرخون ولم تكشفها الحفريات والنقوش فلا جرم أن اشتبه علينا الخطأ بالصواب لرغبتنا فى سرعة إنجازه لأنا بحاجة ماسة إليهِ وإنا شاكرون كل من نبهنا لإصلاح أو تكرم بستر عورة فما الكمال إلا لله ونرجو الله أن يجنى مواطنونا منهُ نفعًا وهو الموفق للصواب

«المؤلفان»

القسم الأول

obeikandl.com

الباب الأول

فى تاريخ فلسطين من بدئهِ
حتى الفتح العربى الإسلامى

الفصل الأول

فى تاريخها قبل الفتح اليهودى

١-حدود فلسطين التاريخية والسياسية

ورد فى التوراة عبارة تدل عَلَى حدى فلسطين الشمالى والجنوبى وتثبت أنها كانت «من دان إلى بئر سبع». ودان اسم لأحد أسباط اليهود أو إحدى قبائلهم التى سكنت عند تل القاضى الذى ينبع نهر الأردن قريبًا منه. وبئر السبع مدينة واقعة جنوبى فلسطين. أما حد فلسطين الغربى فهو البحر المتوسط الذى لا يتغير. وأما الحد الشرقى فمختلف فيه والحقيقة أنهُ كان يتقلص أحياناً إلى نهر الأردن وأحيانًا يمتد حتى الصحراء والخط الحجازى وذلك بحسب الظروف وتقلبات السياسة.

حدودها السياسية الحالية

لم تتم الآن المفاوضات بين انكلترا وفرنسا لوضع الحدين الشمالى والشرقى بين سوريا وفلسطين غير أنهُ يمكننا أن نعتبر خطًا من رأس الناقورة (وهى نقطة على البحر شمالى عكا يطلب فيها جوازات السفر) إلى شمالى صفد فنجعله حدًا شماليًا. والبادية حدًا شرقيًا كما ورد فى صك الانتداب والبحر المتوسط حدًا غربيًا. وشمالى الحفير ورفح حدًا جنوبيًا.

٢ - مساحتها

لا يمكن أن نبت القول فى تقدير مساحة فلسطين لأن حدودها الشمالية والشرقية لم تعين حتى الآن ولو أنا ذرعناها من الشمال إلى الجنوب لكانت ٢٤٠ كيلو متر تقريبًا. أى أنا إذا سرنا كل يوم ثمانى ساعات وقطعنا فى كل ساعة منها خمسة كيلو مترات نجتازها من الشمال إلى الجنوب فى ستة أيام. عَلَى أن القطار يستطيع أن يطويها فيما بين ٧ أو ٨ ساعات ويتراوح عرض فلسطين ما بين ١١٠ كيلومترات إلى ١٦٠ فهو على ذلك نصف طولها تقريبًا أما مساحتها فتساوى ثلث مساحة سوريا الممتدة من جبال طورس حتى رفح ومن البادية إلى البحر المتوسط.

٣ - أسماؤها

كانت فلسطين ولا تزال جزءًا من سوريا لا يفصلها عنها حد طبيعى ولا يبعدها عامل جنسى أو تاريخى لذلك لم يفرد لها المؤرخون اسمًا مستقلاً بل كانوا ينسبونها إلى الشعوب والقبائل التى سكنتها وأهم أسمائها التاريخية هى:

(أ) أرض كنعان: وهذا أول اسم سميت بهِ نسبة إلى الكنعانيين الذين هم أسرة سامية. وكانت فى عصرهم تشمل جزءًا كبيرًا من سوريا حتى حمص وحماه.

(ب) فلسطين: أطلقت اليونان والرومان هذا الاسم عليها نسبة إلى سكانها الفلسطينيين الأقدمين الذين لم يتوطنوا إلا الساحل ما بين يافا وغزة وكانت «فلسطيا» لا تشمل سوى هذه البقعة الضيقة فقط ولبقاعها الأخرى أسماء خاصة بها. فيظهر من ذلك أن تسمية جميع البلاد بفلسطين هو من باب تسمية الكل باسم الجزء.

(جـ) أرض الميعاد: سماها اليهود أرض الميعاد زعمًا منهم أن الله وعدهم بها فى أيام إبراهيم وفيما بعد ذلك أيضًا. وقد امتازت — افترقت — علماءُ التوراة فى

ذلك فرقتين: فرقة تقول إن النبوات تمت وانقضى زمنها. وفرقة تقول إن الله سيعطى البلاد لليهود بعد أن يتنصروا.

(د) الأرض المقدسة: يسميها مسيحيو الغرب بهذا الاسم لتقدسها بمن ولد فيها وزارها من الأنبياء والرسل والمصلحين. وكذلك دعا المسلمون «ايليا» القدس وبيت المقدس لأنها مهد الأنبياء ولأن النبى أسرى به إليها ليلاً.

٤- تأثير موقعها الجغرافى على تاريخها

إن عِلْمَىْ التاريخ والجغرافيا صنوان متلازمان وتوأمان لا يستغنى أحدهما عن الآخر. ومن تغلغل فى البحث وتأمل فى تأثير المناخ عَلَى طبائع السكان أمكنه استنتاج فوائد جمة ومنافع ذات قيمة واتضح له أن سكان المناطق الحارة كالسودان وغيرهم يغلب عليهم الخمول والجمود فيظلون سحابة نهارهم نائمين فى ظل نخيلهم وأجواف كهوفهم خلافاً لسكان المناطق الباردة الذين يقضون أوقاتهم فى الجد يخوضون غمار العمل بنشاط لا مثيل له بين أبناء المناطق الحارة. وكما أن للمناخ تأثيرًا على طبائع السكان كذلك للموقع الطبيعى علاقة كبرى فى تاريخ الأمم والأفراد وتطورهم. فمصر لولا النيل لكانت صحراء مجدبة ولما أشرقت عليها شمس هذه المدنية الزاهرة. وتجارة نيويورك العظيمة لم تتسع ويحكم بناؤُها إلا على أساس موقعها الجغرافى. ولولا ما لموقع القسطنطينية من علو الشأن لما طمعت فيها الدول وتاقت إليها نفوس الفاتحين. ولقد كان موقع انكلترا فى جزيرة من أكبر العوامل التى جعلتها تعتنى بشأن بحريتها حتى أصبحت ذات أسطول ضخم ملكت بهِ البحار وكانت به الدولة البحرية.

وهكذا فلسطين فإننا لا نفهم تاريخها جيدًا إلا بعد أن نعرف موقعها الجغرافى وحالتها الطبيعية ولذلك نقول: فلسطين إقليم صغير واقع فى المنطقة المعتدلة الشمالية بين بحرين كبيرين الأول الرملى فى شرقها والثانى المائى فى غربها. بل هى جسر بين آسيا وأفريقيا وأوروبا وطريق عمومى لسكان وادى النيل ودجلة – مهدى مدنية العالم القديم - بل خط اتصال بينهما ولذلك كان كلاهما

ينزع لإخضاعها كي يجهز على خصمه ويأمن من شره وغاراته. هي محطة بين الشرق والغرب تتنازع عليها الأمم القديمة والحديثة كي تسيطر عَلَى طرق التجارة. كانت ولا تزال ساحة حرب وميدان قتال للدول القديمة والحكومات الحديثة. فكم من قائد ظفر في سهولها وآخر سقط جيشه أسيرًا وخر قتيلاً أو هزيمًا. فكأنها ساحة أعدت لمبارزة القواد والعظماء أمثال: نبوخذ نصر وصحوتميس[1] (طتميس) والاسكندر وبومبي ويوليوس وأوغسطس وتيطس وكسرى وأبو عبيدة وصلاح الدين وقلب الأسد والسلطان سليم الأول وبونابارت وإبراهيم باشا وليمان فون ساندرس باشا واللنبي نسل إليها الجنود من آسيا وأفريقيا وأوربا وأميركا واستراليا وزيلاندا الجديدة فكانت مسرحًا يمثل فيه أجناس البشر بلباسهم الوطني رواية عالمية. فالفلسطيني الذي لم يخرج من بلاده شاهد سكان الكرة الأرضية من غير أن يركب لذلك الأهوال أو يتحمل المشاق والمصاعب كأنهُ طاف الأقطار.

تعاقب في توطن فلسطين والحكم عليها جميع أجناس البشر من سامي ومغول وارياني ولم تقطنها أُمة واحدة بل كانت في سائر أدوارها إما مندمجة في سوريا أو ملحقة بمصر. ولئن استحال عليها في الماضي أن تكون بلادًا مستقلة لموقعها الجغرافي وصغر مساحتها وتخالف سكانها. فستكون في مقبل الأيام كذلك إما متصلة بمصر أو مرتبطة بالعراق. والماضي مرآة الآتي وهو أشبهُ به من الماء بالماء.

٥ – سكانها

إن جميع التواريخ القديمة مظلمة فلا يعول عليها ما لم يؤيدها العقل والعلم والحفريات والآثار وأقدم تاريخ لفلسطين يبتدئ من ٣٥٠٠ ق.م. بشهادة الحفريات المكتشفة أخيرًا في جازر «أبو شوشة» وهي قرية قرب

---

(١) هذا على حسب اللفظ السامي القديم. وأما الشكل «طوتميس» فهو مأخوذ عن التجريف الأفرنجي.

الرملة وقد قام بهذه الحفريات بين سنة ١٩٠٢م و ١٩٠٥م جمعية إنكليزية The Palestine Exploration Fund يرأسها الأستاذ مكالستر MacAlister وذكر هذا الأستاذ أنهُ قد سكن فلسطين قديمًا أقوام غير ساميين وبرهن على ذلك بما نطقت بهِ الآثار وشهدت له الرسوم والأحجار.

وتلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وهذا ما استنتج من الآثار المذكورة:

١ – كان سكان جازر (أبو شوشة) قصار القامة يتراوح طولهم ما بين ٥ أقدام و ٤ بوصات و ٥ أقدام و ٧ بوصات.

٢ – كانوا من أبناء العصر الحجرى فزاولوا زراعتهم وجميع أعمالهم وحربهم بأدوات صوانية كالفأس والمنجل والحراب.

٣ – دجنوا الحيوانات الأهلية كالبقر والماعز والخراف والخنزير وربوا هذه الحيوانات فى مغاورهم.

٤ – كانوا يقطنون الكهوف التى لا تزال موجودة حتى الآن ولكن بعد ألف سنة من ذلك العهد أى سنة ٢٥٠٠ ق.م تدفق على فلسطين سيل عرم من سكان العراق وأواسط جزيرة العرب فنزلوا بها وعمروها وشادوا فيها المدن وهانحن أولاء نقص نبأً أهم الشعوب التى سكنت فلسطين.

(أ) الكنعانيون

هم قبيلة سامية نزحت من جزيرة العرب واوت فلسطين وكانت لغتهم القومية اللغة العبرانية التى اقتبستها أمة اليهود منهم بعد أن تركت لغتها. وكانت مساكن الكنعانيين الأولى فى منخفضات الأرض ولذلك سموا كنعانيين لأن معنى «كنعان» فى لغتهم الأرض المنخفضة. وكانت بلادهم واسعة الأطراف يحدها شمالاً مدخل حماه شمالى لبنان وشرقًا بادية الشام وجنوبًا بادية العرب وغربًا البحر المتوسط عكفوا عَلَى الزراعة والتجارة زمنًا طويلاً حتى أتت إليهم اليهود فحاربتهم وتغلبت عليهم واحتلت مدنهم المسورة ولأن ديانتهم كانت وثنية

حرمت اليهود التزوج منهم والامتزاج بـهم. وكثيرًا ما ورد ذكر الكنعانيين فى التوراة. قال فى سفر التكوين ص ٣ : ١٧ إن الكنعانيين سكنوا فى البلاد وإن إبراهيم سكن معهم. وقد ورد أيضًا فى التوراة ذكر حروبهم مع اليهود فى أريحا وجبعون وبيت آيل ولكن اليهود لم تستأصلهم فمنهم من ذهب إلى الشمال ومنهم من بقى فى البلاد فسيطت - مزجت – دماؤهم فى عروق السكان وتمثلوا فى سواهم من الأمم الأخرى.

وقد وجد فى الكرنك أسماء ١١٩ مدينة من المدن الكنعانية التى احتلها صحوتميس فرعون مصر حين غزا البلاد وانتصر عَلَى أعدائهِ ومن هذه المدن صور ويافا وعكا.

(ب) الحثيون

قبيلة انفصلت من تركستان نحو سنة ١٧٠٠ ق.م. وانهالت على فلسطين وهم فرع من شجرة مملكتهم المؤسسة فى شمالى سوريا وآسيا الصغرى. وكان عاصمة الحثيين «ختى» التى تسمى اليوم «بوغاز كوى» وحارب الحثيون فراعنة مصر ويؤيد هذا القول ما شوهد من النقوش والرسوم المحفورة على الأعمدة فى هيكل الكرنك فى مصر. وقد حاربهم رعمسيس ١٤ سنة فلم يتمكن من إخضاعهم ولذا اضطر إلى محالفتهم أما الملك ستى الثانى فإنه حاربهم وقهرهم.

والحثيون الذين سكنوا فلسطين هم بقايا أولئك الذين حاربوا المصريين فأتوا وسكنوا بين القدس والخليل. وامتد ظلهم زمنًا إلى بيت آيل ونابلس. وذكر أن إبراهيم اشترى مغارة المكفيلة (حرم الخليل وقبور الأنبياء) من الحثيين ودفن فيها زوجتهُ ساره وبعض بنيه وأحفاده. وأنهم أنجبوا بعضًا من العظماء مثل أوريا الحثى الذى كان ذا بأس فى جيش داود.

(جـ) اليبوسيون

جل ما نعرفهُ عنهم أنهم سكنوا القدس ولكن لم يعرف أصلهم حتى الآن. وقيل: إنهم بطن من الكنعانيين. وكانت القدس تدعى قديمًا يوس فلعلهم سموا اليبوسيين نسبة إليها. ولما جاء اليهود من التيه بقيادة يوشع بن نون واحتلوا

البلاد حاولوا استملاك القدس فعجزوا عنـها وظلـت فـى أيـدى اليبوسـيين إلى أن حاربهم دواد فحاصرهم وهدم أسوارها ودخلها عنوةً وجعلها عاصمة ملكه وضـرب عَلَى اليبوسيين الجزية حتى أيام سليمان. وقد ذكـر فـى التـوراة أن داود اشـترى بيدر أرونة اليبوسى (ساحة الحرم الآن) ليبنى هناك هيكلاً فلم يتوفق غير أن ابنهُ سليمان أنجز هذا العمل. ومن ملوكهم أدونى صادق وملكى صادق.

(د) الفينيقيون

هم فرع من الأقوام الذين سكنوا فلسطين وأبـوا الخضـوع لغـيرهم مـن الشـعوب القوية التى هاجمتهم فظلوا يقاومونهم. ولما عجزوا عن حماية بلادهم وعـز عليـهم الاستسلام والطاعة لأعدائهم انسحبوا إلى الشمال وكانوا يترقبون الفرص لاسترجاع منطقتهم واستخلاصها فكانوا فى ذلك مع العبرانيين كالأسبانيول مع العرب حين هاجمهم العرب فاعتصموا بالجبال وظلوا ينتهزون الفرص حتى سـنحت فـانقضوا على أخصامهم واستعادوا ملكـهم غـير أن الفينيقيـين لم يفـوزوا كالأسـبانيول فـى نهاية أمرهم. أما الفينيقيون فإنهم وإن لم يسـكنوا فلسـطين فقد كـانوا مـن بقايـا أهلها وتاخموا حدودها وأثـروا عَلَى تاريخـها. وقـد ظـهر فـى نقوشـهم المكتشـفة حديثًا أنهم كنعانيون لذلك حق لنـا البحـث عنـهم لمـا لهـم مـن الشـهرة الفائقـة والذكرى الحميدة فى العصور الأولى ولأنهم كانوا شعبة من الأمـة السـامية ولغتـهم شقيقة لغتنا بشهادة نقوشهم وحروف هجائهم. ولا ريب أنهم كانوا أعظم وأشـهر الأمم القديمة التى سكنت سـوريا وفلسـطين مـع أنـهم اكتفـوا بالسـاحل مـا بـين طرابلس الشام وحيفا. ومن أهم مدنهم صور وصيداء وبيروت وطرابلـس. وقـد كـان الفينيقيون وملكهم حيرام حلفاء سـليمان فعـاونوه علـى بنـاء الهيكـل ونقلـوا إليـه الخشب من حراج لبنان عن طريق البحر إلى يافا. وكان لهم مهارة فائقة فى البناء «المعمار» والصناعة التى كانت مفقودة عند اليـهود وتـزوج آخـاب ملـك إسـرائيل ايزابل الفينيقية رغم نواهى دينه وإرادة شعبهِ إذ كان محرمًـا عليـهم أن يخـالطوا سـواهم لأنـهم شـعب الله الخـاص علـى زعمـهم وهـذا لعمـرى منتـهى التعصـب الجنسى. فرغبة الملوك فى محالفتهم ومصاهرتهم دليل بين على عظمتهم وارتفـاع

شأنهم. ولقد ورد ذكرهم فى إنجيل مرقس عند قوله إن امرأة فينيقية طلبت من المسيح أن يشفى ابنتها.

تجارتهم: كانت بلاد فينيقية حلقة اتصال بين قوافل العراق والشام ومصر ولذلك كان أهلها دعاة المدنية المصرية والسبب الأقوى فى نشرها ونقلها إلى جميع الأقطار التى ذهبوا إليها. ولأن بلادهم كانت ضيقة يكتنفها البحر من الغرب والجبال من الشرق لذلك اضطروا إلى مزاولة التجارة فخاضوا من أجلها لجج البحار واقتحموا الأهوال والأخطار وكان ذلك عليهم أمرًا هينًا لأنهم جاوروا البحر وعرفوه – وأجرأ الناس عَلَى الأسد أكثرهم رؤية له–وقد تدرجوا فى أسفارهم البحرية من جزيرة أرواد إلى قبرص ورودس ومصر والأرخبيل الرومى واليونان وشمال أفريقيا ومرسليا وأسبانيا وإنكلترا. وأسسوا مستعمرة عظيمة فى شمال أفريقيا (قرطجه) التى زاحمت رومية وهددت كيانها أما صناعتهم فكثيرة أهمها الزجاج الملون والأرجوان والنحاس. وأما خدمتهم للمدنية فمنها نشر الحروف الهجائية التى أعطوها لليونان فتداولوها بينهم ثم وزعوها عَلَى الأمم الأوروبية. ومنها اختراع المقاييس والعيارات للوزن. وكانت ديانتهم وثنية منحطة ومن آلهتهم «بعل» و «عشتاروث» و «مولوك» التى كانوا يذبحون لها أولادهم ويقدمونهم لها قرابين.

(هـ) الفلسطينيون

من الواجب علينا أن نعرف تاريخ الفلسطينيين أكثر من غيرهم لأنا ورثنا اسمهم وامتلكنا بلادهم ووطنهم فرأينا لذلك أن نسهب فى ذكر تاريخهم إسهابًا لا يمله القارئ ولا يشف كثيرًا عن جمود ذلك العصر المظلم فنقول:

ليس الفلسطينيون من أسرتنا السامية وإنما هم من الشعب الأريانى وعَلَى الغالب أنهم قدموا بلادنا من جزيرة كريت عن طريق آسيا الصغرى «الأناضول» أو عن طريق مصر عندما قاتلهم رعمسيس وقهرهم وأسكنهم الساحل ما بين يافا وغزة ولما عظم شأنهم حاربوا مدينة صور وهدموها ومن مدنهم العظيمة غزة

وأسدود وعسقلان وعقرون «عاقر» وجت. وكانوا وثنيين يعبدون الأصنام والتماثيل وكان عندهم صنمٌ يدعى داجون نصفه الأعلى شبه إنسان والأسفل كالسمكة وكان له هياكل كثيرة فى أسدود وغزة وعسقلان وبيت دجن التى سميت باسمه وهى بقرب يافا ولعل مجاورتهم البحر هى التى جعلتهم يرجحون عبادة الأسماك عَلَى سواها من معبودات الوثنيين.

دخلوا البلاد واستولوا عَلَى غربها وجنوبها بعد مجىء اليهود بستين سنة وقد تنازعت الأمتان البلاد واستمرت بينهما الحروب سنين عديدة وكانت اليهود تستطلع أخبار الفلسطينيين من جبل النبى صمويل الواقع [عَلَى بعد ٧ كيلومترات من شمال القدس الغربى] وترقب من السهل سائر أعمالهم ولم يقو فريق منهما على إخضاع الآخر فاستطال الخصام واستفحل الشر وغرست البغضاء فى النفوس وحقد الفلسطينيون على أعدائهم وحاربوهم فى عقر دارهم «مرج ابن عامر» وهزموهم هزيمة منكرة حتى إن شاول ملك اليهود من شدة غيظهِ قتل نفسه عَلَى جبل جلبوع شرقى مرج ابن عامر قرب جنين فأخذ الفلسطينيون جثتهُ وجثة ولده يوناثان وعلقوهما عَلَى أسوار «بيسان» فى الغور شرقى المرج.

ظهر من الفلسطينيين جبابرة منهم جليات «طالوت» الذى قتله البطل الفتىّ داود بحجر من مقلاعه قبل أن يكون ملكًا أو نبيًا. امتدت المشاحنات بين الأمتين وظهر شمشون أحد قضاة بنى إسرائيل فحاربهم وأزعجهم ولكنهم أخيرًا أسروه وقلعوا عينيه وحبسوه حتى مات فى غزة وقبره هناك معروف تحول إلى جامع شرقى المدينة ويقال له «أبو العزم شمشون الجبار».

امتزج الفلسطينيون بغيرهم فانقرضوا وتحولوا كما تحول سواهم من الأمم الغابرة إلى أجناس وعناصر أخرى أما اليهود فلكونهم عاشوا منفردين معتزلين الأمم الأخرى وحرموا التزاوج مع غيرهم وحافظوا على جنسيتهم الأصلية بحرصهم على قواعد الدين ظلوا إلى يومنا هذا منتشرين فى سائر أقطار الكرة الأرضية يحنون إلى فلسطين ويطلبون الرجوع إليها كما ورد فى شعر ابن اللاوى الأندلسى الذى كانت روحه تطير من الأندلس على أجنحة أشعاره وترفرف فوق صهيون

وفلسطين قبل ٨٠٠ سنة. ومن أعجب الحوادث التاريخية أنهم يطلبون الرجوع إليها والتوطن فيها بعد أن تركوها ١٩ قرنًا وما ندرى ماذا يكون جواب الأمم التى سكنت فلسطين قبل اليهود وبعدهم إذا استشرناهم فى أمرها وسألناهم عمن هو الأحق. والبحث عن الفلسطينيين بحث واسع ومن أراد التفصيل فى ذلك فليراجع كتابى الأستاذين جورج آدم سميث ومكالستر فإنهما قد وفيا هذا الموضوع حقه.

(و) القبائل الأخرى

١ – **الأدوميون**: أولاد عيسو بن إسحق وكانت منازلهم جنوب البحر الميت كانوا قبائل وفرقًا وقد حاول شاول أن يتغلب عليهم فى القرن العاشر ق.م. فلم يحل بطائل. ولما تولى داود أخضعهم واحتل بلادهم وجعل عليها حامية من جنده فهمَّ أحد قوادهم فى عصر سليمان أن يخلع الطاعة فلم يفلح وظلوا تحت سيطرة الإسرائيليين إلى أيام يهوشافاط فمالأوا أعداءه وأعانوهم علَى حربه ولما حمل نبوخذ نصر عَلَى أورشليم أعانوه عَلَى نهبها وذبح أهلها فكافأهم وأيد سلطتهم فى أدوم ووسع حدودها من تخوم مصر حتى البحر المتوسط فداهمهم الأنباط «العرب» وملكوا بلادهم وكان بذلك انقراض ملكهم ودولتهم. ومن مشاهيرهم هيرودس الأدومى حاكم فلسطين ومساعد الرومان فى تأييد نفوذهم أيام المسيح وقد لعب دورًا هامًا فى التاريخ كما سيأتى.

٢ – **المؤآبيون** : من أبناء لوط ومنازلهم بين نهر أرنون (الأزرق) وتبوك وعربات قبالة أريحا التى استولوا عليها فوضع سبط بنيامين الجزية عليهم مدة ١٨ سنة فى زمن ملكهم الذى قتله آهود.

٣ – **العمونيون** : من ذرية لوط نسل ابن أعمى ومساكنهم فى جهة السلط وعمان والزرقاء.

٤ – **العماليق** : كانت مواطنهم صحراء سينا بين المصريين والفلسطينيين والكنعانيين ومن ملوكهم كدرلعومر وهم القوم الجبارون الذى حاربوا بنى إسرائيل

وتغلبوا عَلَى جدعون وشاول حتى امتدت سلطتهم إلى جوار نايلس ولم يكن لهذه القبائل حكومات منظمة أو إدارات مرتبة بل كانوا أشبه شيء بقبائل جنوبى فلسطين وشرقى الأردن مثل الترابين والتياها والعزازمة والجبارات والعدوان وبنى صحر والحويطات وغيرهم. فكانت كل قبيلة تلتف حول شيخها وهو الحاكم والقاضى والقائد وقد عنوا بأمر الزراعة وتربية الماشية وشن الغارة والسلب والنهب ولم يكن لأحد سلطان عليهم ولا دين لهم يرجعون إليه، فالقوى يأكل الضعيف، ومن شعر بعجزه وآنس فى خصمه القوة اضطر أن يتخذ له حليفاً ليتقوى به شأن القبائل البدوية فى يومنا هذا.

٥ – **الأنباط** : وهم أمة عربية جرفت بقايا الأدوميين وأسست ملكاً فى وادى موسى وقد غزاهم انطيوخوس سنة ١٣٢ق.م فارتد مخذولاً ولما حاصرهم ديمتريوس أطلّ عليه أحدهم وخاطبهُ قائلاً: (لماذا تقاتلنا ونحن مقيمون فى بادية أتحاربوننا لفرارنا من الرق)؟ فانسحب ديمترويوس برجاله وشيدوا حكومة منتظمة بملوك ووزراء وضربوا النقود. من عظماء ملوكهم الحارث الثالث الذى تغلب عَلَى البقاع بسوريا وملك دمشق سنة ٨٥ ق.م وساعد هركانوس المكابى على أخيه ارستوبولس.

والحارث الرابع: وهو حمو هيرودس انتيباس الذى حاربهُ الحارث لتزوجه عَلَى ابنته وكانت ابنة الحارث تحب هيرودوس فتزوج عليها زوجة أخيه هيروديا ابنة استوبولس فشق ذلك عليها وذهبت إلى بيت أبيها الحارث وذكرت له الخبر فاستشاط غضبًا وحارب هيرودوس فانتصر عليه انتصارًا كبيرًا ولم ينج هيرودوس منهُ إلا بالفرار. وقد امتدت مملكة الأنباط حتى شملت من الغرب جزيرة سينا ومن الشرق حوران وحدود العراق وبلغت من الجنوب وادى القرى. وظلت بلادها مركزًا تجاريًا بين جميع الأقطار المعمورة وكانت وسائل النقل موفورة لديها كالسكك الحديدية الأوروبية والأميريكية فى القرن العشرين وأخيرًا

حمل عليهم الإمبراطور تراجـان فبـدد شملـهم وقضـى علـى مدنيتـهم سـنة ١٠٦م فاندمجوا فى غيرهم وأصبحوا أثرًا بعد عين. ومن أعظم مدنهم بطرا وبصرى واذرع وجرش والكرك والشوبك وايله والحجر وصلخد ومادبا ودمشق.

وعدد ملوكهم ١٨ منهم عبادة الأول، عبادة الثانى ومالك والملكة خلـد، الملكـة شقيلة، ريبال، الملكة جميلة. وهذا مما يثبت أنهُ كـان للمـرأة فـى العصـور الأولى مثلما كان للرجل من الحقوق والواجبات.

obeikandl.com

الفصل الثانى

اليهود فى فلسطين

٦- الدور القبائلى – أودور البداوة :

اليهود قبيلة سامية هاجرت من العراق (اورالكدانيين) سنة ٢٠٠٠ ق.م برئاسة إبرام الذى صار نبيًا وتسمى بعدئذ إبراهيم. ساروا فى الطريق التى يسلكها اليوم المسافرون بين العراق وسوريا شمالى نهر الفرات حتى وصلوا شمالى سوريا ثم انعطفوا إلى الجنوب حتى انتهوا إلى أرض كنعان (فلسطين) وكان إبراهيم يرتاد البقاع الخصبة ليرعى ماشيته وقد ورد ذكره كثيرًا فى الكتاب المقدس وقدّم ابنَه إسحق ذبيحة – عَلَى رأى التوراة وعلماء المذهب الحنفى – على جبل موريا مكان الحرم الشريف الآن.

أما مدينة حبرون فقد أهمل اسمها القديم وسميت بالخليل نسبة إلى إبراهيم الذى دعى خليل الله لأنهُ سكن هناك واشترى مغارة المكفيلة (حرم الخليل) وفى الجنوب الغربى من المدينة قرب قرية الظاهرية واد كبير ومرعى واسع يقال له (وادى إبراهيم) يزعمون أنهُ كان يرعى مواشيه فيه ولا يزال حتى الآن وقفًا تنفق غلته على وظائف الحرم الخليلى.

ولد لإبراهيم ابنان إسماعيل من جاريتهِ هاجر وإسحق من زوجته سارة التى كانت من قومه العراقيين فولد لإسحق يعقوب الذى دعى بعدئذ إسرائيل وأصبح اليهود ينتسبون إليه ويعتقدون أنهم تحدروا من صلبهِ.

خلف يعقوب ١٢ غلامًا فاضطرتهم مجاعات فلسطين المتوالية لانتجاع مصر ملتجئين إلى حوض نيلها الخصب حيث استعبدهم هناك الفراعنة غير أن النقوش والألواح المصرية أغفلت خبر الإسرائيليين ولم تذكر عنهم شيئًا كما أن كثيرًا من

نقدة التاريخ أغفلوا ذلك أيضًا وأنكروا ذهاب بنى إسرائيل إلى مصر ولذلك يجمل بنا ألاّ نتسرع فى الحكم بل ننتظر ما سيكتشف فى مصر وسورية بالحفريات والآثار علها تهدينا إلى معرفة الحقيقة والصواب.

ظل الإسرائيليون مشرَّدين إلى أن نبغ منهم موسى فأرسله الله نبيًا إلى قومهِ فأنقذهم من غربتهم وعاد بهم إلى أرض كنعان عن طريق الجنوب الشرقى.

كان موسى نبيًا ورجلاً عالمًا بل مشرعَ اليهود الأكبر ومصلح عقائدهم وإليهِ تنسب الوصايا العشر التى هى مصدر الأخلاق ونواة الأديان وإنا نثبتها هنا وإن كانت حفريات العراق الأخيرة تدل على أن الشريعة اليهودية وأكثر النواميس مقتبسة من الشرائع الحمورابية لكونها أقدم من موسى وهاهى ذى الوصايا المذكورة:

١ – لا يكن آلهة أخرى أمامى.

٢ – لا تصنع تمثالاً منحوتا ولا صورة ما.. الخ.

٣ - لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً.

٤ – اذكر يوم السبت أى اعمل ستة أيام واسترح اليوم السابع.

٥ – اكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك عَلَى الأرض.

٦ – لا تقتل.

٧ – لا تزن.

٨ – لا تسرق.

٩ – لا تشهد عَلَى قريبك شهادة زور.

١٠ – لا تشته بيت قريبك ولا شيئًا مما له.

ويظهر من الوصية الأولى أن اليهود أسبق شعوب فلسطين إلى التوحيد وأن موسى أول من قال: (لا إله إلا الله) بخلاف غيرهم من الشعوب العربية والبابلية والمصرية الذين اتخذوا من دون الله آلهة كثيرة ونعتها كل فريق بما يناسب إقليمه وبيئته.

وإذا سلمنا بنص التوراة وأقوال المؤرخ الشهير يوسيفوس نجد أن قائد بنى إسرائيل الذى فتح فلسطين كان يوشع بن نون وهو الذى عبر بجيشهِ واحتل مدينة أريحا من الكنعانيين. ولكن لا يذهل القارىء ولا يتوهم. أن جيش اليهود كان منظمًا مدرّبًا كالفيالق العصرية بل كان أشبه بقبائل ألح عليها القحط وخافت عدوًا ففزعت إلى الرحيل وأمت إقليما آخر تتلمس فيه الحياة لتنقذ نفسها من براثن الجوع والهلاك. ولذلك كانت كل قبيلة من اليهود وقتئذ خاضعة إلى أميرها منقادة إلى زعيمها على أنهم كانوا كثيرًا من الأحيان يتمردون على مرشديهم وقوادهم ويتذمرون منهم لما يرونه من وعودهم الخلابة وهذا مما يدل على أن الطبائع البدوية لا تخضع لأحد إلا مكرهة مرغمة.

نعم احتل اليهود فلسطين بحد السيف وبقسوة شديدة ولكن ذلك الاحتلال لم يكن منظمًا ولم يستطيعوا أن يبيدوا جميع أعدائهم إذ إن الفلسطينيين ما انفكوا عن مقاومة اليهود حتى أواخر أيامهم وقد أزعجتهم قبائل المديانيين (شعب عربى ورد ذكرهم فى القرآن حيث يقول: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [1] وضيقت عليهم مذاهبهم. فيروى عن شيخ يهودى اسمه جدعون أنهُ كان يدرس قمحه فى المعصرة ليخفيهُ عن أعين المديانيين ولا يأمن من أن يبقيهُ فى البيدر. وقد نحت بنو إسرائيل الكهوف والمغاور وبنوا الحصون اتقاء من شرهم وتخلصًا من غاراتهم ومع هذا فلم يظفروا بأمنيتهم إذ إن المديانيين والعمالقة وأهل المشرق كانوا كلما حان الحصاد ينهبون زرعهم ويأكلون ثمارهم.

وقد شدد زعيم الإسرائيليين جدعون فى تحريم المديانيين وفقًا للشريعة اليهودية فلم ينجح وظل اليهود محتكين بهم وتزوجوا بناتهم وتركوا- يهوَه - إلاههم وعبدوا آلهة البلاد وأصنامها فضعفت بذلك الرابطة اليهودية وانحلت العصبة القومية وظلوا قبائل متفرقة فعجزوا عن إبادة الجيران والسكان مع محاولتهم ذلك حتى إنهم جبنوا عن ردِّ هجمات القبائل البدوية التى يمكننا أن نشبهها للقراء بالغارات التى تحدث شرقى الأردن ولا باعث لها إلا أخذ الثأر أو حب الغزو والتغلب.

---

(١) سورة هود الآية ٨٤

٧- عصر القضاة:

كان بنو إسرائيل كلما انتابتهم الصدمات ينبت فيهم رجال عظام (القضاة) فكأن الشدائد كانت محكًا لهم تميز منهم الخبيث من الطيب وتظهر من بينهم الرجل العظيم فينتخب قاضيًا لسبط ثم يجتمع عليه بعض شيوخ الأسباط فيولونهُ أمرهم وتبقى الإدارة الداخلية لهم. وحكم القاضى ينفذ فى الجميع ولم يك هذا المنصب وراثيًا بل كان منحة تتبارى فى إحرازها الأبطال وربما تعددت القضاة فى آن واحد فيجتمعون ويحاربون أعداءهم. ودامت مدة حكمهم من سنة ١٥٩٥ق.م – سنة ١٤٢٠ ق.م. وتتميمًا للفائدة نذكر هنا بعض مشاهيرهم:

(أ) جدعون: وهو من قرية عفرة وربما كانت طيبة بنى سالم وتبعد عن رام الله ١٢ كيلومترًا لجهة الشرق الشمالى وقد حارب المديانيين وأراح قومه من شرهم (سفر القضاة ص ٦: ٧،٨) وحاول أن يجمع كلمة اليهود تحت لواء سلطته إلا أن عراقتهم فى البداوة وفقد شعور الاتحاد والتضامن من نفوسهم جعل ذلك عليهِ مستحيلاً.

(ب) شمشون : وهو من قرية صرعا الحد الفاصل بين السهل والجبل وهى من بلاد الخليل (العرقوب) واقعة بين القدس والرملة ويمر بها الخط الحديدى. وكان شمشون جبارًا ذا بأس وقوة له مواقف مشهورة فى محاربته الفلسطينيين الذين كانوا أخصامًا ألداء لقومه اليهود (سفر القضاة ص ١٣) وينسبون سبب قوته إلى استرسال شعره فإذا طال قوى وإن قصر ضعف ويقال: إنهُ نزل يومًا إلى اشقلون (عسقلان) وقتل ثلاثين رجلاً فلسطينيًا وأخيرًا أسره الفلسطينيون ومات فى غزة كما ذكرنا.

(جـ) صموئيل : ولد فى قرية الرامة (الرم) التى تبعد ٩ كيلومترات عن القدس لجهة الشمال الغربى وكان كاهنًا تولى القضاء سنة ١١٤١ ق.م. على كل أسباط بنى إسرائيل وبقى قاضيًا زمنًا طويلاً واشتهر بعدله وأصالة رأيه وإصابة

أحكامه وإخلاصه وأمانته وغيرته على مصلحة أمته وهو آخر القضاة وأول من اجتمعت عليهِ كلمتهم ثم أوحى إليهِ بالنبوة. وبعد أن مضى عليهم ٤٠٠ - ٥٠٠ سنة أدركوا أضرار التفرقة وعرفوا منافع الوحدة والتضامن فاقتبسوا من جيرانهم وقلدوهم فى إدارتهم ومالوا إلى الحضارة ونسوا البداوة فاتحدت أميالهم واتفقوا على أن يقيموا منهم ملكا فطلبوا إلى النبى صموئيل أن يختاره لهم فمسح (توّج) شاول وكان يؤنبهُ إذا حاد عن سنة الله وشريعته لأن رئيس السلطة الروحية مسيطر على رئيس الحكومة الزمنية.

(د) دَبورَه: كثيرًا ما قامت النساء بأعمال خطيرة فظلمهن المؤرخون وغضوا من شهرتهن ولكنا نذكر بعض من اشتهر منهن فنقول: كانت دبورة فتاة من سبط افرايم ومن سكان قرية عطارة عند بناء المعلوف (بين القدس ورام الله) فكانت تجلس تحت نخلة وتقضى لشعبها ثم صارت نبية وقادت الجيوش لما جبن باراق اليهودى عن محاربة سيسرا الكنعانى فجندت عشرة آلاف مقاتل ونهدت بهم إلى جبل طابور شرقى مرج ابن عامر وحاربت الكنعانيين وكسرت جيشهم وبددت شملهم ولقد حجبت شهرتها اسم زوجها لفيدوت حتى أصبح يعرف بها وينسب إليها. إن عمل دبوره هذا لا يقل عن عمل بُوديسيا (Boadicia) البريطانية التى حضت قومها ضد الاحتلال الرومانى بل يشبه عمل جان دارك الفرنسية التى أخرجت الإنكليز من فرنسا ويمائل مجازفة زنوبيا العربية ملكة تدمر التى قاومت سلطة الرومان واستماتت فى حماية بلادها والذود عن ملكها ونظير هؤلاء كثير فى النهضة الإسلامية (فعائشة أم المؤمنين قادت جيشًا عرمرمًا وحاربت به عليًا فى العراق (وقعة الجمل))[1]

(١) الصحيح أن عائشة رضى الله عنها اشتركت فقط فى الجيش ضد علىّ كرم الله وجهه ولم تقم بقيادة الجيش وإنما كانت قيادة الجيش لطلحة والزبير.

والفارعة[1] أخت الوليد الشارى[2] وغزالة[3] زوجة شبيب الخارجى[4] وأخت ضرار[5].

٨ - اليهود كأمة:

لما دخل بنو إسرائيل البلاد كانوا فرقًا وأحزابًا لا رابطة تجمعهم ولا عصبية توحدهم بل كانوا مقسمين إلى اثنى عشر سبطًا (قبيلة) كل سبط يستمد قوته من

---

(١) هى القارعة (أو فاطمة، وقيل ليلى) بنت طريف بن الصلت، التغلبية الشيبانية شاعرة من الفوارس. كانت تركب الخيل وتقاتل عليها الدرع والمغفر وهى «أخت الوليد بن طريف» الخارجى. اشتهرت بقصيدة لها فى رثائه، تقول فيها:

أيا شجر الخابور مالك مورقًا كانك لم تجزع على ابن طريف

قال ابن خلكان. كانت تسلك سبيل الخنساء فى مراثيها لأخيها صخر

(٢) هو الوليد بن طريف بن الصلت التغلبى الشيبانى ثائر من الأبطال، كان رأس الشراة فى زمنه. خرج بالجزيرة الفراتية سنة ١٧٧ هـ فى خلافة هارون الرشيد وحشد جموعًا كثيرة، وكان ينتقل بين نصيبين والخابور وتلك النواحى وأخذ أرمينية، وحصر خلاط، وسار إلى أذربيجان ثم إلى حلوان وأرض السواد، وعبر إلى غرب دجلة، وعاث فى بلاد الجزيرة، فسير إليه الرشيد جيشًا كثيفًا مقدمه يزيد بن مزيد الشيبانى، فأقام قريبًا منه يناجزه ويطاوله مدة ثم ظهر عليه يزيد، فقتله بعد حرب شديدة سنة ١٧٩ هـ/٧٩٥ م

(٣) هى غزالة امرأة شيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى الحرورى. من شهيرات النساء فى الشجاعة والفروسية ولدت فى الموصل وخرجت مع زوجها على عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ، أيام ولاية الحجاج فى العراق، فكانت تقاتل فى الحروب قتال الأبطال. قال أيمن بن خزيم:

أقامت غزالة سوق الضراب لأهل العراقين شهرًا قميصا

أى شهرًا كاملاً وأشهر أخبارها فرار الحجاج منها فى إحدى الوقائع أو تحصنه منها حين أرادت دخول الكوفة وقد عيره بذلك الشعراء. قال عمران بن حطان، تخاطبه:

أسد على وفى الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر

قتلها خالد بن عتاب الرياحى فى معركة أبواب الكوفة قبيل غرق زوجها شيب سنة ٧٧ هـ/ ٦٩٦م

(٤) هو شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيبانى أبوالضحاك من أبطال العالم وأحد كبار الثائرين على بنى أمية كان داهية طماحا إلى السيادة. ولد سنة ٢٦ هـ / ٦٤٧م ومات سنة ٧٧هـ / ٦٩٦م

(٥) ورد ذكره فى تاريخ الطبرى

نفسه فكان يهددهم أعداؤهم الكنعانيون ويبطش بهم الفلسطينيون ويذلهم المديانيون إلى أن علموا وتحققوا أن لا خلاص لهم إلا إذا اتحدوا واشتركوا جميعا فى الدفاع عن كيانهم وإن لم يفعلوا آل أمرهم إلى الفناء والدمار.

هذه حالة طبيعية فى الأمم متى رأت كيانها الاجتماعى مهدَّدًا تتحد كلمتها لدفع الضرر العام الذى يشمل جميع أفرادها فإذا زال السبب العامل رجعوا إلى شيمتهم الأولى.

مرَّ على بنى إسرائيل ٥٠٠ عام والدهر يلقى عليهم عظاته ويعلمهم أن لا قيمة للشعب المتخاذل أمام الجمع المتماسك والمرء مجبور على أن يتطور بحسب زمانه فيكثر فى زمن كانت فيه الغلبة للكاثر ويتعلم فى عصر سادت فيه العلماء ويجمع المال فى قرن حظى فيه الأغنياء ففقهوا هذه العظة واتفقوا لأول مرة وطلبوا إلى النبى صموئيل أن يختار لهم ملكًا فمسح عليهم شاول[1] سنة ١٠٩٥ق.م أميرًا عامًا عَلَى جميع إسرائيل وبقى لكل سبط أمير خاص يحكم شعبه خاضعًا للسلطة العليا.

(أ) شاول: كان أول ملوك الأمة اليهودية ولكنه لم يتخذ مركزًا ولم يختط عاصمة لأن حياته كانت عسكرية وحلقات حروب متصلاً بعضها ببعض فلم تمنحه الأعداء فرصة لتكوين أمته وإحداث لوازمها فكان لا يفرغ من جهة إلا انصرف إلى أخرى ولا يصدر عن غزو قوم إلا غزا آخرين. فحارب العمونيين واستأصلهم ثم قاتل العمالقة والموآبيين والادوميين وخضد شوكتهم وفلّ حدّهم. أما الفلسطينيون فكانوا خصومه الألداء الذين قاوموه وجاوزوا حدودهم الساحلية وتوغلوا فى البلاد العبرانية حتى قرية مخماس الواقعة شمال القدس الشرقى وألحوا عَلَى العبرانيين فهزموا شاول وجيشه فى مرج ابن عامر فقتل نفسه خوف أن يأسره أخصامه الناقمون عليه. وقد دلت الحفريات الأخيرة فى تل الفول أن شاول لم يحكم إلا جزءًا صغيرًا من فلسطين.

---

(١) كان شاول من أصغر أسباطهم وأحط أسرهم وإنما أجمعوا عليه لما كان فيه من الوسامة والجسامة ولأنه كان يفرع القوم طولاً واشتهر بالبسالة والاقدام.

(ب) داود: ولد فى بيت لحم وكان له عدة إخوة. رعى الغنم فى حداثتهِ وهى مهنة الأنبياء. فإبراهيم وموسى ومحمد ﷺ رعوا الغنم وأطلق هذا اللقب الجميل (الراعى الصالح) عَلَى السيد المسيح. فكأن الله يجرب الإنسان برعاية الغنم قبل إرساله نبيًا فإن رآه رؤُوفًا أمينًا أرسله إلى البشر ولا ريب أن كل راع يحتاج إلى ثقة رعيته التى تطالبه بالإخلاص لها. فإن لم تتوفر فيه هذه الشروط نزعوا منه ثقتهم فعاد بالخسران المبين.

كان داود مخلصًا لرعيتهِ فقتل دبًا وأسدًا عَلَى تلال بيت لحم ذبًا عن قطيعهِ. وقتل جليات (طالوت) الجثى زعيم الفلسطينيين دفاعًا عن قومه. وفى إبان فتوته نال ثقة شعبهِ فكان حاجب الملك (ياوره). وبعد موت شاول انتخب ملكًا عَلَى سبط يهوذا سنة ١٠٥٥ ق.م. وحاربه إيشبوشث بن شاول مع الأسباط العشرة الذين لما أخفقوا فى مبتغاهم انتقضوا عليهِ وقطعوا رأسهُ وقدموه إلى داود. وبعد سبع سنين ونصف من حكمهِ توَج ملكًا على الأسباط كافة وظلت عاصمته الخليل حتى انتزع القدس عنوة من اليبوسيين سنة ١٠٤٩ ق.م. وجعلها مقر حكمته وقضى مدة حياته فى الحرب والكفاح يناضل عن أمتهِ ويصد غارات الغزاة ويسكن القلاقل الداخلية والفتوق العائلية لأن المفسدين أغروا ابنهُ أبشالوم وأطمعوه فى الملك حتى خرج عَلَى والده وحاربهُ فلاقى جزاء عمله ومات غير مأسوف عليهِ إلا من أبيه الذى رثاه بشعره الرقيق ونغماته الموسيقية المشهورة. ويقال أن قبر داود عَلَى جبل صهيون فى المحل الذى يسمى (النبى داود) وحارة (الدواهدة) مجاورة لضريحهِ الشريف. وبعد وفاته مُسح ابنهُ سليمان ملكًا عَلَى جميع أسباط بنى إسرائيل.

عصر اليهود الذهبى

(جـ) سليمان: إن كلمة سليمان مشتقة من سَلم ومعناها باللغةِ الكنعانية (المسالم) ضد المعادى. وبالفعل فإن السلام والأمن سادا طول حياتهِ ومدة ملكه لأن أباه داود كفاه الأعداء بفوزه عليهم وذلل له الصعاب فأسلمهُ الملك سنة ١٠١٥ق.م هادئًا ساكنًا فقام بأعبائهِ وحول نظره لتوسيع حدود مملكته وبناء مدنيتها

فتجاوزت ما وراء فلسطين. ويقول كتاب اليهود إن مملكة سليمان امتدت (من الفرات حتى حدود مصر). فضخمت دولتهُ وعظم شأنهُ وعقد معاهدات سلمية مع جيرانهَ ومن حوله من الأمم.

فإذا قابلنا هذه الحالة بحالتهم فى عهد جدعون لما كان بنو إسرائيل لا يأمنون عَلَى بيادرهم وكرومهم من غارة أعدائهم عرفنا فائدة الاتحاد والتآزر.

زهت أيام سليمان وأزهرت حضارتها فكثرت الأموال المقنطرة فى خزائنه من الجزية من خصومه والضرائب التى أثقلت كاهل أمته فانغمس فى البذخ والترف فنقمت عليه رعيته هذا العمل ساخطة لتلك الشدَّة التى كانت من أكبر العوامل الأساسية فى انقسامهم إلى مملكتين.

لا ريب أن من أعظم الأسس الاقتصادية لإنماء الثروة هو الأمن الداخلى فإذا استتب أمنت الناس وتنافسوا فى إنتاجها وجدُّوا فى إحداثها ومن تتبع عصر سليمان عرف أن البلاد كانت آمنة مطمئنة ولذلك كثرت الأغنام والمواشى والحجارة الكريمة والرياش الفاخرة والعاج الثمين ولو لم يكن الإنسان أمينًا لما استكثر من ملذات الحياة وطيباتها.

أرسل الله سليمان نبيًا حكيمًا وهذه قصة تبرهن على حسن فراستهَ وفطنتهِ: سكنت امرأتان فى بيت وولدتا فى يوم واحد فاضجعت إحداهما على ابنها ليلاً وأماتتهُ فقامت مسرعة وبدلت طفلها الميت بطفل رفيقتها الحى ولما استيقظت أم الولد وجدت الطفل الذى بجانبها ميتًا ولكنهُ ليس بابنها فغضبت وخاصمت رفيقتها عند سليمان وبعد أن سمع قصة كل منهما فكر قليلاً ثم قال ائتونى بسيف وأمر بشطر الولد الحى إلى قسمين وإعطاء كل امرأة نصفًا فتحرَّك حنان أمه وقالت أعطوه لها فإنى سامحتها به فأجاب سليمان اعطوا الولد الحى لها فإنها أمه وأحق به من غيرها. ويروى أن بلقيس ملكة اليمن قطعت الفيافى والصحراء سنة ٩٩٣ ق.م. رغبة فى مشاهدة حكمة سليمان واشتياقًا لرؤية عدله.

وسنة ١٠١٤ ق.م تزوج ابنة فرعون آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين من الدول المصرية وأعطاها والدها مدينة جازر (أبو شوشة) بائنة العرس (دوطة).

ومن أجلّ أعماله بناء الهيكل الذى صار مهبط آمال الأمة اليهودية وهو شبيه بالكعبة عند عرب الجاهلية من حيث تكوينهِ الأمة اليهودية وتوحيدها، فكما ربطت الكعبة العرب بقريش لكونها قبلتهم كذلك شأن الهيكل عند العبرانيين. فوجود أثر مقدَّس بين ظهرانى أمة يمهد لها الاتحاد وعدم التفرقة.

ولولا المعاهدة السلمية التى عقدت بين اليهود والفينيقيين لما تم بناء الهيكل لأن الفينيقيين هم الذين نقلوا إليه الأخشاب من جبل لبنان وساعدوهم فى إتقان البناء والنقش والهندسة لأنهم وقتئذ لم يكونوا يحسنون من الصنائع النفيسة شيئًا وقد تم بناءُ الهيكل فى سبع سنوات ويرجح أن أحجاره قطعت من المحجر المسمى مغارة سليمان الآن وهى واقعة تحت المدينة إلى الشرق من باب العمود (راجع تاريخ القدس).

ومن آثار سليمان الباقية «اصطبله» الكائن تحت المسجد الأقصى وبرك سليمان الواقعة جنوب بيت لحم وبعض آثار أخرى لا قيمة لها مثل أحجار المبكى فكان هذا العصر خير أيام بنى إسرائيل بل واسطة عقد ماضيهم المؤلف من ثلاث خرزات فقط الأولى شاول والثانية داود والثالثة سليمان وبعد انتظام الخرزة الأخيرة فى القلادة انقطع السمط وتفرقت الكلمة فانقسمت المملكة وانحدروا فى هاوية الانحطاط.

٩- انقسام المملكة وخرابها

التاريخ يعيد نفسه ولو أيقظتنا مواعظهُ لما لدغنا من جحر مرتين فإنهُ ألقى علينا دروسًا عملية وأثبت لنا مرارًا «أن القوة بالاتحاد والضعف مبدأه الانقسام» ولكننا مازلنا نتغافل عن كل هذا ونؤول الحوادث كما نريد نحن لا كما تريد السنن الطبيعية. وربما يستغرب القارئ كيف انقسمت فلسطين إلى مملكتين مع أنها جميعها أصغر وأقل من أن تكون مملكة واحدة ولكن يزول عجبه إذا عرف أن سبطى يهوذا وبنيامين عاشا بعيدين عن أسباط إسرائيل العشرة فاختلفت بينهم مذاهبهم واشتجرت بينهم الضغائن وكان كلما بدرت غنيمة لاسيما عند تعيين الملوك ينضم يهوذا إلى بنيامين ويختارون ملوكًا من أنفسهم فتغضب

إسرائيل لذلك وقد نفروا من شاول لأنهُ كان من سبط بنيامين وخافوا بطش داود فاستسلموا إليه مكرهين وأذعنوا إلى سليمان لأنهُ كان إداريًا حكيمًا فضبط جميع إسرائيل واخلدوا إلى طاعتهِ وفى أواخر أيامه مقتوا حكمهُ فقسا عليهم وحاول قتل يربعام بن ناباط ففر إلى مصر معتصمًا بالملك شيشق وتربص حتى ولى الأمر رحبعام الذى كان غرًا جهولاً و فظًا قاسيًا خشنًا فعاشر الفتيان ونبذ العقلاء المدربين ونكب عن طريق الحق فسألوه تخفيف ما عليهم من الضرائب والإقلاع عن تبذير الأموال فأجابهم قائلاً: إنهُ سيعاملهم بأشد مما عاملهم بهِ أبوه واستمر على المغالظة والجفاء والشدة إلى أن أكبروا عمله وجاهروا بعدائهِ فسار شيشق من مصر ونزل عَلَى القدس فافتتحها واختلس أواتى الهيكل الذهبية وتوج دخيله يربعام ومن ذلك الوقت انقسمت البلاد إلى مملكتين صغيرتين الأولى «إسرائيل» وهى الواقعة فى الشمال من القدس والثانية يهوذا وهى الواقعة بين القدس وبئر السبع.

١٠ - مملكة إسرائيل من سنة ٩٧٥ق.م إلى سنة ٧٢٢ ق. م.

انشطرت البلاد شطرين فكان أول ملوك القسم الشمالى يربعام بن ناباط الذى كبر عليه أن تخرج القدس من مملكتهِ وهى مهبط آمال اليهود وقبلتهم التى يوجب عليهم دينهم أن يحجوا إليها ثلاث مرات فى السنة وخاف من الحجاج إن هم أبصروا تلك الآثار الفخيمة وآبهة الملك وعظمته أن تنصرف قلوبهم عنه ويضعف إيمانهم بهِ لذلك عزم عَلَى بناء مذبح فى بيت ايل لأنهُ محل مقدس ليرتاح من هذه الأحلام المزعجة، فيأمن على مركزه، ويكون قد أرضى بذلك قومه. وألهاهم.. عن زيارة القدس واشغلهم عن التعلق ببلاد عدوه وهذا العمل يشبهُ ما جرى لعبد الملك بن مروان فإنهُ بنى قبة الصخرة أثناء ثورة عبد الله بن الزبير ليستعيض بها موقتًا عن الكعبة المكرمة وهكذا رجال السياسة وأربابها إذا ضاقت بهم الأمور بعثوا عاطفة الدين وهزوها لتنفيذ مآربهم وبلوغ أمنيتهم.

إن يربعام بن ناباط أول من نقل عبادة الأصنام والتماثيل من مصر ووضعها فى الهيكل لأنهُ انتحل عبادتها أثناء إقامته بينهم فهو مؤسس عبادة الأوثان وبانى حكومة إسرائيل التى تداولها ١٩ ملكًا فى مدة ٢٥٤ سنة ولكنهم لم يكونوا من سلالة واحدة بل من أسر شتى وكثيرًا ما كان يخرج عَلَى الملك قائد أو طامع فيختلس الملك منهُ ويغتصب عرضه ويستبد بالأمة وهذا منتهى الفوضى والخلاف الذى بهِ تنقرض الأمم فإذا قابلنا نظام الحكومة الإسرائيلية بغيرها من الحكومات جاز لنا أن نقول: إنهُ قام فى المملكة الإسرائيلية تسع حكومات لأن كل ملكين كانا من أسرة واحدة فمتى كان ينقرض بيت الملك الأول وانتقل إلى أسرة أخرى فيكون معدل حكم كل ملك منهم ثلاث عشرة سنة.

وأى عمل أدل على أنهم لا يصلحون للإدارة والسياسة من كونهم لم يجمعوا عَلَى رأى قط بل قضوا حياتهم فى الانقسامات والقلاقل وفساد النظام. كانت عاصمة إسرائيل «طلوزه» ثم نقلوها إلى شكيم فكانوا يصيفون بها ويشتون فى يزرعيل «زرعين» فلما ولى الملك عمرى أسس مدينة السامرة «سبسطية» وجعلها العاصمة وهى الآن بلدة حقيرة شمالى مدينة نابلس.

لم يكتف اليهود بالانقسام فقط بل طفقوا يناوئون بعضهم بعضًا فمملكة الشمال كانت تجرد جنودها وتهاجم مملكة الجنوب وقد وصلت مرة إلى الرامة «الرام» وحصرت حصنها ولقد بلغ من حقد إسرائيل أن حالفت مملكة آرام فى دمشق عَلَى محاربة يهوذا.

ومما هو جدير بالذكر أن إسرائيل تركوا عبادة الله وصبوا إلى عبادة الأوثان المصرية وأصنام أهل البلاد لاسيما لما اقترن آخاب بالأميرة الفينيقية إيزابيل بنت الملك ايثبعل الصيدونى فإنها شجعت الناس على عبادة آلهة قومها كبعل وعشتاروث فعبدوها واستبدلوا الذى هو خير بالذى هو أدنى إلى أن تلاشت مملكتهم لما عجزت عن رد سيل المملكة الآشورية الجارف التى ابتلعتها لقمة سائغة وهدمت عاصمتها وأسرت رجالها ونقلتهم إلى نينوى فانقرضت مملكتهم سنة ٧٢١ ق. م. بعد أن حكمت قرنين ونصف.

١١ - السمرة

قدمًا كان أسلوب الاستعمار يختلف عما هو اليوم فكان الملوك إذا غضبوا من أمة حاربوها فإن ظفروا بها يسبون زعماءها وأغنياءها ومفكريها إلى بلادهم ويستبدلونهم بأبناء مملكتهم حتى لا يمضى نصف قرن إلا اندمج كل من سبى بمن حولهم فيعتنقون لغتهم ودينهم وعاداتهم ويصبحون جزءًا منهم ويكون قد ثبت وأفرغ من أرسلهم فتصبح البلاد بلادهم والأهالى شعبهم وهكذا فعل شلمناصر بمملكة إسرائيل فإنهُ نقل سكانها إلى العراق وأرسل السمرة مكانهم وهذا حذوه «اسر حدّون» فلو أنهما نجحا فى خطتهما لصارت فلسطين بقعة من العراق. كان السمرة يدعون كوثيين أو كوفيين لأنهم أتوا من الكويت كما روى ذلك الأب انسطاس الكرملى فى المشرق السنة السابعة العدد العاشر وكانت ديانتهم الوثنية ولما سكنوا مدينة السامرة انتسبوا إليها فصاروا سامريين وكان عددهم غير معلوم إلا أنهم يقدرون بعشرين ألف نفس.

هبطوا البلاد ولم يكن فيها سوى الفقراء فأسسوا أمة قوية وكتلة متينة وقد ثقل عليهم عودة بنى إسرائيل فوشوا بهم إلى ملوك الفرس وعارض رئيسهم سنبلط نحميا عندما حاول بناء سور أورشليم.

وقد حاربوا فسباسيانوس الرومانى فأباد أكثرهم. وبعد ما رجع اليهود من السبى وشرعوا فى بناء القدس وترميم الهيكل قاومهم السمرة مقاومة عنيفة. واشتدت العداوة بين اليهود والسمرة حتى إن اليهودى كان إذا أراد السفر من الناصرة إلى القدس ذهب إلى الغور ومنه إلى القدس كى يتجنب بلاد السمرة الذين أصبحوا نجسين فى نظر اليهود وتظهر هذه العداوة من حديث المسيح مع المرأة السامرية على بئر يعقوب.

وأما السمرة اليوم فلا يزيد عددهم عن مائة نفس يعيشون فى مدينة نابلس ولا يخالطون أحدًا. وهذا أكبر عامل فى انقراضهم لأنهم يقلون كل سنة العدد السابق. ويقوم السمرة كل سنة بتقدمة ذبيحة الفصح عَلَى جبل جرزيم. ويدعون أنهم هم شعب الله الخاص لا اليهود. وديانتهم وكتبهم المقدسة تشبهُ ديانة اليهود وكتبهم إلا أنها تختلف فى نقط معدودات.

١٢ – مملكة يهوذا من سنة ٩٧٥ق.م – سنة ٥٨٦ ق. م.

كانت مملكة يهوذا مؤلفة من سبطى يهوذا وبنيامين ولكنهم كانوا أبطالا أشداء فحافظوا على استقلالهم أكثر من إسرائيل بمائة وخمسين سنة وإذا تتبعنا دقائق التاريخ لنتحرى عن أسباب انقراض إسرائيل قبل يهوذا نجدها كثيرة منها:

١ – تقول التوراة إن إسرائيل ترك عبادة الله وانصرف إلى عبادة الأوثان فعجل فى هلاكهم.

٢ – من يدرس التوراة يجد أن سبط يهوذا عرف بالقوة واشتهرت مشاته لوعورة بلاده كما امتازت إسرائيل بفرسانها لسهولة أراضيها ووقتئذ كان على المشاة المعوَّل.

٣ – الموقع الطبيعى: لو قابلنا القسم الشمالى بالجنوبى نرى الثانى أحصن موقعًا وأعسر مسلكًا وأمتن للدفاع فالوصول إلى القدس من الشرق أو الغرب أو من الجنوب أو الشمال أصعب بكثير من مجابهة السامرة المفتحة الأبواب والتى يكتنفها من الغرب سهل طول كرم ومن الشمال مرج ابن عامر فكأنها كانت محطة سهلة فى طريق الحكومات المصرية والعراقية فى غدوها ورواحها عَلَى أن القدس كانت بمعزل ومأمن من كل ذلك فلا يأتيها إلا من يتقصدها.

٤ – تأثير العوامل الاجتماعية والأدبية: امتزجت حكومة السامرة بالأجانب واقتبست عاداتهم ومالت إلى الحضارة فتفرقت وحدتهم وتهدمت جامعتهم واضمحلت مملكتهم وتلاشت قوميتهم.

٥ – إدعاء الكهنة أن الحضارة كفر فسمعوا أفكار العامة وهاجروا إلى مملكة يهوذا وتبعهم خلق كثير فقويت بهم يهوذا وضعفت إسرائيل.

٦ – طمع الزعماء فى العرش وتهجمهم عَلَى اغتصابهِ حتى أصبح سلعة يتناولها القوى ويأخذها القدير فيخلع الضعيف ويحرم الجبان ولا حاجة إلى الإسهاب فى ذكر هذه المملكة لئلا يمل المطالع ومن أراد التفصيل فليراجع التوراة «سفرى الملوك الأول والثانى» فإنهما أتم وأوسع ما ورد فى هذا الباب. كان أول ملوكهم رحبعام بن سليمان وظل بيت الملك ينحدّر من هذه الأسرة حتى انقراض

المملكة فتولى منهُ عشرون ملكاً. وإنما انقادت يهوذا لهذه الأسرة لكونهم ألفوا الحكم وانتخب منها ثلاثة ملوك متتابعة قبل انقسامهم –فالاعتراف بابن ملك مشهور أسهل من الخضوع إلى ملك جديد– قضت مملكة يهوذا معظم أيامها فى الحروب والقتال لأن كل جيرانها عالنوها وناصبوها العداء فلم تك تكترث بهم بل إنها كانت تخشى حكومتى مصر وبابل المتناظرتين والطامعتين فى إخضاع سكان فلسطين الذين لم يكن لهم مناص من اتباع إحدى الدولتين لأهمية موقعهم الطبيعى ولكون الحكومة التى كانت تسيطر عليهم كانت تهدد الأخرى التى لا تقر عينها إلا باستخلاصها من المتغلبين فكان سكان فلسطين إذا انحازوا إلى مصر تغضب عليهم بابل وتغزوهم فتقهرهم وتخضعهم إليها فتحقد عليهم مصر وتسومهم سوء العذاب وهكذا ظلوا ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فإذا التجأوا إلى دولة سخطت عليهم الأخرى وانتقمت منهم. روى أن الملك آحاز استعان بتغلث فلصر ملك أشور عَلَى قريبه وجاره ملك السامرة انتقامًا منه لكونه اتحد مع رامين ملك دمشق لمحاربته فأعانه تغلث فلصر وخرّب دمشق ثم ضرب الجزية على مملكتى يهوذا وإسرائيل. فندم آحاز وقلب سياسته وعصى ملوك أشور واحتمى بالمصريين فغضب سنحاريب وساق جيشًا جرارًا فحاصر القدس وعسكر بقرب بركة ماملا حتى أذعنوا لحكمه وأعطوا الجزية ولكنهم لم يفتحوا له المدينة.

إن من تتبع مجرى سياسة يهوذا يجدها تشبه سياسة بعض الدول الحاضرة الضعيفة التى بينما نراها اليوم حليفة دولة فإذا هى عدوتها غدًا فكأن المصلحة والفائدة هى العامل الأكبر فى تقلب هذه الأحوال فإن مملكة يهوذا قد انحازت فى عهد صدقيا قبيل انقراضها إلى ملوك مصر والتحقت بهم فلما استعلت بابل على الحكومة المصرية وانتصرت منها سلخت عنها سورية وفلسطين وضمتها إليها وأتى نبوخذنصر إلى أورشليم ونفى الأشراف وقادة الرأى فى المملكة اليهودية إلى العراق أملا أن يكون ذلك خضوعاً تاماً لا نزاع بعده ولكنه لم يمض بضع سنين حتى انتقض اليهود وقلبوا سياستهم ومالوا إلى مصر فاستشاط نبوخذنصر غضبًا من خيانتهم وتلونهم وساق عليهم جيشًا كبيرا فحاصر القدس

١٨ شهرًا واحتل المدينة عنوة وأعلن الحكم العرفى فهرب ملكها صدقيا إلى أريحا ولكنهُ لم ينج منهم فأسروه ثم أحرقوا المدينة وهدموا الهيكل ونهبوا أثاثه وسبوا أكثر السكان إلى بابل ولم يتركوا من اليهود إلا الصعاليك وشذاذ الآفاق فأقام عليهم نبوخذ نصر جدليا حاكمًا وأسكنه فى المصفاة «قرية النبى صمويل».

فأصبحت البلاد مستعمرة بابلية تقاسى من الظلم أنواعًا فغلا الحقد فى نفوس اليهود وهب رجل يهودى اسمه إسماعيل بطائفة من الأشرار الذين كانوا مهاجرين في بلاد عمون فجاسوا خلال فلسطين وقتلوا الحاكم جدليا وهربوا إلى مصر خوفًا من هجمات بابل المستقبلة وهنا يمكننا أن نقول أن جد اليهود خرج من العراق فمر بسورية وفلسطين وبادية التيه ثم رجع بذريتهِ إلى وطنهم الأول العراق.

لقد سكن اليهود فى فلسطين من ١٤٠٠ق.م – ٥٨٦ ق.م . أى نحو ثمانية قرون ولكنهم لم يستقلوا مدة إقامتهم إلا وقتًا قصيرًا كانوا يختلسونهُ من ضعف واضطراب القوتين الكبيرتين فى دلتى دجلة والنيل ويعلنون استقلالهم ومع ذلك فلم ينجوا من تحكم مصر وبابل وكانتا تنكلان بهم وتسلبانهم استقلالهم كلما سنحت الفرصة وقد ظلوا حياتهم خاضعين لجيرانهم فيدفعون الجزية وتنفذ فيهم أوامرهم وكان يكتسحهم من يخالفونهُ ويحمل ما لديهم من خيرات عائدًا بها إلى بلاده. أما السبب الأكبر فى انقراض المملكة اليهودية فهو تفرق الكلمة واعتزالهم جيرانهم وعدم امتزاجهم بغيرهم لاسيما فى المعتقدات الدينية التى لم يحافظوا إلا عَلَى قشورها فقد عبدوا الأصنام ونسوا الوصايا العشر وتشددوا فى تعصبهم اليهودى واعتقادهم أنهم شعب الله الخاص فقط، وزد على ذلك استحكام النفرة بين الأسر التى عملت عَلَى انحلال الأمة وهلاكها وهل ترجى حياة أمة قبل إصلاح أفرادها.؟

١٣ – بعض أنبياء اليهود فى فلسطين

لقد ورث الإنسان الأخلاق الفاضلة والسجايا الحسنة منذ القدم فسارت معهُ وكان كلما عرض عليها الفساد ودب فيها الشر أهاب بها داعٍ من الله ينادى

بالإصلاح فيخوف العاصى بعذاب جهنم ويعد الصالح بالخير العميم، فكان الأنبياء فى ذلك العصر دعاة الإصلاح ووسطاء بين الله وشعبه بل متشرعو العزة الإلهية ورسلها الذين حفظوا النظام بشرائعهم الأدبية أكثر من القوانين المدنية التى زادت الجناة ولم تصلح منهم شيئًا.

لا ريب أن رجال الدين لعبوا فى العصور الأولى أدوارًا هامة لما كانت الممالك «ثيوقراطية» وكان الملك هو الكاهن والحاكم والسلطان ومازالوا يمثلون فصولاً من تلك الرواية المحزنة فى عصرنا الذى انتشرت فيه مبادئ العلوم الصحيحة وانفصل الدين عن السياسة. كان اليهود يسمون النبى رائيًا «يرى المستقبل» ويعلم الغيب فيستشيرونهُ فى نتيجة الحرب ويستوضحونهُ عن حيوان فُقد وشخص مرض كما كان يفعل الرومان واليونان مع كهنتهم فهتف أنبياء إسرائيل يبشرون بأنهم شعب الله الخاص وأنهم أفضل البشر كافة فيوبخون من ارتكب الشر ولو كان ملكًا ويحضون عَلَى عمل الخير وعبادة الله الواحد الأحد. وقد نجحت دعوتهم فرفعوا قومهم من الحياة الدنيئة إلى الحياة السامية الشريفة وها نحن ندرج أسماء بعضهم.

(١) ناثان: لم يُعد من الأنبياء العظام بيدأن له وقفة رهيبة مع الملك داود لما شغف بامرأة أوريا الحثى وطمع فيها ففرق بينها وبين زوجها وأرسله إلى الحرب ثم تزوجها فاتاه ناثان ووبخهُ عَلَى شرهه وظلمهِ فاعترف بذنبهِ وقد وردت هذه الرواية فى التوراة سفر صموئيل الثانى والاصحاح الثانى عشر وأيدها القرآن الكريم سورة «ص» الآيات ٢٣ – ٢٥.

(٢) إيليا او إلياس: ولد شرق الأردن وقضى حياته فى نشر تعاليمه داخل تخوم المملكة الشمالية وقد جاهد فى محاربة الأوثان وقاوم الملكة ايزابل الفنيقية زوجة آخاب ملك إسرائيل التى حاولت تعميم عبادة الأوثان وابتدعت لليهود ديانة جديدة فأخذ يفسد عليها عملها ويبرهن عَلَى إلحادها وسخافة آلهتها إلى أن سخطت عليه ففرَّ إلى المملكة الجنوبية واجتاز القدس واستراح برهة فى محل «مار ايلياس» الواقع بين القدس وبيت لحم ثم نزل بئر السبع. وقد

ورد فى التوراة أن الله أمره أن يذهب إلى نهر كريت «واد الفلت» وهو محل يكثر فيه النساك وزاهدو الدنيا ومن شاء التوسع فليراجع سفر الملوك الأول «ص ١٧، ١٨، ١٩».

(٣) عاموس: إن فى سرد حياة هذا الرجل مغزى وعبرة لخاملى الذكر والنفس لأنهُ ولد فى قرية تقوع من بلاد الخليل وابتدأ حياته برعاية المواشى وكان يقول «لست نبيًا ولا ابن نبى بل أنا راع وجانى جميز فأخذنى الرب من وراء الضان وقال اذهب وتنبأ لشعبى إسرائيل» فامتازت تعاليمه بصفتها اجتماعية لأن بنى إسرائيل كانوا منهمكين فى لذاتهم ورفاهيتهم ومعاقرة الخمور والخلاعة والزنى بل اقترفوا جميع الرذائل والموبقات فذهب إلى بيت ايل وحذر قومه وانذرهم بالعقاب إن لم يقلعوا عن المعاصى والشهوات ويرجعوا إلى عبادة الله الحق فيكسروا الأصنام ويحطموا التماثيل ومن أعظم صفاته أنهُ كان يجابه الملوك والأشراف ويؤنبهم ويظهر لهم خطاياهم ويجهر بالحق ومن قوله «بغضت وكرهت أعيادكم. وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم».

هؤلاء بعض أنبياء اليهود الذين تنبأوا فى فلسطين ومنهم «أشعياء» الذى عاش فى القدس وشهد حصار سنحاريب لها وكان يحرض قومه ليتوكلوا عَلَى الله دون البابليين ومنهم «أرميا» الذى ولد فى قرية عناتا وهى تبعد خمسة كيلومترات إلى الشمال من القدس وكان يقف عَلَى جبل الطور ويرثى اورشليم بأقوال مشجية، قد شاهد جيوش نيوخذ نصر تهدم وتحرق القدس واسوارها وهيكلها وكان من رأيهِ أن يحالف اليهودُ البابليين ويباعدوا المصريين فلم يسمعوا منهُ حتى كان ما كان من اضمحلال الدولة اليهودية. ومن تتبع تاريخ اليهود فى جميع أدوارهم الدينية يجد أنهم لم يكونوا راسخى العقيدة فى التوحيد لأنهُ ما غاب عنهم موسى أربعين يومًا حتى عبدوا العجل إله المصريين ولما سكنوا فلسطين جنحت نفوسهم إلى عبادة أصنام الكنعانيين والفينيقيين والمصريين وصاهروهم مع أن دينهم يمنع ذلك. وكانوا يسمحون لنسائهم بعبادة الأوثان فى بيوتهم فلو كان اعتقادهم متينا لتغلبوا على غيرهم ولقنوهم ديانتهم وصبغوهم بصبغتهم كما فعل المسلمون.

الفصل الثالث

من نبوخذ نصر إلى بومبى

١٤- فلسطين فى يد الفرس من سنة ٥٣٩ ق.م- ٣٣٢ سنة ق.م:

غزا الأشوريون فلسطين وافتتحوها فلما سقطت مملكتهم قام مكانها البابليون الذين سبوا اليهود إلى العراق ولما استوى كورش الكبير على العرش أسس على أنقاض الدولتين مملكة الفرس وألحق بها فلسطين وسمح لليهود سنة ٥٣٦ ق.م بالعودة إلى بلادهم الخربة لأنهُ طمع فى فتح مصر والمغرب وأيقن أنهُ لا يتحقق له هذا الحلم الجميل إلا إذا أرجع اليهود إلى بلادهم ليكونوا له عوناً يتكىءُ عليه أو مدخرًا يستمد منه ما يلزمه لفتح الأقطار التى ينزع إلى استملاكها.. فظل حلمه أضغاثًا حتى قام خلفه كمبيز وصدق رؤياه ففتح مصر وضمها إلى سلطنتهِ ولعل السبب الذى حمل لويد جورج وبلفور ليعطيا فلسطين وطناً قومياً إلى اليهود هو عين الغاية التى رمى إليها كورش.

طال العهد بفلسطين وهى تابعة للفرس تدفع لهم الرسوم والضرائب وتسهل لجيوشهم الطريق إلى مصر وتمدهم بالزاد والعلف حتى تم لهم فتح إفريقية وأخضعوا بابل العظيمة ومملكة ليديا فى آسيا الصغرى فكأن فلسطين كانت حلقة مفرغة ترتبط بها حلقات أخرى فلما انفصمت تداعت منها كل الحلقات فالتقطها ملوك فارس واستولوا عَلَى ممالك الشرق الأدنى فى آسيا وإفريقية ثم نهموا إلى امتلاك أوروبا فحاربوا اليونان فى آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط وتغلغلوا فى بلادهم. وبعد معارك هائلة سطرتها التواريخ القديمة معجبة بشجاعة اليونان الممتازة فى معركتى ماراثون وثرموبيلى غلب الفرس وانقلبوا مخذولين وهؤلاء عظماء ملوكهم الذين حكموا فلسطين.

كورش ٥٥٨ ق.م – ٥٢٩ ق.م

كمبيز ٥٢٩ ق.م – ٥٢٢ ق.م

داريوس ٥٢٢ ق.م – ٤٨٦ ق.م

زركسيس ٤٨٦ ق.م – ٤٦٥ ق.م

وقد قام غيرهم من ملوك الفرس ولكنهم لم يحدثوا حدثًا ولم يبرزوا عملاً يستحق الذكر فطوينا أيامهم وأخبارهم.

١٥ - اليونان فى فلسطين ٣٣٢ ق.م- ٦٣ ق.م

تعدى ملوك الفرس عَلَى البلاد اليونانية فأيقظوا همة الفاتح الكبير اسكندر المكدونى وألهبوا عزيمته فهجم بجيوشه على آسيا وتشوق إلى امتلاك الشرق والتغلب عليه فكان بدء تنازع شديد بين الفرس حماة الشرق واليونان أبطال الغرب الذين قوضوا ممالك آسيا الغربية واستولوا عَلَى أقطارها وحكموا فى أهلها بما لا يقاس على ما تقدمه من الفتوحات لأن الحكومات الأشورية والبابلية والمصرية كانت تكتفى بجباية الجزية والخضوع السياسى فقط. أما الحكومة اليونانية فكانت ترمى إلى غاية أسمى وأعظم وهى نشر مدنيتها فى الشرق وتلقيح العالم بالأفكار اليونانية والمبادىء الهلاسية Hellenism (هلنزم).

ولا بأس إذا تجاوزنا حدود فلسطين وذكرنا بإيجاز سيرة الإسكندر منذ نشأته لئلا يكون الكلام مبتورًا فنقول: ولى الملك وهو فتى لم يتجاوز العشرين ربيعًا فساد أثينا ومدن اليونان كافة وهاجم الفرس فى ضفة جناق قلعة عَلَى نهر غرانيكوس الذى يصب فى بحر مرمره فكسرهم وتبعهم إلى شمال سورية قرب خليج اسكندرونه فى سهل إسوس وهزمهم شر هزيمة ففر داريوس وترك عائلته وذويه ولكن البطل الإغريقى تربص ولم يتعقب فَالَّةَ الجيش واتجه جنوبًا إلى بلاد فنيقية ليفتحها ويستعين بسفنها فنزل عَلَى مدينة صور وكانت آنذاك على جزيرة فطم البحر ووصلها بالبر وبعد حصار دام سبعة شهور فتحها عنوة وانتقم من أهلها ثم

سار جنوبًا فسلمت إليه كل البلاد إلاّ غزة فإن حاميتها العربية قاومتهُ وصدمتهُ ولكنها خضعت أخيرًا فنكل بها.

الإسكندر فى القدس

قال المؤرخ يوسيفوس: إن الإسكندر ذهب لفتح القدس فقابله رئيس الكهنة عَلَى جبل سكوبس فرحب بهِ الإسكندر وطلب إليه أن يسلمهُ المدينة فرفض معتذرًا أن البلاد فارسية وقد أقسم أهلها يمين الطاعة للفرس فلا يسلمون المدينة إلا بأمر من ملكهم فأكرمه الإسكندر وقدَّم هداياه إلى الهيكل فاغتاظ أتباعه من هذا الرفق واللين. ولكن هذه الرواية تفتقر إلى اثبات. أما الأستاذ بورتر فقال: إن الإسكندر صعد إلى أورشليم ودخلها بوقار واحترام ولم يضرّ بأهلها وقد استأنف منها السير إلى مصر ففتحها وخلد اسمه ببناء اربيلا (اربل) شرقى دجلة وجنوب نينوى عاصمة الأشوريين ففرق شمل الفرس وبدد جيشهم وهدم مملكتهم وسجلت هذه المعركة الفاصلة خضوعَ الشرق لليونان. فى ثلاث معارك فقط الأولى غربى الأناضول والثانية قرب خليج الإسكندرية والثالثة شمال العراق. هدم الإسكندر مملكة فارس وشاد عَلَى أنقاضها إمبراطورية يونانية حديثة شهدت له بالتفوق الفكرى والنبوغ العسكرى وأنهُ من أعاظم القواد المشهورين مثل يوليوس قيصر وهنيبال وخالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبى ونابليون إلا أنهُ يمتاز عن غيره ببعد نظره ونزعته إلى مزج الشرق بالغرب وتوحيد العائلة البشرية وقد توخى طرقاً كثيرة لتحقيق أمانيه نذكر هنا أجلها.

١ -- الزواج: تزوج الإسكندر بابنة داريوس وشوق قواده وأجبر رجاله على الاقتران بالشرقيات.

٢ – تعميم الروح اليونانية: فإنه أمر بنشر شعرهم وفلسفتهم وعاداتهم وألبستهم ومسارحهم وفنونهم وألعابهم وآدابهم ولغتهم.

٣ – تجنيد عساكر فارسية وإدخالهم فى جيشه وصبغهم بالصبغة اليونانية مما أغاظ عساكر مكدونية وحملهم عَلَى ترك الجيش ناقمين.

٤ – مبادلة الأشجار والنباتات الشرقية بما يماثلها من المزروعات الغربية. وقد نجحت هذه الخطة التى كانت تصدر من مدينة الإسكندرية منهل العلم والأدب والشعر وتتوزع عَلَى الأقطار.

فانتشرت اللغة اليونانية فى الشرق قبل المسيح وبعده حتى إن المتهذبين كانوا يفتخرون بمعرفتها كتابة وتكلمًا وحتى إن بعض الأناجيل كتب بلغة سقراط وأفلاطون وأرسطو ولم يكتب بالعبرانية.

ورث الرومانيون فلسطين عن اليونان وعجزت لغتهم اللاتينية عن مباراة اللغة اليونانية التى كانت تشبهُ فى ذلك العصر اللغة الفرنسية والانكليزية فى أيامنا هذه. وإن بين أعمال الإسكندر ونابليون لمشابهة كبرى لأنهما جاهدا فى تنشيط العلم وسعيا فى فتح الشرق واستعمره وحاولا الامتزاج بأهله والتقرب منهم.

١٦ - السلوقيون والبطالسة:

توفى الإسكندر فى بابل سنة ٣٢٣ ق.م وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره بينما كان ذاهبًا لفتح السماء كما زعم ولم يبق منهُ إلا شهرته الخالدة وذكره الطيب. فاقتسم قواده الأربعة الإمبراطورية بينهم ولا يهمنا منهم سوى سلوقس حاكم سورية وبطليموس ملك مصر لتناوبهما الحكم فى فلسطين. إن فى التاريخ عبرًا مفيدة ومن لم يستفد من هذه العظات فهو ضعيف خامل ليس بأهل للحياة لأن الدهر سفر عظيم صفحاته الأيام ومواده الحوادث. فإذا استقصينا ماضى الفرد والأمة أو الاقليم نجده سواء تتوالى عليهم أحوال متشابهة وحوادث متماثلة فكأنهم يسيرون حول دائرة إذ انتهوا من الدورة الأولى ابتدأوا فى الأخرى وهكذا دواليك فالذى لا يزرع شيئًا لن يحصد شيئًا ومن فاته عمل فليتعوض من سواه ولكن فلسطين لم تتنبه لهذه الحقيقة وكانت كرة تتلقفها العراق ومصر وسورية فتهشمها تارة وتحطمها تارة أخرى وإذا فلتت من واحدة خطفتها الأخرى. فلما التحقت بمصر كما كانت فى أيام صحوتميس تسامحت معها الحكومة

ولم تتعرض لتقاليد الأهلين وأذنت لرئيس الكهنة أن يظل حاكمًا دينيًا وسياسيًا كما كان. وفى هذا العصر ترجمت الكتب المقدسة من اللغة العبرانية إلى اليونانية. فإن بطليموس فيلادلفوس (محب العلم) أخذ سبعين عالمًا يهوديًا إلى مصر لترجمة التوراة فأحسنوا صنعهم وجاءت طبق الأصل فى دقة التعبير وقوة المعنى. ولكن سيطرة مصر عَلَى فلسطين لم تدم غير قرن وربع لأن أنطيوخوس الرابع ملك سورية ضمها إلى مملكته سنة ١٩٨ ق.م بعد معارك قاسية انتهت بفوزه عَلَى الدولة البطليموسية. والغريب هنا أن أهالى فلسطين انقسموا على أنفسهم فبعضهم حاول الانضمام إلى مصر والآخر أراد البقاء مع سورية. وكذلك كانت الحالة فى عهد نبوخذنصر فإنهم انشطروا إلى شطرين أحدهما يطلب سورية والثانى مصر، وإذا قابلنا تلك الحالات بأيامنا الحاضرة نراها متماثلة فإن المؤتمر الفلسطينى الأول المنعقد سنة ١٩١٩م. انقسم أعضاؤه إلى قسمين طلب بعضهم الالتحاق بمصر والآخرون أرادوا الانضمام إلى سورية. ولو أمعنا النظر لوجدنا أن فلسطين لم تستفد من الانشقاق القديم والانتقال شيئًا لأنها كانت تنتقل من نير إلى نير أو من حكم مصر إلى حكم سورية وكلاهما دولة يونانية. على أن البطالسة كانوا يراعون شعور الوطنيين أكثر مما فعله السلوقيون.

١٧ - المكابيون:

المكابيون أسرة تنتسب إلى بطل يهودى يسمى يهوذا ويلقب بمكابيوس وهو جدير بالاحترام لما أظهره من الوطنية وأبداه من الجرأة فألهب بحماسته صدور بنى قومه وأشعل الثورة العامة لدفع ظلم الدولة السلوقية اليونانية.

والحركة المكابية مثال من الأمثلة المسطرة فى بطن التاريخ والدالة عَلَى أن الروح الوطنية الحقة إذا اختلجت فى الصدور لا يقف أمامها قوة، ولا يضعفها بطش، وأوضح برهان عَلَى ذلك أن شرذمة يهودية غير منتظمة قاومت الجيش اليونانى السورى وانتصرت منهُ لأن أفرادها أخلصوا فى عملهم واعتقدوا بصحة قضيتهم واستماتوا فى سبيل تحقيقها لما رأوا أن انطيوخوس عبث بهم وبتقاليدهم واستضغر بلادهم وباع وظيفة الحبر الأعظم إلى يشوع أخى اونياس اليهودى الذى

كان مولعًا بالعادات الغربيـة وربيـب المدنيـة اليونانيـة فكـان ماقتًـا لتقـاليد قومـه والـذى افتتـح أعمالـه بتغيـير اسمـه يشـوع باسـم يونـانى ياسـون، وروج الملاهـى والألعاب والعادات اليونانية المكروهة عند قومه فحسده أخوه أونيـاس وذهـب إلى انطيوخوس وشرى منهُ الرتبة الحبرية بأكثر مما شراها أخوه فعينه بعد أن عـرض عليه شـروطًا مجحفـة بحـق امتـه وقبلـها فغـير اسمـه أونيـاس بمنـلاوس. فعمـل انطيوخوس مع الأخوين يشبه عمل الوزير خاقان الذى كان يعـين الـوالى فـإن زاد عليه أحد عزل الأول وعين صاحب الزيادة حتى قال فيه الشاعر:

وزيـر قد تكامل فى الرُّقاعـة يولى ثم يعـــزل بعد ساعـة
إذا أهل الرشـــى صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

ولما رجع منلاوس لاستلام وظيفته أبى أخوه أن يسلم إليهَ المدينة فتحاربا ولم يتمكن أحدهما من قهر الآخر فجاء انطيوخـوس مـن مصـر وأعلـن الحكـم العرفـى فأباح المدينة ونهب الهيكل وعين قائده فيلبس الجائر حاكمًا عامًا عليهم وكـانت هذه الضربة أول وميض الشـدة والجـبروت الـذى شـرع انطيوخـوس يتمـادى فـى إذكائه فأمر بإلغاء الدين اليهودى من أصله وأكرههم على عبـادة الآلهـة اليونانيـة وأمر بنصب تمثال لزُفس ومذبح فى الهيكل لتعـتر الخنـازير عليـه وأرغـم اليـهود عَلَى مشاركتهم فى طقوسهم وحظـر الاختتـان واضطرهـم إلى الشـغل يـوم السـبت وكان يجازى كل من خالف أوامره بالقتل وهذا غاية العسف ونهايـة الشـدة فلمـا بلغ الظلم أشده لم يصبر عليهَ اليهود ونهض الكاهن متاتياس وهو من قرية مودين (المدية) الواقعة شرقى اللد واعتصم بقريته وأخذ معهُ بنيه الخمسة ومنـهم يـهوذا مكابيوس (جد المكابيين) وبينما كانت الثورة تختمر فى قلبهَ شـعر بدبيـب الهمـة فى نفسهِ واشتداد العزم بين جوانحهِ فطفق يبحث عن طريق الخلاص لأمتـهِ وإذا برسول يونانى قدم عليهِ ليكره الأهالى على عبادة الأوثان فغضب الكاهن وفتك بـهِ وحرض الشعب عَلَى خلع طاعة اليونان فناوأهم مدة ثم خلفه ابنه يهوذا فحـارب السلوقيين وظفر بهم فى مواقع كثيرة كمعركة بيت عور بـين اللـد ورام الله وبيـت صور قرب مدينة الخليل وكانت النتيجة فوز الوطنيـين عَلَـى الأجـانب وتخليـص

البلاد من الدخلاء فتولى المكـابيون الإدارة مـن سـنة ١٦٧ ق.م. إلى سـنة ٣٧ ق.م. فلما رجعوا إلى سيرتهم الأولى وشجر بينهم الخلاف والنزاع أخذوا يستعينون بمـن حولهم مـن الملوك فالتجـأ هركـانوس إلى الحـارث العربـي ملـك بطـرِ (الحِجـر) واستصرخه علـى أخيـهِ أرسـتبولوس فلبـاه وسـار لنصرتـهِ بخمسـين ألـف مقـاتل وحاصر أورشليم ولكنهُ لم يتوفق.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

الاحتلال الرومانى من بومبى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه

ورث الرومان «أجداد الإيطاليين» مملكة اليونان ومدنيتهم فى الغرب والشرق ونحن نكتفى من هذا البحث بما يتعلق بفلسطين ضاربين صفحًا عن أسباب سقوط اليونان وتغلب الرومان فنقول: إنه ظهر فى فلسطين قائد رومانى يدعى بومبى فاكتسحها وقضى عَلَى الحكومة اليونانية السلوقية بلا كبير عناء لأن البلاد كانت فوضى فالكلمة متفرقة والأحكام جائزة والحكام منهمكون فى ملذاتهم.

دخل بومبى دمشق فخف لاستقباله زعيما اليهود الشقيقان هركانوس وارستبولوس غصنا الأسرة المكابية الشهيرة وسعى كل منهما ليكون واليًا عَلَى فلسطين ولما أن تشاغل عنهما بومبى ولم يصغ لقولهما ظنَّ ارستبولوس أنهُ جفاه وحده وأمل أخاه فشرع يستعد لمحاربة اليونان ولكن نتيجة عمله كانت وخيمة فزحف بومبى بجيشه إلى القدس وحصرها وفتحها عنوة وولى هركانوس واليًا عليها خاضعًا للسلطة الرومانية وأمر بإلغاء المجتمع العام وقسم البلاد أقسامًا خمسة وجعل لكل منهما مجمعًا خاصًا تديره نظارة رومانية.

١٨ - هيرودس :

عاش هيرودس فى عصر عظماء الرومان كيوليوس قيصر وبومبى وانطونيوس أما أبوه انتيباس فمختلف فى أصله والارجح أنه كان أدوميًا ومن رجال هركانوس وأعوانه المقربين فدفع به جده وهمته العالية إلى أسمى الدرجات وساعده عَلَى ذلك انقسام الأسرة المكابية عَلَى نفسها ولما اختلف بومبى ويوليوس قيصر تربص حتى رأى رجحان كفة الثانى فسار بجيش إلى مصر وعضده ويقال: إنه لولا انتيباس لما فاز قيصر فى معاركه على أنهُ قتل غير مأسوف عليه. أما ابنه

هيرودس فكان رجل حرب شجاعًا مقدامًا قوى الإرادة ذكيًا حاذقًا نزوعًا إلى العُلاَ توفرت فيه شروط الإدارة وكان عسوفًا يضحى بأعظم شىء لنيل غايته وتأييد عرشه سفاكًا فتاكًا فظًا قاسيًا فقتل زوجته مريمنة لما وجد منها العطف على قومها وبنى جنسها وهو المتدله بحبها وقتل من بنيهِ ثلاثًا وأمر بقتل أطفال بيت لحم. وكان إذا أراد أمرًا فمانعهُ فيهِ أحد فتك به ولو كان من ذويهِ. ولما عين واليًا على الجليل كسب ثقة بومبى بحسن سياستهِ فامرَّوا أوغسطوس قيصر على اليهودية فقضى عَلَى سلطان المكابيين وابتدأت بهِ الدولة الهيرودسية وقد حاول أن يوفق بين اليهود والرومان ليكون بنوه خلفاءه من بعده فلما حبط مسعاه شايع الرومان وساعد عَلَى توطيد حكمهم فى فلسطين فاخضع الأمة اليهودية التى أقلقت راحة رومية بثوراتها واضطراباتها وله أعمال شاذة فى سياستهِ نأتى على بعضها.

١ – اقترن «برمينه» ابنة اسكندر بن ارستوبولس وهى بنت ابنة هركانوس من الأسرة الحسمونية الشريفة ليتصل نسبه بنسب أهل الشرف ويجرى دم الملوك فى عروق أبنائه [كما فعل السلجوقى مع الخلفاء العباسيين فى بغداد] تهوّد وبنى لهم الهيكل وراعى عواطفهم الدينية والقومية فلم يعدوه إلا أجنبيًا غريبًا ولم يتقبلوا عطفه إلا باشمئزاز وكانوا ينفرون منهُ كلما مال إليهم فتكشف لهم عن عدو فى ثياب صديق وعاملهم بعنف واضطهدهم بقوة.

٢ – كان كريمًا وهابًا يقدم الهدايا الثمينة والتحف النادرة للرومانيين وهذا ما ساعده على بلوغ أربهِ وتفوقه على مناظريهِ.

٣ - كان متجددًا لينًا شغفًا بالمدنية الرومانية والعادات اللاتينية يتكيف بحسب الظروف والأحوال بخلاف اليهود الذين كانوا ينظرون إلى المدينة اليونانية والرومانية نظرهم إلى الكفر والإلحاد ولقد ترك هيرودس آثارًا جمة فى فلسطين.

(أ) قيسارية: بنى مدينة قيسارية وسماها قيصرية نسبة إلى مولاه وهى واقعة عَلَى شاطئ البحر بين يافا وحيفا مشهورة بجودة بطيخها ولطافة هوائها.

(ب) رمم مدينة السامرة وعمرها وسماها «سبسطية» وهى كلمة يونانية تعنى أوغسطوس لقب القيصر فى تلك الأيام.

(جـ) بنى قلعة باب الخليل فى القدس ولا يزال فى أساس البناء الحالى حجارة ضخمة من ذلك الأثر الجسيم.

(د) شاد برج انطونيا «القشلة السفلى» «مدرسة روضة المعارف» وسماها باسم انطونيوس صديق كليوبتره الشهيرة.

واختط وشيد غير هذه القلاع والأبراج فى فلسطين وشرقى الأردن هياكل لأوغسطوس وحمامات ومسارح فى القدس وقيصرية وسبسطية ونقل الألعاب الرومانية الأولبية المشهورة فى البلاد فهو يشكر على هذه التحفة التى قابلها اليهود بالمقت والازدراء.

وبعد وفاة هيرودس اقتسم أولاده مملكته ولم تدم طويلاً حتى التحقت مباشرة بروما وصار يبعث لها بحكام رومانيين. وأما ابنه هيرودس أنتيباس فهو الذى بنى مدينة طبريا وسماها باسم الإمبراطور طيباريوس.

١٩ - السيد المسيح

لو أردنا أن نفصل تاريخ فلسطين لأجملنا به تاريخ العالم أجمع وأشرفنا عَلَى ماضى سالف الأمم لأنها حلقة اتصال الشرق بالغرب وبما أنا توخينا الاختصار فى هذا السفر فلا مندوحة لنا عن التوسع قليلاً فى سيرة المصلح الكبير السيد المسيح لأنُه فلسطينى ويدين بدينه ٥٦٥ مليون نفس. ولد فى أبوين فلسطينيين يوسف النجار ومريم عَلَى رأى المسيحيين واليهود، غير أن القرآن الكريم ينص «أنهُ من روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم»[1]، «ومثله عند الله كمثل آدم»، تربى ونشأ فى أرض فلسطين وشم عبير أزهارها ونسيمها وأكل من خبزها وشرب من مائها وطاف مدنها وعلم أهلها واختار تلامذتَه «حواريه» الاثنى عشر من رجالها وصلب عَلَى تل من تلالها ودفن فى ترابها [هذا رأى المسيحيين واليهود] ولكن المسلمين يعتقدون أنهُ لم يصلب، بل شُبِّهَ لهم وعرج إلى السماء حيًا.

---

(١) هذا ما ورد فى سورة النساء الآية ١٧١.

ولد المسيح فى بيت لحم فى عهد أوغسطس قيصر وفى أواخر حكم هيرودس فعاش فى الناصرة التى ينسب إليها النصارى مع مربَييْهِ يوسف ومريم الفقيرين.

كانت حياته هادئة قبل أن يبلغ الثلاثين وقد زاول حرفة النجارة عند مربيهِ يوسف فلما بلغ الرجولية شرع يبث دعوته وينشر مبادئه وتعاليمه بين قومه وأهله فى الخليل وبين بسطاء الناس فى الناصرة وحول بحيرة طبريا ونهر الأردن ثم انتقل إلى أورشليم مركز التعصب الذميم والتقليد الأعمى فجاهر بدعوتهِ وصرح بمواعظهِ- وأجلها ما جاء فى إنجيل متى إصحاح ٥ و ٦ و ٧ أى عظة الجبل فمنها:

١ – سمعتم أنهُ قيل عين بعين وسن بسن أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك عَلَى خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضًا.

٢ – سمعتم أنهُ قيل تحب قريبك وتبغض عدوك أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم. لأنهُ إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون.

٣ – احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس كى ينظروكم. وأما أنت فمتى صنعت صدقة. فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك.

٤ – متى صليت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلوا فى المجامع وفى زوايا الشوارع لكى يظهروا للناس. فإنهم يظنون أنهُ بكثرة كلامهم يستجاب لهم.

٥ – لا تدينوا لكيلا تدانوا لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم.

٦ - لا تكنزوا لكم كنوزًا عَلَى الأرض.

فهذه خلاصة تعاليمه الاجتماعية والدينية أما آيته الذهبية فهى: «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم لأن هذا هو الناموس والأنبياء».

فلم ترق هذه التعاليم فى عيون اليهود وألبوا عليه الرأى العام وسخروا من أقواله واتهموه بفريات ثلاث سياسية ودينية وهى:

١ – أنهُ سمى نفسه ملك اليهود.

٢ – وأنهُ قادر عَلَى نقض الهيكل وبنائه فى ثلاثة أيام.

٣ – وأنهُ سمى نفسه ابن الله.

فقرروا محاكمته لأنهُ كفر فى عرفهم. وقد خانهُ أحد تلامذته يهوذا الأسخر يوطى فسلمهُ إلى اليهود فى بستان الجثسيمانى وسيق إلى محكمة الوالى الرومانى بيلاطس البنطى الذى حكم عليهِ بالموت.

عاش المسيح عَلَى الأرض ٣٣ سنة فقيرًا لا يملك من حطام الأرض قطميرًا لأنهُ زهد فى الدنيا وما فيها. وأما المؤرخ يوسيفوس فقد قال: نشأ فى أيام بيلاطس رجل حكيم علم مريديه الحق واستمال إليهِ العدد الكبير من اليهود وغيرهم وهذا الرجل هو المسيح. ولما حكم عليه بيلاطس بالصلب بإيعاز من زعماء اليهود لم يتركه أشياعه ومريدوه وظهر لهم بعد ثلاثة أيام من موتهِ كما تنبأ عنهُ الأنبياء.

٢٠ – جلاء اليهود ثانية عن فلسطين

طمع هيرودس فى تأسيس مملكة يتوارثها نسله من بعده ولكنه اخفق فى سعيهِ كما اخفق نابليون الذى حذا حذوه بعد ثمانية عشر قرناً وقد رمى كل منهما إلى أن يكون جد أسرة مالكة شريفة. استقلت فلسطين فى أيام هيرودس استقلالاً داخليًا تحت السيادة الرومانية وقد عجز أولاده بعد وفاته عن إدارتها فألحقها الرومان بمملكتهم كما فعل الأتراك فى سورية وفلسطين فإن سياستهم الأولى لهذين القطرين كانت على نهج الإقطاع «اللامركزية» فكان أمير الولاية مطلق اليد والتصرف فى البلاد يؤدى الإتاوة والقطائع إلى الآستانة. وإن انتاب الدولة حرب يقدم لها عددًا معينًا من الجند.

ثم تبدلت الحالة وأخذت الآستانة ترسل إلى المدن الكبرى مشاهير القواد وعظماء الرجال لتجتذب الناس إليها فترغبهم فى طاعتها وتخوفهم بطشها

وتسوس البلاد بأولئك القواد حسب ما تشرع لهم من القوانين وما ألفه السكان من عرف وعادة.

وظلت الحال عَلَى هذا المنوال إلى أن ولى الملك عبد الحميد فكان يرسل الولاة والحكام من حاشيتهِ وأعوانهِ رجال «المابين». وهكذا انقلب حكم الرومان فى فلسطين من استقلال داخلى إقطاعى إلى نظام استعمارى واتخذوا قيسارية «قيصرية» مقرًا لولاتهم لقربها من ساحل البحر وللحط من شأن القدس فى عيون اليهود. ولكن الرومانيين لم يهنأوا بحكم فلسطين ولم يقووا عليها على ضيق إقليمها وضعف سكانها الذين ظلت نفوسهم جائشة متحفزة تهيم بذكرى استقلالها وتتغنى بنشيد حريتها. اعترضت هذه اللقمة الصغيرة فى حلوقهم ولم يسيغوها فأزعجت الولاة وأتعبت وأقلقت مدينة نهر التيبر أكثر من الأقاليم التى هى أرحب محلاً وأكثر نفوسًا. فلما قدم تيطس ازدردها وهضمها وقد عزا بعض المؤرخين هذا الثبات إلى اعتبارات كثيرة منها:

١ - اعتقاد اليهود أنهم شعب الله الخاص الذى اصطفاه عَلَى العالمين فهم الخيار وغيرهم خول فحرمت شريعتهم مخالطة غيرهم لأنهم أرجاس كافرون.

٢ نشر العادات واللغة والألعاب الرومانية مثل المسارح والملاهى والرقص والخمر والتماثيل مما كان يحرمها الدين اليهودى وينفر منها الأهلون فإذا ما أبصروها تنبهت فيهم العاطفة الوطنية والعصبية الدينية وهاجت روحهم القومية فيقاطعونها ويحتقرونها ولو أنهم اقبلوا عَلَى ذلك كما نحن نفعل اليوم لتلاشوا فى غيرهم من حيث لا يشعرون ولا يسعنا هنا إلا أن نعجب بأنفة اليهود وإقدامهم عَلى محاربة الرومان لما عبثوا بدينهم وذبحوا الخنازير فى هيكلهم ونشروا أعلامهم خافقة فوق رؤوسهم موشاة برسوم النسور [الصور محرمة عند اليهود].

٣ – إيمانهم بأن الله إلههم وحدهم وأنهُ قادر عَلَى إنقاذهم من حكم الأجانب وقد ابتلاهم بهذه المصائب ليعلم مقدار صبرهم ومتانة اعتقادهم. فرسخت هذه

العقيدة فى النفوس. وكان الإنسان يكلف ربهُ كل شيء فلم يلبث أن صار يركن إلى رفاقه ثم إلى الحكومات فليت شعرى متى يأتى اليوم الذى يعتمد فيهِ عَلَى نفسهِ فقط.

٤ – عسف الرومانيين اليهودُ فإنهم لم ينهجوا معهم نهج الصواب بل سخروا منهم ونبذوا شريعتهم وآدابهم، فأكبر اليهود هذا العمل وهتفوا قائلين:

متى تجمع القلب الذكى وصارمًا وأنفًا حميًا تجتنبك المظالم

٥ – خوارج اليهود الذين جنحوا للثورة فأخذوا يحرضون قومهم عَلَى ركوب هذا المركب الخشن مؤكدين لهم أن الله يساعدهم عَلَى تطهير الهيكل والبيت المقدس من نجاسة الرومان.

٦ – بطولة سكان فلسطين الذين ما غزاهم أحد وهمّ بامتلاكهم أجنبى إلا أسقط فى يده وباء بخسران كبير.

٧ – وأن كل أمة لا ترضى أن تحكمها أمة أجنبية عنها ولو طال عليها الأمد. فإذا هى حكمت تذمرت وتحفزت للانتقاض فترقب الفرص لتنتهزها وهذا ظاهر لدينا من حالة أيرلندا والعرب وبولونيا فإنهم لم ينسوا أنهم محكومين لغيرهم وعملوا عَلَى إزعاج حكامهم فظفر بعضهم بما تاق إليهِ وكذلك اليهود فإنهم لم يرضوا عن إدارة بيلاطس وأكثروا الشكايات عليه مع أنهُ تزلف إليهم يجلب مياه العروب إلى القدس وأمر بنحت أنابيب من الأحجار الضخمة ليجرى فيها الماء. وفى فناء النوتردام فى القدس نماذج منها تشهد بعظمة صانعها وقد أخفق لأنهُ عزم أن يصرف ريع أوقاف اليهود عَلَى عمارتها فمانعوه وقد انتهت ولايته بعزله. وخلفه شخص حسن السيرة فكان نصيبه أسوأ وأنكد من سلفهِ ولم يُجْدِهِ لينه نفعًا لأن داخلية البلاد كانت فى هياج مستمر فكثر قطاع الطريق وأخصبت الفتن. واستحكم الخلاف بين الحكومة والشعب وتجسم فى عهد القائد الرومانى الذى تعين سنة ٦٤ ب. م لما طمع فى أموال الهيكل وهمَّ بسلبها فقاومه اليهود بكل قوتهم ومنعوه فأمر جنوده بالبطش بهم ونهب بيوتهم فاضطرمت لظى الحرب الأخيرة التى أدت إلى خراب القدس وتمزيق الأمة اليهودية. والحقيقة أن هذه

الشرارة التى طارت من القدس ليست كافية لإذكاء الثورة فى سائر أرجاء فلسطين لو لم تكن جميع البلاد عَلَى تمام الأهبة والاستعداد للوثوب ولو لم تكن نفوسهم هائجة وأرواحهم ثائرة متوقفة عَلَى اهتزاز خفيف أو نسمة هواء تحركها فتثيرها كما أشار إلى ذلك نصر بن سيار[1]:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

اشتدت الأزمة فى أيام نيرون الطاغية الذى روى لنا التاريخ شيئًا من قساوته وشره وفساد أخلاقه فثار ثائر اليهود وطردوا الحامية الرومانية من القدس فأرسل إليهم قائده فاسباسيان بقوة عظيمة ليخمد الثورة وينتقم من مسبيبها. فنزل فى قيصرية لأنها كانت ميناء فلسطين وعاصمتها وبذل جهده نحو سنتين حتى اخضع القسم الشمالى من البلاد فاسترد طبريا وجسخلة والسامرة واريحا. وقبل أن يصل القدس فوجئ بوفاة نيرون فى رومية فارتد مسرعًا إلى إيطاليا ليتبوأ مكانه وأناب عنه ابنه تيطس المشهور فى محاربة اليهود واستئصال شأفتهم فقدم القدس بجيش يبلغ ثمانين ألف جندى كان فيه فرقة عربية «نبطية» فخيم عَلَى جبل الزيتون ومرتفع سكوبس وعَلَى تلال المسكوبية والنكفورية وحاصر المدينة التى كانت حصونها قائمة فى ثلاثة مواضع:

(١) قلعة هيرودس وبقاياها القلعة الكائنة باب الخليل.

(٢) برج انطونيا وآثاره لم تزل فى القشلة السفلى شمالى الحزم.

(٣) الهيكل «الحرم».

---

(١) هو نصر بن سيار بن رافع بن حرى بن ربيعة الكنانى، أمير من الدهاة الشجعان، كان شيخ مضر بخراسان وولى بلخ ثم ولى إمرة خراسان سنة ١٢٠ هـ بعد وفاة أسد بن عبد الله القسرى ولاه هشام بن عبد الملك، وغزا ما وراء النهر، ففتح حصونا وغنم مغانم كثيرة. وأقام بمرو وقويت الدعوة العباسية فى أيامه. فكتب إلى بنى مروان بالشام يحذرهم وينذرهم، فلم يأبهوا للخطر، فصير يدبر الأمور إلى أن أعيته الحيلة وتغلب أبو مسلم على خراسان، فخرج نصر من مرو (سنة ١٣٠ هـ). ورحل إلى نيسابور، فسير أبو مسلم إليه فحطبة بن شبيب، فانتقل نصر إلى قومس وكتب إلى ابن هبيرة وهو بواسط -- يستمده وكتب إلى مروان وهو بالشام، وأخذ يتنقل منتظرا النجدة إلى أن مرض فى مفازة بين الرى وهمدان ومات بساوه سنة ١٣١هـ / ٧٤٨م.

قال يوسيفوس فى تاريخه: إنهُ كان فى القدس لما حاصرها تيطس ما يقارب المليون شخص. ونظن أن هذا لا يخلو من المبالغة لكن الرأى الراجح هو أن القدس ازدحمت بالمهاجرين من كل أنحاء فلسطين لاعتقادهم أن الله لا يسمح بإعطاء مدينته وهيكله وقدس أقداسه إلى غير شعبه فذكر المؤرخ الرومانى تاستس أنهُ اجتمع يومئذ فى القدس نحو ٦٠٠ ألف نفس.

لقد تحمل تيطس العذاب المر قبل فتح القدس لأن اليهود حاربوه بشجاعة فائقة واستماتوا فى حفظ بلادهم – وجدير بكل أمة تنزع إلى الاستقلال أن تدفع ثمنه مهما كلفها – ولولا ما حدث بين الأحزاب من الشقاق ما وصل تيطس إلى أمنيته.

ولكنهم انقسموا إلى ثلاث فرق:

(١) حماة الهيكل بقيادة العازار

(٢) حرس برج انطونيا وقائدهم يوحنا الجسخلى

(٣) حفظة قلعة هيرودس ورأسهم سيمون «سمعان» ولو تتبعنا ماضى اليهود وحاضرهم لوجدناه مفعمًا بالانقسامات والتحزبات السياسية والدينية التى كانت تمهد السبل لاستعبادهم والتغلب عليهم.

كل امرئ راجع يومًا لشيمته وإن تخلق أخلاقًا إلى حين

فكانوا إذا اتحدوا سادوا فتدب عقارب الحسد فى صدورهم فتطوحهم إلى هاوية الخلاف وينال منهم بسهولة ما كان صعبًا. وهكذا داهمهم جيش تيطس وهم أحزاب يتخاصمون ويتناظرون فأيقظتهم مجانيقه وآلات حصاره فحاولوا الاتفاق ولكن سبق السيف العذل فطال الحصار حتى مات الناس جوعًا وانتشر الوباء وسرى المرض من سوء الغذاء ورائحة الجيف المنتنة فرأف بهم وطلب إليهم أن يسلموا المدينة صلحًا ليعاملهم بالحسنى فأبوا وأصروا عَلَى الحرب وكانوا يبنون ليلاً ما يهدم نهارًا ولكن جهادهم لم يغنهم شيئًا وسقطت المدينة السفلى «برج انطونيا» ثم الهيكل ثم المدينة العليا «القلعة» والتى أبقاها مأوى للجنود. وأمر

بهدم برج انطونيا واحترق الهيكل من يد جندى بغير إرادة تيطس ولكنه أجهز على الأمة اليهودية وفتك بهم بلا عدل ولا رحمة.

ففر أحد الزعماء إلى قلعة «مسادا» وأسر الآخران وهما يوحنا الجسخلى وسيمون فسيقا إلى رومية ليسيرا فى موكب النصر الذى كان يحتفل فيه بعد عودة قائدهم ظافرًا منصورًا فكانت عادة الرومانيين أن يقف القائد المنتظر عند رجوعه إلى رومية فى ساحة كمبوس مرتيوس خارج المدينة ويخلعون عليه ثوبًا أرجوانيًا مزركشًا بالذهب ويتوجونهُ بنسر ذهبى ثم يحف به القواد والعسكر مُكلَّلِينَ بغصون الدفلى فيمر من أمامهم العدو المأسور ولو كان ملكًا أو عظيمًا وهنالك يبنون قوسًا لذكرى تلك الفتوحات وكل من يزور رومية يرى قوس تيطس شاهدًا عَلَى خراب القدس.

يوجد أمام فندق مرقص عمود شاخص نقش عليه كلمات لاتينية فلو تبيناها لقصت علينا حادثة القدس وخبر الفرقة العاشرة الرومانية التى تركت فى القدس للمحافظة عَلَى آثارها بعد خرابها.

٢١ – قلعة مسادا

عَلَى شاطئ البحر الميت قرب عين جدى بنى هيرودس حصنًا فوق صخرة عظيمة وحفر له الآبار وشحنهُ بالذخائر والأرزاق والعدد اللازمة ليعتصم به إذا داهمه الخطر. فلما قضى تيطس عَلَى اليهود خف أحد زعمائهم العازار بألف رجل والتجأ إلى هذا الحصن المنيع فلم تحمه البرية عَلَى اتساعها ولم تحفظه الحصون المشيدة بمناعتها فقد عقبهم جند تيطس وحصروهم وبينما هم يتوقعون التسليم رأوا ليلاً نارًا مضطرمة فى القلعة ولما تنفس الصبح صعد جند الرومان عَلَى سلالمهم فلم يسمعوا دبيبًا ولا صوتًا فحاروا فى أمرهم إلى أن ظهر لهم امرأتان قالتا لهم قد فاتكم الغنم فإن قائدنا الكبير العازار شعر بعجزه عن حماية الحصن فطلب إلى رجاله أن ينتحروا خيفة أن يأسرهم أعداؤهم فاستحسنوا نصحه وودع كل منهم زوجه وبنيه وقتلهم بنفسه ثم انتخبوا عشرة رجال من بينهم عهد إليهم

بقتل الباقين فأنجزوا عملهم واختاروا أحدهم فقتل التسعة وأحرق كل ما فى الحصن وقتل نفسه ولم يبق هنا إلا نحن وخمسة بنين. فعجب الرومان من هذه الجرأة وكان لسان حالهم يقول: إن هؤلاء الرجال العظام هم أبطال الوطنية وخليقون بالإجلال والاحترام.

سبيت الأمة اليهودية وهدمت عاصمتها وهيكلها مرتين الأولى من البابليين والثانية من الرومانيين فخمدت هممهم وخابت آمالهم بعد أن جاهدوا بأنفسهم وبذلوا أرواحهم دفاعًا عن استقلالهم.

٢٢ - هدريان

لا ريب أنه يغشى البلاد نعمى وبؤس كما يغشى الأفراد والأمم فبينما نرى القدس عاصمة تصدر منها الأوامر وتبرم فيها الأمور والأحكام إذا هى خراب يباب تنعق عَلَى أطلالها الغربان ولكن لم يكن يمضى عليها بضع سنين من الزمن حتى تراها قد استجمعت قواها واسترجعت جدتها فلو قابلنا صدماتها وما انتابها من المصائب بما أصاب غيرها من البلدان والمدن لعجبنا واستغربنا كيف أنها تجدد حياتها بعد اندثارها وغيرها يبيد ويمحق ولكن مكانتها الدينية فى نفوس مقدسيها تحملهم عَلى تعميرها وتجديد بنائها بخلاف البلدان الأخرى التى لا يشفع فيها مركز اقتصادى أو سياسى أو دينى.

إن الزمن الواقع بين عهد تيطس والفتح العمرى يقرب من ستة قرون أى ٥٦٧ سنة فهو مجلد ضخم أكثر صفحاته بيضاء لذلك أجملناها لقلة ما فيها من الأخبار الجليلة حبًا بالاختصار ومن شاء التوسع فليراجع مظانها فى بطون المطولات.

مضى عَلَى القدس ستون عامًا وهى خربة وفلسطين ساكنة مهيضة الجناح منهوكة القوى لأن الرومان تنبهوا وعرفوا أن الفتن والقلاقل فى فلسطين كانت تنبعث من القدس فحظروا عَلَى اليهود الرجوع إلى عاصمتهم إلى أن ولى الحكم الإمبراطور هدريان«أدريان»[1] فجدد عمارة القدس وسماها «إيليا كابيتولينا» فحنّ

(١) المسماة أدر يانوبل «ادرنه» على اسمه.

اليهود للرجوع إليها ودبت فيهم روح الأنفة والحمية فقام رجل اسمه باركوخب (ابن كوكب) وجاب البلدان وعرف الكهوف والجبال والبطاح والمداخل والمخارج والأماكن الوعرة الصالحة للدفاع ثم لقح الأفكار سرًا ببذور الثورة وبعث في قومه صرخة ادعى بها أنهُ هو المسيح الذى سينقذ أمتهُ من استعباد الأجانب ويخلصهم من ظلم الرومان فتبعه نفر ليس بقليل ازعج بهم حكومة رومة وأقلقها ثلاث سنوات. فاوفد إليهم هدريان قائده الجبار العاتى سفروس الذى أخضع الجزر البريطانية فسحق اليهود وقهرهم فى معركة بتير وكان ذلك آخر العهد بالحروب اليهودية.

قف هنا أيها القارئ هنيهة وتأمل فى عظمة الإمبراطورية الرومانية وضخامتها واذكر اسم القائد سفروس الذى فتك ببرابرة بريطانيا وسل نفسك أين ذهبت تلك الدولة وكيف أفل بدرها؟؟ وكيف ترقى أولئك البرابرة وورثوا تلك الإمبراطورية العظيمة فى سعة حكمها وأقطارها؟!

٢٣ قسطنطين وتنصير فلسطين

فى أوائل القرن الرابع للمسيح انشقت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين المملكة الغربية وعاصمتها رومية والشرقية وعاصمتها بيزنطية(*) وهى الحكومة التى كانت مسيطرة عَلَى فلسطين فقدمت الملكة هيلانه أم قسطنطين إلى القدس وبنت كنيسة القيامة التى يحج إليها المسيحيون وكنيسة بيت لحم «المهد» ومن ذلك العهد تنصر أهل فلسطين فاضطهدوا اليهود وأجلوهم عن البلاد.

وفى القرن الرابع والخامس ب.م أسست الصوامع والأديرة ومنها دير مارسابا المشهور الواقع فى الجنوب الشرقى من بيت لحم وكثر عدد الرهبان والنساك. ولكن مكروب الفساد وَسُوسَ الانحلال دبّ فى جسم المملكة البيزنطية فنخر عظامها وعظم الخلاف بين رجال الأكليروس: إذ ذهب بعضهم أن السيد المسيح ذو طبيعة ومشيئة واحدة. وبعضهم قال إنه ذو طبيعتين ومشيئتين إلهية وإنسانية

(*) الأستانة وتدعى أيضًا القسطنطينية نسبة إلى قسطنطين أول إمبراطور تنصر وأمر بتعميم الديانة المسيحية فتبعه خلق كثير وأصبحت الديانة المسيحية دين الحكومة الرسمى

وقال الآريوسيون إن هو إلا رسول ونبى كريم فمالت الحكومة إلى القائلين بالطبيعتين واضطهدت كل من خالفهم وبينما هم يتجادلون ويختصمون هجم الفرس على سورية وفلسطين سنة ٦١٤ ب.م واغتصبوها وأغراهم يهود العراق وسورية بالانتقام من المسيحيين فهدموا كنيسة القيامة وقسمًا كبيرًا من القدس وجاهر يهود إنطاكية بالعصيان وقتلوا بطريركها وكذلك ساعدوا العرب عَلَى فتح فلسطين ودلوهم على مدخل قيسارية وهذه طبيعة كل الأمم المغلوبة على أمرها فما دخلت حكومة بلادًا كان فيها يهود إلا كانوا آلة للفاتحين سنة الله فى خلقه :

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرئ نصيب ولاحظ تمنى زوالها

ولما بلغ هرقل ما فعل الفرس جهز جيشًا ونهض من القسطنطينية وحاربهم وانتصر منهم سنة ٦٢٨ ب.م واسترد سورية وخشبة الصليب. ولكن دولته كانت بالغة من الكبر عتيًا وظهر عليها الضعف والفتور فعجزت عن دفع فيضان الحكومة العربية الفتية وتقلصت إلى داخل حدودها.

٢٤ - آثار اليونان والرومان فى فلسطين

شهد التاريخ عَلَى فلسطين أنها بلاد احتلال واستعمار فإن لم يكن يهوديًا كان أشوريًا أو بابليًا أو فارسيًا أو مصريًا أو رومانيًا أو يونانيًا أو تركيًا أو إنكليزيًا ولا نعلم كيف يكون المصير.

فلسطين بلاد آسيوية اغتصبها الغرب من الشرق أزمانًا وتناوبتها دُوَله فابتدأ هذا المد بالموجة الفلسطينية وتبعها طوفان اليونان ثم فيضان الرومان وسيل الصليبيين المتدفق وختم بالاحتلال الإنكليزى والوطن القومى اليهودى.

ولكن الشرق لم يقف أمامه صاغرًا بل كان يثأر منه الكيل كيلين وغزا أوروبا واحتلها قرونًا متعددة وحكم فى أهلها فنشط الفنيقيون إلى استعمار بلاد اليونان والكلتين وجزر البحر الأبيض وبريتانيا(*) ثم غزا الفرس دولة اليونان واستولوا

(*) لفظة سامية مركبة من كلمتين بريتا «بلاد» آنيا «إناء التنك» أى «بلاد التنك» أطلق الفنيقيون هذا الاسم على بلاد الإنكليز لكثرة معدن التنك فيها فعلق بهم إلى يومنا هذا.

عَلَى بلادهم ثم فتح العرب أسبانيا وجنوب فرنسا وجزر البحر المتوسط وانحدر التتر «المغول» من شمال غربى البحر الأسود وألفوا هناك حكومات وإمارات وأردف كل هذا بفتوح الأتراك العثمانيين واكتساحهم شرق أوروبا حتى فينا فلو قابلنا المد والجزر فى كلتا القارتين لتساويا.

ليست المدة التى بين فتح الإسكندر والفتح الإسلامى قصيرة بل تبلغ ٩٧٠ سنة أى من ٣٣٣ ق.م – ٦٣٧ ب.م وهى كافية لاندغام سكان آسيا بأهالى أوروبا لأنهم الحاكمون ولكن مضى هذا الزمن الطويل ولم يعلق بنا وببلادنا إلا النزر اليسير نفرد له فصلاً خاصًا من هذا الموجز:

١ - اللغة اليونانية:

إن كل قائد فاتح يحمل لغته معه حيث سار فتنازع لغة البلاد وتصارعها فيفوز الأنسب ويبقى الأصلح فلما نهض اليونان كان الشرق محمومًا ففتحوا مدنه وأقاليمه ونشروا لغتهم الجميلة فانتبذها الأهالى وانحصرت بين الطبقة المتهذبة وفى مجالس الخاصة وأندية الأدباء فقط كما هى اللغة الإنكليزية والفرنسية الآن وعجزت عن مزاحمة لغة أهل البلاد الوطنية وهى اللغة الآرامية ولكنها تغلبت عَلَى اللغتين اللاتينية والعبرية الدخيلتين فقد مضى قرن وثلث على حكم الرومان البلادَ واللغة اليونانية ذات السيادة فدُّون المسيحيون أناجيلهم بها وتفننوا فى رسائلهم بآدابها وأهملوا اللغة العبرانية ولغة الحكومة اللاتينية.

٢ – المدن:

شاد اليونان فى الشرق الأدنى مدنًا كبيرة وعظيمة منها الإسكندرية وإسكندرونة وإنطاكية وجرش وعمان أما المدن الرومانية فهى بعلبك ومن زارها يحنى رأسه إعجابًا من تلك المدينة الفائقة والبناء الضخم وقيسارية وسبسطية وطبرية ويروى أن الإسكندر أسس نحو ٦٠ مدينة فى الشرق جعلها مراكز لبث الدعوة اليونانية ونشر المدنية الغربية واسكن بها دعاة اليونان الذى كانوا يبشرون بالروح اليونانية «التفرنج».

٣ - الروح اليونانية "Hellenism" :

ربما كان خير تفسير لكلمة هيلنزم «التفرنج» أى نقل عادات الأفرنج وألعابهم وأخلاقهم ولذلك سعى اليونان جهدهم لجعل البلاد يونانية فبشروا بديانتهم وشوقوا الناس إلى اقتباس عاداتهم وآدابهم فبنوا المسارح وملاهى التمثيل فى مدنهم ونحتوا تماثيل لمشاهيرهم وآلهتهم فعبدت الأصنام وآثارها باقية فى بعلبك فإن صح لنا أن نشابه بين الماضى والحاضر نقول: إن كرة القدم والملابس المقصرة والرقص والسينما وغير ذلك يشبه ذات الروح التى توخاها اليونان فى عصرهم.

كانت مدينة الإسكندرية وإنطاكية عش الدعوة اليونانية ومنهما تشع روحهم وتتوزع عَلَى سائر أقطار الشرق. فقد نبغ فى سورية من الفلاسفة والأدباء نفر غير قليل وزهت المدنية اليونانية ونضجت المعارف وأزهرت العلوم فى عاصمة البطالسة وكثرت المكاتب والآلات الفلكية لرصد الكواكب وأدوات الهندسة وآلاتها فاليونان أساتذة العالم وأدلاء الشرق ومرشدوه ولقد كان لهم عشر مدن فى فلسطين تدرس فيها تعاليمهم وتعرض فيها مدنيتهم فتلاشت من رفض اليهود وكرههم لها.

وإن من تنقل فى أطراف فلسطين وتأمل قليلاً يرى آثار القناطر والطرق والهياكل التى تركها لنا الرومان كما سنفصله فى هذا التاريخ عن مدن فلسطين.

❁❁❁

القسم الثانى

obeikandl.com

الفتح العربى الإسلامى

من عمر بن الخطاب إلى السلطان سليم

٢٥ – العرب فى فلسطين قبل الإسلام

إن كل من شغل بعلم التاريخ يتجاذبه عاملان قويان. أولهما عام وهو حب العلم وثانيهما خاص وهو رغبة الاطلاع على تاريخ قومه وبلاده. فالقسم الأول من هذا الموجز يهم العربى الذى طمع فى العلم ورغب فيه. أما القسم الثانى فمن الواجب المتحتم على كل عربى أن يمزجه بدمه ونفسه لارتباط تاريخ بلاده بأمته الذى ينعش نفسه ويحييها، فإنى أعجب كيف يكون المرء وطنيًا إذا لم يعرف تاريخ بلاده وسيرة أمته وأبطالها أو لم يتعلم لغتها وآدابها؟. فتصديرنا هذا الموجز بتاريخ الأمم الأخرى ليس لأنها أقدم من أمتنا العربية فى سواحل فلسطين الشرقية والجنوبية. بل لكونها ملأت صحف تاريخ البلاد أكثر من سواها فالعرب منذ القدم سكنوا فلسطين وكانت فيها مرابعهم ومصايفهم وشيدت فيها منازلهم وحكوماتهم وهذه نبذة مختصرة عن العرب قبل الإسلام فى فلسطين نؤيد بها حجتنا:

١ – ورد فى التواريخ الموثوق بها أن نرام سين بن سرجون ملك الكلدان غزا فلسطين سنة ٣٨٠٠ ق م. وصادف فى سينا حكومة عربية. ثم حارب قبيلة مقان «معان» العربية وأسر أميرها وقد ظهر فى آثار بابل ما يثبت هذا القول.

٢ – أن سرجون الثانى غزا عرب البادية الذين تعدوا على بلاد السامرة وأخضع قبائلهم ومنها ثمود وهم ميديان «مدين» ومساكنهم شرقى الأردن وحارب عباديد وأخذ منهم طائفة وأسكنها فى بلاد السامرة.

٣ – فى القرن الثامن ق.م. أخضع تغلث فلصر عرب البادية بين فلسطين ومصر وكانت ملكتهم حبيبة فعزلها وولى مكانها أحد رؤسائهم.

٤ – لما جاء الإسكندر إلى فلسطين وحاصر غزة كانت حاميتها عربًا فقاومته أشد المقاومة.

٥ – بشَّر أحد تلامذة المسيح بلغات عديدة منها اللغة العربية كما ورد فى أعمال الرسل ص ٢ : ١١.

٦ – كان الحارث حاكم دمشق عربيًا لما دخلها بولس الرسول كما ورد فى رسالته إلى أهل مدينة كورنثوس (كونثوس ص ١١ : ٣٢).

٧ – لما جاء تيطس لفتح القدس كان معه الحارث ملك العرب يقود فرقة عربية.

٨ – التجأ هركانوس المكابى إلى الحارث ملك العرب فأنجده وساعده عَلَى أخيه ارستوبولس.

٩ – إن فيلبس الرومانى الذى صار إمبراطورًا فى رومية سنة ٢٤٤ب.م. كان عربيًا من بصرى حوران (راجع جبون) Every man's Encyclopedia Vol. 10, p 298.

١٠ – حكومة تدمر وتمدنها وتجارتها ونفوذها فى الشرق والبلاد العربية (راجع زيدان التمدن الإسلامى).

١١ – حكومة بطرا «الحجر» فى الجنوب الشرقى من فلسطين إلى خليج العقبة وقد حكموا فلسطين وسورية.

١٢ – الغساسنة حكام الشام وحوران وشرقى الأردن الذين عمروا المدن وشادوا القصور والقلاع وهى دولة عربية مسيحية.

ومن استقرأ صفحات التواريخ القديمة وجد كلمة «العرب» تجول فى غزواتهم المظفرة ومحارباتهم الكثيرة فى فلسطين وحسبنا دليلاً أن هاشما جد أبى النبى «ﷺ» مات فى غزة ودفن فيها وإننا نعرض عن دول اللخميين والهيكسوس

وحمورابى واليمن لأنها بعيدة عن بلادنا ولا اتصال لنا بهم. ولكنا نقول: إن سكان فلسطين القدماء كالكنعانيين والعمالقة الذين أتوا فلسطين من جزيرة العرب ربما كانوا من طوائف العرب البائدة طسم وجديس إذ يصعب عَلَى الفكر التصديق بانقراض قبائل كبيرة برمتها. ولكن يجوز أن تستحيل إلى غيرها وتندغم فيها. فيظهر مما تقدم أن العرب لم يفيضوا إلى فلسطين دفعة واحدة بل دخلوها تدريجاً ثم تدفقوا فى عهد الفتح الإسلامى وهذا يحملنا عَلَى الترجيح أن مجيء كل فرد أو قبيلة عربية إلى هذه البلاد كان توطئة وتمهيدًا للفتح الأخير وفى هذه السطور دليل كافٍ عَلَى أن العرب سكنوا فلسطين قديمًا وشاركوا بها غيرهم قبل الفتح الإسلامى وتمتعوا بها بعده.. والمستقبل يتوقف عَلَى نشاط الأمة واستعدادها، يمليه الأفراد عَلَى مدوّنى التاريخ فلنحذر أن يكون شرًا.

٢٦ - النهضة الإسلامية

كان العرب قبل الإسلام مختلفى الاعتقادات ومتفرقى النزعات فمنهم الموحد والمشرك والصابئى وعابد الأصنام ولكنهم أجمعوا عَلَى احترام مكة المقدسة فكانوا إذا حجوا إليها يطوفون حولها وينزعون سلاحهم فلا يحاربون فيها ولا فى أشهرهم الحرم وقد سموا أيام الحرب التى حدثت فى إحرامهم «الفجار» لأنهم ارتكبوا فيها فجرًا. فيظهر أن العرب كانوا وقتئذ فى بدء تطور جديد فنفوسهم تتحفز للنهوض وتحركها حروبهم الداخلية وتعديات جيرانهم الفرس والأحباش على اليمن ووقعة ذى قار وانتصار العرب من الفرس كل هذا يدل على تمخض فكرى وغليان عقلى وتأهب للانتقال السياسى والدينى الذى يطرأ عَلَى الأمم وتلا ذلك ولادة محمد «ﷺ» فى سنة ٥٧٠ ب.م. فى مكة من قبيلة قريش وهى من أشرف قبائل العرب ولها سدانة الكعبة فيتم صغيرا وكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب فاشتهر بالأمانة والخلق الطيب فسمى بالصادق الأمين فتاجر بأموال السيدة خديجة بين الحجاز والشام على حصة من الربح فأرضاها بمعاملته وأعجبت به فخطبها وتزوجها وانتفع بمالها.

كان فى نفس محمد أسرار محجوبة تحركها العوامل والبواعث الخارجية فتثيرها ثم تخمد إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة وبعثه الله نبيًا فبث دعوته ثلاث سنوات بين أهله وعشيرته الأقربين فأسلم له نفر وكان يجتمع بهم خفية فى دار الأرقم المخزومى إلى أن أسلم عمر بن الخطاب فقال لهم «علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل» فأجابه النبى ﷺ إنا قليل وقد رأيت ما لقينا فقال له عمر: والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيهِ بالإيمان فخرج النبى فى صفين من المسلمين حتى دخلوا المسجد فلقبه النبى «ﷺ» الفاروق لأنهُ فرق بين الحق والباطل فنزلت الآية ﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] فجهر النبى ﷺ بدعوتهِ وطاف على القبائل وهو يتلو عليهم ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2] فاضطهدته قريش وطفقوا يكرهون من آمن به على ترك دينهم بدفنهم فى الرمل أحياءً ويسومونهم أنواع العذاب وهم عَلَى عقيدتهم ثابتون وإن أعظم شرط لنجاح المبادئ الجديدة وطنية كانت أو دينية الجزم بصحة المذهب والثبات عليه مهما اعتراه من المحن.

ظلت الدعوة الإسلامية ضعيفة حتى آمن بها أخوال النبى ﷺ الأنصار ونصروه عصبية وحبًا فى الدين ومزاحمة لقريش عَلَّهُم يحولون وجهة الحج إلى مدينتهم لأن أحد أبطالهم أبا الهيثم قال يا رسول الله فهل عنيت إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فقال له أنتم منى وأنا منكم أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم. فلما طال بهم العسف هاجروا جميعهم خفية إلى المدينة ليحتموا بالأنصار إلا عمر بن الخطاب فإنهُ تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهمًا وطاف بالبيت سبعًا وصلى متمكنًا وقال:

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٤.

(٢) سورة النحل الآية ٩٠.

«شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس من أراد أن تثكله أمه ويبتم ولده ويرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى» فما تبعهُ أحد ومن ذلك اليوم الموافق سنة ٦٢٢ بدأ تاريخ الهجرة النبوية فنزلت آيات الجهاد وحدثت المناوشات والسرايا والغزوات فجهز النبى «ﷺ» سنة ٨ هـ جيشًا يبلغ عدده ٣٠٠٠ مقاتل لغزو فلسطين وسورية وأمّر عليهِ مولاه زيد بن حارثة فسار حتى وصل إلى معان فقابلهم الروم بجيش كبير من قبائل العرب المتنصرة لخم وجذام وبلى فتحاربوا فى قرية مشارف ومؤتة(٥) من البلقاء فانكسر المسلمون وهزموا وقتل بضعة من قوادهم منهم جعفر الطيار جدَ آل هاشم فى نابلس فلم ينثنِ عزم النبى «ﷺ» ولم يصبر على تلك الغلبة فسار إلى مكة وفتحها وأسلمت قريش ووفدت إليه أمراء الجزيرة مسلمين مؤمنين بدينه الجديد فكان يُصحبهم بالقرّاء ليفقهوهم فى الدين ويعلموهم الصلاة وقد ساعد عَلَى سرعة انتشار الدين الإسلامى نفوذ حكم الأمير فى قبيلته فإنه عند ما كان يسلم الأمير تتبعه القبيلة بلا عناء فَعَمَّ الإسلام الجزيرة كلها ووجه النبى «ﷺ» نظره لفتح سورية وفلسطين فجهز جيشًا وقاده بنفسه إلى تبوك فصالحه أهل آيلة وأهل مقتا وأكيدر دومة الجندل عَلَى الجزية ولم يصطدم بالروم وانقلب راجعاً ثم جهز جيشًا لثالث مرة سنة ١١ هـ وأمرّ عليه أسامة بن زيد ففاجأته المنية والجيش عَلَى تمام الاستعداد.

وإن محاولة النبى «ﷺ» ثلاث مرات فتح فلسطين وسورية لحجة بالغة علَى تطلعه ورغبته فى ضمها إلى الجزيرة لأنها جناحها وقادمتها العراق.

٢٧ - النبى محمد ﷺ

كان عظيمًا فى نفسهِ أمينًا فى دعوتهِ صادقًا فى نبوتهِ جليًا فى شريعتهِ مصلحًا بأخلاقهِ وتعاليمه جمع كلمة العرب وأزال التفرقة من بينهم برابطة جديدة متينة وهى الإسلام الذى لم يكن مقصورًا على كونه دينا وحسب بل كان

(٥) سميت هذه السرية بسرية مؤتة

رابطة قومية وسياسية واجتماعية، ألف بينهم وقذف بهم إلى المعمور ففتحوه بنواة روحه وغرس عمله وإنا نورد هنا طائفة من القرآن الكريم والحديث الشريف النفيسة المدبجة بالحكمة والفضائل.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ (١) ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢).

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (٣) الدين المعاملة. الدين النصيحة.

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (٤).

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (٥)

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (٦).

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (٧).

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٨).

﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ (٩).

ليس المسلم الذى يشبع ويجوع جاره وقال فى خطبة حجة الوداع: استوصوا بالنساء خيرًا [راجع نموذج الفضائل الإسلامية]. ولما قبض النبى «ﷺ» ارتد

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٨.
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠.
(٣) سورة العصر.
(٤) سورة الشورى الآية ٤٠.
(٥) سورة آل عمران الآية ١٠٤.
(٦) سورة الأنفال الآية ٤٦.
(٧) سورة البقرة الآية ٢٥٦.
(٨) سورة الكهف الآية ٢٩.
(٩) سورة البقرة الآية ٢٦٣.

العرب ورجعوا إلى دينهم القديم لأنهم أسلموا عصبية وتبعوا أمراءهم قبل أن يرسخ الدين فى نفوسهم أو تعرف القبائل ما هو الإسلام فقتلوا المعلمين وطردوا المفقهين وامتنعوا عن أداء الزكاة وادعى كثير منهم النبوة فحاربهم الخليفة أبو بكر حتى ثابوا إلى رشدهم وأذ عنوا للإيمان بعد جهاد عنيف.

٢٨ - إنفاذ جيش أسامة

ابتدأ أبو بكر أعماله بأن أنفذ بعث رسول الله «ﷺ» الذى كان مجهزًا بقيادة أسامة بن زيد وعدده بين ٧٠٠ - ١٠٠٠ وزوَّده بوصية جليلة وهى صفحة نيرة من أخلاق أبى بكر قال: «لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له». وقصارى القول أنها خير مثال للوصايا الإنسانية وجديرة بأن تكون قدوة حسنة لقواد جيوش عصرنا المتمدن الذين أمروا بقتل الأطفال وهتك النساء وتخريب البنايات وقطع الأشجار وهدم الكنائس. فسار أسامة بسريته إلى أن وصل أبنى بناحية البلقاء شرقى الأردن وأوقع بقبائل قضاعة ورجع بعد أربعين يومًا. فأظهر أبو بكر الحكمة بإنفاذ جيش أسامة وهو بحاجة لجند يخمد بهم ثورة الردّة ليوهم العرب الذين مر بهم الجيش أن للمسلمين قوة عظيمة لا طاقة لهم بها. وقد خسر العرب فى تحقيق الأهداف المطلوبة فى هذه الغزوات الثلاث ولكن لم تثبط همتهم وكروا بجيش لا بشرذمة طالبين الفتح لا الغارة قاصدين الاستيطان لا الاصطياف.

٢٩ - وقعة اليرموك

صعب عَلَى أبى بكر ظفر الروم بالمسلمين فاستنصر العرب واستجاشهم ووجه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء فذهب وصدمه الروم بجموع كثيرة أكثرها من العرب المتنصرة بهراء وتنوخ ولخم وسليم وجذام وغسان ونزلوا من دون زيزاء بثلاث مراحل فلما قدم خالد أعروا منازلهم وحطوا بين «فحِل» وزيزاء

والقسطل[٥] وبعد قتال فل جيش خالد وارتد مخذولاً فعزله الخليفة وولى مكانه يزيد بن أبى سفيان ومعه وجوه مكة وأشرافها وغايته البلقاء وعزّزه بثلاثة أمراء وهم (١) عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين فأخذ عن طريق المعرقة إلى أيله «العقبة» (٢) الوليد بن عقبة ووجهته الأردن ثم استبدله بشرحبيل بن حسنة وسلك طريق تبوك (٣) أبو عبيدة بن الجرّاح وهدفه حمص وطريقه البلقاء وعلياء الشام وأمّر يزيد عَلَى الجميع وزوّده بوصية وهى:

«إنى قد وليتك لأبلوك وأجرّبك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك.. إذا قدمت عَلَى جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا وأصلح نفسك يصلح لك الناس الخ».

فسار الأمراء وأوغلوا بجيوشهم وتغلغلوا فى أحشاء البلاد فنفرت منهم طوالع الروم ظانين أنها غيمة عما قريب تقشع. فلما رأوهم اقتحموا المدن وجاسوا عوراتها هبوا من غفلتهم وجمعوا جيشًا من العساكر والمقاتلة زهاء ١٥٠ ألف مقاتل. ويقول جبون: إنه كان فى هذا الجيش ٦٠ ألف جندى عربى بقيادة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة. فناجزوا المسلمين وهم متفرقون ليزعزعوا قوتهم ويبلغوا أربهم لأن وقفة قوادهم كانت شبه مثلث رأسه فى البلقاء مع يزيد «لحفظ خط الرجعة» وطرفاه الواحد فى الجنوب الغربى من فلسطين مع ابن العاص والآخر مع أبى عبيدة فى الجنوب الشرقى من حوران وفى الوسط «الأردن» شرحبيل «خط المواصلة» ففطن المسلمون لمقصد الروم وعرفوا نياتهم فأشار عمرو بن العاص بأن توحد القوى ويتراجعوا إلى أطراف سورية ويستشيروا الخليفة. أما أبو عبيدة فرأى مبادرة الروم ومحاربتهم فخالفوه وأجمعوا عَلَى رأى عمرو وعسكروا فى اليرموك[٦] وأرسلوا إلى أبى بكر فأشار عليهم بالاتحاد ريثما

---

(٥) قرى صغيرة متهدمة فى شرقى الأردن قرب مادبا

(٥) هو نهر صغير يصب فى الأردن بعد خروجه من بحيرة طبرية وكلمة يرموك معربة عن اللغة اليونانية «يرومكس» Hicromax

يأتيهم المدد وأمر خالد بن الوليد قائد جيوش العراق أن يأخذ نصف من معه من الجند وينصرف مسرعًا إلى الشام فامتثل الأمر وسار بقطعة من الجيش فمرَّ بتدمر وأغار عَلَى جمع من تغلب وكلب وقاتل بنى مشجعة واتى إلى ثنية العقاب. وأغار عَلَى غسان يوم عيد فصحهم ثم وفد عَلَى المسلمين فى اليرموك فوجد كل أمير يتساند على جنده فقال لهم: إن اليوم يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى أخلصوا جهادكم..» وأشار عليهم بأن يتناوبوا الإمارة العامة فقنعوا منهُ وولوه إياها فعبأهم تعبية فنية «كراديس كراديس». ووضع نفسه فى المقدمة يقودهم إلى الإمام وفى القلب أبا عبيدة وفى الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل وفى الميسرة يزيد بن أبى سفيان والقعقاع بن عمرو. وكان قائد الطلائع قباث بن اشيم والقاصّ أبا سفيان بن حرب يشجع الرجال ويقص عليهم نبأ البطولة والثبات. فلما استعرضوا الروم قال رجل لخالد «ما أكثر الروم وأقل المسلمين»!! فأجابه «ما أكثر المسلمين وأقل الروم إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان» وهنالك كان يستعد الجيشان لمعركة فاصلة فإما أن يفوز المسلمون ويسودوا عَلَى سورية وفلسطين ومن هناك إلى مصر والمغرب والأندلس أو يردهم الروم عَلَى أعقابهم إلى مهدهم وباديتهم. فلما اصطدم العسكران أظهر الروم من البسالة والصبر ما كاد يزيل المسلمين عن مواقفهم لولا أن النساء حملن العصى والرماح والعمد وضربن بها وجوه الخيل إذا لوت وحرضنهم قائلات «إلى أين يا حماة الإسلام» فصمدوا وقد شد الروم عَلَى ميمنتهم فكشفوها وسحقوها ثلاث مرات وهم صابرون وأبو عبيدة يتخطى الصفوف فيشجع الجمع ويضمد جروح الجرحى ويعدهم بالنصر إلى أن فازوا وانسحب الروم من أمامهم معتصمين ببيسان تاركين أسلابهم والغنائم. وقد اختلف المؤرخون فى عدد الجند فقال ابن الأثير إن جنود العرب كانت ٤٦ ألفًا والروم ٢٤٠ ألفًا أى أن الجندى العربى يقابل خمسة من الروم. وقال المطران الدبس فى «موجز تاريخ سورية» إن العرب كانوا ٤٠ ألفًا والروم مئتى ألف ومنهم من بالغ ومنهم من اعتدل والحقيقة أقرب إلى الصحة كلما قل العدد.

كانت هذه المعركة مفتاح النصر ومقدمة للاستيلاء عَلَى سورية وفلسطين وبما أن جميع المعارك الحربية التى حدثت بالقرب من هذه البقعة كانت فاصلة فإنا نورد هنا بعضها.

١ – وقائع مجدّو: بين مصر والعراق وما كان يلحق فلسطين من عواقبها.

٢ – وقعة اليرموك: التى زال بها ملك الروم عن الشرق.

٣ – معركة حطين: بين طبرية والناصرة وهى المعركة التى قضى بها صلاح الدين عَلَى الأفرنج وأخرجهم من فلسطين.

٤ – اصطدام الترك بالمماليك فى اللجون ورجوعهم القهقرى.

٥ – معركة مرج ابن عامر: بين جنين والناصرة التى هزم فيها اللنبى جنود الألمان والأتراك وأسر منهم خمسين ألفًا.

كانت نتائج هذه الملاحم الكبرى فى تلك البقعة الضيقة قاضية وفاصلة بين المتنازعين فمن فاز ملك البلاد ومن غلب عَلَى أمره خسرها ورجع مخذولاً. ولم يك هرقل متوقعًا هذا الانكسار فلما فل جيشه جزع وانسحب إلى شمال سورية وولى أخاه «ثيودور» القيادة العامة وبعث إليه القواد والعساكر وطلب النجدات من قومه ليكرَّ ثانية عَلَى العرب ويجليهم عن البلاد. أما العرب فإنهم ولوا بشير ابن كعب الحميرى مدخل اليرموك كى لا يقطع عليهم العدو خط المواصلة ونشطوا إلى فتح دمشق وقد فاجأتهم وفاة الخليفة أبى بكر واستخلاف أمير المؤمنين عمر. فحاصروا المدينة سبعين يومًا ودخلها خالد عنوة وأبو عبيدة صلحًا. وقد اختلف المؤرخون فى الوقت الذى عزل فيه خالد أكان قبل فتح دمشق أو بعده والأرجح أنه قبله لأن شروط التسليم والمعاهدة ومخابرة الخليفة كانت كلها باسم أبى عبيدة الذى استخلف عَلَى دمشق يزيد بن أبى سفيان وانقلب إلى فحِل (آبل) شرقى الأردن لمحاربة رافضة جيش الرومان الذين آووْا إلى بيسان فوجد المياه والأوحال والمستنقعات محيطة بالمدينة وقد حجزت المسلمين عن التقدم فكتبوا يستشيرون الخليفة ولا نية لهم بأن يرموا إلى منطقة فحِل حتى يأتى جوابه فظن

الروم بهم ضعفًا واغتروهم فوجدوا المسلمين عَلَى حذر وقاتلوهم وهزموهم فغاصت أرجلهم فى الوحل فأتوا عَلَى آخرهم وكان نصرًا مبيناً وسمى ذلك اليوم «ذات الردغة» فانصرف أبو عبيدة بخالد ومن معه إلى حمص. فلنتركه وشأنه ولنذكر ما تم وجرى فى فلسطين.

٣٠ - أجنادين(*)

محل واقع بين بيت جبرين والرملة كما أجمعت على ذلك كتب التاريخ وياقوت وقد اختلف المؤرخون فى وقعة أجنادين، ومن يستقصى التواريخ العربية يشتبه عليه أنه حدث موقعتان متعاقبتان والحقيقة أنها موقعة واحدة لأن العرب لما قدموا البلاد كان كل أمير مستقلاً غير مرتبط بالآخر فانسابوا فى داخل البلاد فلما نشط الروم لمناهضتهم تركوا ما فتحوه وانضموا إلى بعضهم فى اليرموك تحت لواء خالد بن الوليد. وبعد انتصارهم ذهبوا إلى دمشق ففتحوها ثم انتشروا ثانية يفتحون ويغنمون فسار عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إلى بيسان ففتحاها صلحًا وفتح أبو الأعور السلمى طبرية سنة ١٤هـ سنة ٦٣٧م على صلح دمشق وأن يشاطروا المسلمين المنازل فى المدينة وما أحاط بها مما يصلها لينزل فيها القواد. ثم قصد عمرو أشغال حامية الروم وعساكرهم المرابطة فى المدن المسوّرة خشية اجتماعهم فيؤلفوا قوة كبيرة ورأى أن يناضلهم غير مجتمعين فسرح يزيد بن أبى سفيان أخاه معاوية لحصار قيسارية وانطلق علقمة بن مجزّز لحصار غزة وعلقمة ابن حكيم ومسروق بن فلان العكى لقتال إيليا «القدس» وأبو أيوب المالكى إلى الرملة ونهض هو جنوبًا فأقام على أجنادين وفتحها سنة ١٥هـ سنة٦٣٧م. وقتل فى هذه الوقعة الأمير عون ابن الملك النعمان بن المنذر جد أسرة آرسلان ثم ساحت القواد فى فلسطين ففتحوا غزة واللد وسبسطية ونابلس ويافا وعمواس وبيت جبرين واستعصت الرملة والقدس وقيسارية وعسقلان فاجتمع معظم

(*) نظن ما ورد فى كتب التاريخ كان سهوا وتحديد المكان كان مغلوطًا وربما كانت اجنادين جنين أو اللجون أو طولكرم على حسب ما ورد فى سير الحوادث الدالة على أنها واقعة بعد مرج الروم «ابن عامر» حيث تكثر المياه.

الجيش لحصار القدس وقد بلغ ٣٧ ألف مقاتل وكانت السماء ممطرة فنزل خالد بن الوليد مما يلى باب أريحا وعروة بن مهلهل مما يلى طريق الرملة وواصلوا الحصار أربعة شهور.

٣١ - فتح باب المقدس

عجز الروم وأيقنوا أن دولتهم دالت وأنهم مأخوذون لاسيما والمسلمون يحترمون بيت المقدس ويقدسونها فلا يسمحون بها لغيرهم فتناجوا بينهم وأقروا على التسليم وطلبوا إلى جيش أبى عبيدة أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتولى للعقد الخليفة عمر بن الخطاب فكتب إليه بذلك فحضر إلى الجابية وقدم عليه رسل إيليا فتلقاهم المسلمون براية الأمان وصالحوهم على الجزية وأمنوهم على القدس وحيزها والرملة وحيزها وهذه شروط المعاهدة التى كتبت فى الجابية كما أوردها الطبرى وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان:

أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية. ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان.. فمن شاء منهم قعد وعليهم مثل ما على أهل إيليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم. وعلى ما فى هذا

الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية كتب سنة ١٥هـ شهد خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان » .

أما معاهدة الرملة فهى عين معاهدة بيت المقدس، وقد أورد الأنس الجليل[1] زيادة على هذه العهد منه :

١ – ألاَّ تبنى كنائس ولا تتجدد فى خطط المسلمين إذا هدمت.

٢ – أن يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام بلياليها.

٣ – ألاَّ يواروا جاسوساً ولا يكتموا غشًا للمسلمين ولا يمنعوا من أراد الإسلام.

٤ – ألاَّ يبيعوا خمرًا ولا يضروا بأحد من المسلمين.. الخ.

فلعل الزيادة التى ضمها الأنس الجليل للمعاهدة المسطورة فى تاريخ الطبرى هى ذيول أضافها عليها الملوك والخلفاء المتأخرون بحسب الظروف وإلا فالطبرى أولى بدرجها لأن تاريخه مفصل وقد بناه على الإسناد والتحقيق.

وبعد أن أمضى العهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخص إلى بيت المقدس بثيابه البسيطة وموكبه الديموقراطى لا كما نراه من قواد وملوك القرن العشرين الذين لا يسيرون إلا بالقطارات الخاصة أو «الاتوموبيلات» الفخمة بأبهة عظيمة وحاشية مهيبة فقدم المدينة وخيم خارجها إلى أن سلموها فدخلها وزار كنيسة القيامة فلما أدركته الصلاة خرج منها وصلى أمامها حيث كنيسة سيدتنا مريم فأنشئ هناك جامع ولم يصل فى القيامة خشية أن يدعيها المسلمون ويحولوها إلى مسجد.

ثم طلب إلى البطريرك « صفرونيوس » أن يريه مكان هيكل سليمان فذهب وإياه ودله عليه فلما شاهده مزبلة قذرة وأطلالاً دثرة دهش وأخذ يحفن التراب وينحضه بكفيه فتبعه من معه حتى تصبب عرقًا وأمر ببناء مسجد فوق الصخرة

---

(١) لتأليف مجير الدين الحنبلى

فى الحرم الشريف الذى يقدسه جميع مسلمى الأرض ثم أمر علقمة بن مجزز على نصف فلسطين الجنوبى وقاعدته إيليا وعلقمة بن حكيم على نصفها الآخر وعاصمته الرملة ورجع إلى الحجاز عاصمة الخلافة. وبعد سبع سنين فتح معاوية بن أبى سفيان مدينة قيسارية بوشاية رجل يهودى دلّ العرب على نفق فدخلوا منه إلى المدينة وفتحوها وسنة ٢٣هـ فتحت عسقلان ولم يبق للروم مدينة ولا قرية فزال ملكهم عن فلسطين وأصبحت البلاد عربية فى حكومتها وشعبها.

طاعون عمواس

كانت عمواس قرية يزيد بن أبى سفيان وهى اليوم من ناحية بنى مالك تبعد ١٧كيلومترًا إلى الشمال الغربى من القدس انتشر منها الطاعون فمات أمين الأمة الإسلامية أبو عبيدة وأناب مكانه معاذ بن جبل فطعن وكلاهما مقبور فى غوربيسان ويجاورهما قبر شرحبيل بن حسنة. وتوفى أيضًا يزيد بن أبى سفيان. ولما عين عمرو بن العاص أميرًا عامًا للجند أمرهم أن يتفرقوا ويتوزعوا على رؤوس الجبال متباعدين عن بعضهم فخف الوباء وانقطع المرض.

ويقدر مجموع من توفى بهذا الطاعون خمسة وعشرين ألف نفس وليس هذا العدد بكثير لما شاهدناه فى الحرب العظمى.

وفى سنة ٦٣٨م تم للمسلمين الفتح فقسموا البلاد إلى أربع ولايات «أجناد» فكانت فلسطين قسمين :

١ – جند الأردن وعاصمته طبريا وبلادها بيسان وعكا والفولة.

٢ - جند فلسطين وحاضرته الرملة وبلادها القدس وعسقلان وقيسارية وأريحا ويافا وعمان.

٣ - دمشق وبلادها بيروت وصفد وصيدا.

٤ – الثغور التى فصل العباسيون جزءًا منها سنة١٧٠هـ وسموه العواصم وحاضرتها حمص وحلب وأنطاكية وطرابلس. أما مدينة القدس فكان لها امتيازات خاصة لما لها من الاحترام الدينى فى نفوس المسلمين وقد التبس على

بعض المؤرخين فظنوها مستقلة عن الرملة والحقيقة أنها كانت تابعة إليها وسنة ٢١هـ تعين معاوية والى دمشق والأردن حاكمًا على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وانطاكية وكليكيا ومعرة النعمان ولما استخلف عثمان أضاف إليه جميع البلاد السورية فانتدب معاوية علقمة بن حكيم الكنانى واليًا لفلسطين وأبا الأعور السلمى للأردن.

٣٢ - إدارة البلاد وأسباب نجاح العرب فى فتوحهم

(أ) إدارة البلاد

أبقى العرب البلاد عَلَى ما كانت عليه، فظل أكثر السكان يدينون بدينهم متصلين برئيسهم الرومانى فى القسطنطينية كما يرتبط الآن جميع المسلمين بالخليفة العثمانى ويمارسون لغاتهم. فأهل فلسطين كانوا يتكلمون اليونانية وأهل مصر القبطية وأهل العراق الفارسية واتخذتها الحكومة لغات رسمية فى دواوينها إلى أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان فأبطلها وألغاها وأستبدلها باللغة العربية وضرب الدنانير الإسلامية فأصبحت الحكومة العربية وقتئذ مستقلة استقلالاً اقتصاديًا ولغويًا وسياسيًا. فتهافت الأعجام على تعلم اللغة العربية ليستفيدوا من حرفة الكتابة لأن لغاتهم أهملت فتعربوا ودخل أكثر العجم فى الدين الإسلامى وتدينوا به فأصبحت البلاد عربية إسلامية محضة يتخللها شرذمة قليلة من غير المسلمين.

(ب) أسباب النجاح(٥)

مما يدعو إلى الإعجاب بهمة العرب وإعظامهم تفوقهم على غيرهم بالرغم من عدم انتظامهم فإنهم تغلبوا على الممالك الراقية ودكوا عروش الحكومات المؤسسة التى كان لها الجند المنظم ولديها الحصون المنيعة وبيدها السلاح والذخائر وقد يعلل كثير من المؤرخين هذا النصر وينسبونه إلى عوامل معقولة وأسباب علمية مهدت لهم السبل لد ظلهم حتى أقصى المعمورة وهذه هى الأسباب:

---

(٥) راجع زيدان – تاريخ التمدن الاسلامى .

١ – نشاطهم وخفة أثقالهم واكتفاؤهم بالقليل من الحاجيات ووفرة جمالهم ووسائط نقلهم.

٢ – اعتقادهم المتين في نص الآية ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾[١] ﴿ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[٢] ومن الأحاديث « الجنة تحت ظلال السيوف»[٣].

٣ – مهارتهم وفروسيتهم ونجابة خيلهم وتفوقهم على عدوهم فى المبارزة وإتقانهم رمى النبال.

٤ – عظمة رجال النهضة الإسلامية مثل عمر بن الخطاب وأبى بكر وأبى عبيدة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية.. الخ.

٥ – الصبر والمطاولة وقلة حاجتهم للزاد والعلف الذى كان يبهظ عدوهم فيمل القتال قانعًا بالسلامة.

٦ – العصبية الجنسية فإن القبائل العربية المسيحية التى كانت خاضعة إلى الحكم الرومانى الأجنبى صافحت إخوانهم العرب وانضمت إليهم وحاربت معهم الرومان وهنا رجحت جامعة اللغة على جامعة الدين.

٧ - المحافظة على خط الرجعة فإنهم كانوا حريصين على خط رجعتهم حتى لا يقطعها العدو وينطوى عليهم فيأخذهم أسرى.

٨ – ظفر المسلمين بالروم فى واقعة اليرموك فإنه أكسبهم قوة معنوية واحتقروا عدوهم فاستصغروا شأنه وطمعوا فيه.

٩ - ظلم الرومان للسكان وفساد الأحكام حتى نقم الأهالى أحكامهم وملوا ولايتهم وتمنوا تبديلها.

---

(١) سورة المنافقون الآية ١١

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٤

(٣) ورد فى سنن الترمذى

١٠ – اليهود فإنهم كانوا آلة نقمة للعرب من الأهالى وأداة انتقام ودليلا للطرق شأنهم مع كل فاتح.

١١ – عدل المسلمين والتسوية بين الناس فلم يكونوا يفرقون بين أمير وحقير ورفيع ووضيع « ديمقراطية بحتة » .

١٢ – استبقاء الناس على ما كانوا عليه فلم يتعرضوا لدينهم أو معاملاتهم أو أحكامهم القضائية والعرقية.

١٣ – وفرة الغنائم فقد فاض على المحاربين بحر من ذهب فكانوا يجنون من فتح البلاد غنى عاجلاً وغنائم جاهزة حتى إن كثيرًا من العرب المنتصرة اعتنقوا الدين الإسلامى وحاربوا حبًا فى المال.

١٤ – ضعف الفرس والرومان باختلافاتهم الداخلية وعدم إخلاص القواد للوكهم وأمرائهم والذى يقابل بين فتح سورية ومصر وبين فتح العراق يستغرب كيف خضعت الأوليان واستعصت الثالثة وأتعبت المسلمين فظلت بعد فتحها محافظة على لغتها وعاداتها ولم يمض عليها قرن ونصف حتى استبدلت حكومتها الفارسية الوثنية بحكومات فارسية إسلامية فاصطفت الدين فقط وأنفت أن تتعرب كما فعلت الحكومات الأوروبية فإنها تنصرت مع المحافظة على جنسيتها ولغتها والسبب فى ذلك أن دولة الرومان كانت مستعمرة لسورية فلما غلبت انحسرت عن البلاد وظل السكان وأكثرهم العرب فاندغموا فى الحكومة الإسلامية والقومية العربية وأصبحوا أمة واحدة. أما العراق فكانت حكومته فارسية وكان سكانه عجما فلما سقطت دولتهم ظلوا فرسا فاعتنقوا الدين الإسلامى ولكنهم لم ينسوا استقلالهم فتربصوا حتى سنحت لهم الفرصة فاستعادوا ملكهم وقد حاولوا مرات قلب الحكومة العربية فقتلوا عمر بن الخطاب وتحزبوا لآل البيت وساعدوهم فى ثوراتهم ونصروا بنى العباس ولا غرض لهم من كل هذا إلا دك الدولة العربية واسترجاع دولتهم الفارسية.

٣٣ - الفتح العربى الاسلامى والخلفاء الراشدون

شرعت الحكومة العربية توسع حدودها وأطرافها فتجاوزت سورية ومصر وشواطئ افريقية الشمالية والعراق وإيران والأفغان إلى أن توفى عمر بن الخطاب وانتخب عثمان بن عفان فضعف عن ضبط البلاد لتغير الأحوال وتفرق النزعات والآراء فهمَّ بادارة المملكة كما يريد مروان بن الحكم ومعاوية بن ابى سفيان فأخذ برأيهما وولى أهله الأمصار وتعصب لقومه فعزل أهل السابقة فى الاسلام والشهرة فى الفتوح. فاغتنم هذه الهفوة يهود الحجاز الذين دخلوا فى الدين الاسلامى ليفسدوه ويهدموا أركانه فطافوا الأمصار وقدم زعيمهم الأكبر عبد الله بن سبأ «ابن السوداء» الشام ليوغر الصدور مبشرًا بكلمات براقة منها: « إن معاوية يقول: المال مال الله إلا أن كل شىء لله يريد أن يحتجنه دون الناس ويمحو اسم المسلمين ويتلو الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [1] وقال أعجب ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد وكيف تعصون آل بيت نبيكم» ووضع أحاديث كثيرة وزور كتبًا ورسائل أرسلها إلى البلدان يؤلب على عثمان. فاختمرت الثورة ونضجت فى أفكار المسلمين فاشتعلت الفتنة واضطرمت فى كل الأقطار خلا سورية لأن معاوية كان ساهرًا يقظًا فحرج الثوار من مصر والعراق إلى المدينة ناقمين من أعمال عثمان ومطالبين بالرجوع إلى سيرة العمرين وبعضهم يقول: إن عليا أحق بالخلافة من سواه فانجلت هذه العاصفة عن قتل عثمان واختيار على مكانه وشذ طلحة والزبير وخدعا عائشة أم المؤمنين زوج النبى وخرجوا إلى العراق وخالفوا عليًا فحاربهم وظفر بهم «فى وقعة الجمل» فقتل الاثنان وأسرت عائشة[2] وأمتنع معاوية بسورية ولم يبايع لعلى وأخذ يتهمه بأنه رأس الضلالة وأنه هو الذى ألب على عثمان وأوى قتلته فاجتمع بنو أمية حوله وعاضده عمرو بن العاص على أن يعطيه مصر طعمة. فغضب على وهب لقاتلته ومناجزته فالتقوا بصفين سنة ٣٦ هجرية

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٤

(٢) الصحيح أن عليًا كرّم الله وجهه أعادها معزّزةً مكرّمةً إلى المدينة، فلم تؤسر.

واختلفت بينهم الرسل وتكرر السفراء طمعًا فى الصلح فلم يتوفقوا لخير. وفى سنة ٣٧ هجرية ابتدأت الحرب وقد أظهر جند الأردن شجاعة فائقة. ثم اتفقوا على تحكيم رجلين فصلاً للخلاف ورفقًا بالمسلمين فاختار معاوية عمرو بن العاص داهية العرب ورضى علي بأبى موسى الأشعرى. ولما اجتمع الحكمان وتفاوضا كاد عمرو أبا موسى وقال له لنخلع الرجلين حقنًا للدماء ويكون الأمر شورى فخُدِعَ أبوموسى وقام خطيبا فخلع الرجلين (عليا ومعاوية) ثم قام عمرو فخلع عليًا وأقرّ معاوية فلم ترض شيعة علي بهذا الحكم وافترقوا مختلفين. ومن هنا بدأ أمر علي يضعف ويضمحل وشأنه يسفل وشأن معاوية يعلو حتى قتله ابن ملجم وبايع جنده ولده الحسن ثم انتقضوا عليه فاستشار الحسن أخاه الحسين فى التنازل عن الخلافة فنهاه قائلاً « إياك أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة أبيك » فلم يسمع منهُ وخلع نفسه بعد ستة شهور من حكمه وبايع معاوية وسلم إليه الكوفة عاصمة أبيه فى آخر بيع الأول سنة ٤١هـ فسمى هذا العام «عام الجماعة» لأنهم أجمعوا به على خليفة واحد ولكنَّ الخوارج كثروا وعصوا على الخليفة فكان كلما قضى على فرقة تنبت أختها وظلت طوائفهم تتعاقب حتى حين. فالطوائف الشيعية والزيدية والدرزية والإسماعيلية والإباضية هى بقية أولئك الخوارج الذين تكونت نواتهم من نفثات ابن سبأ والذين حاربوا بنى أمية وبنى العباس وكادوا يهدمون الدين الاسلامى لولا أنه كان فتيًا ويقوضون الدولة العربية لولا عصبيتها القومية.

٣٤ - نبذة من تاريخ القرآن الكريم:

إن للقرآن أهمية كبرى فى توحيد كلمة العرب وفتوحاتهم العظيمة نذكر منها هنا شيئًا عنه:

نزل القرآن عَلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدة ٢٠ سنة فكانوا يكتبونه على الرقاع وعظام الأكتاف وعسب النخل واللخاف أو يستظهرونه ويسمون حفظته الحفاظ.. ويقسم القرآن بحسب محل النزول إلى مكى ومدنى. أما باعتبار الناسخ والمنسوخ فله أقسام: قسم ليس فيه لا ناسخ ولا منسوخ وهو ٤٣ سورة الفاتحة، يوسف، يسين .. الخ. وقسم فيه الناسخ فقط وهو ست الفتح،

الحشر، المنافقون، الخ. وقسم فيه منسوخ فقط وقسم فيه ناسخ ومنسوخ وهو ٢٥ سورة البقرة، النور، الخ.

والنسخ على ثلاثة أضرب: أحدها ما نسخت تلاوته وحكمه، الثانى ما نسخ حكمه دون تلاوته، الثالث ما نسخت تلاوته دون حكمه وكل ذلك تم عَلَى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فلما قُبض وارتد العرب وقتل أكثر الحفاظ فى غزوة اليمامة أشار عمر بن الخطاب عَلَى أبى بكر بجمعه فتردد ثم جمعه من تلك المخطوطات ومن صدور الرجال. وأبقوه عند أبى بكر حتى مات فأخذه عمر فلما قبض بقى عند ابنته حفصة وفى خلافة عثمان انتشر المسلمون فى كل الأقطار فذهب القرّاء فى تلاوته مذاهب شتى فشهد حذيفة بن اليمانى اختلافًا بين المسلمين فى قراءة بعض الآيات ورأى بعضهم يفضل قراءة أبى موسى عَلَى ابن مسعود فأنبأ عثمان بذلك وأنذره بسوء العاقبة فبعث إلى حفصة بنت عمر أن أرسلى الصحف لنسخها ونردها إليك فأرسلتها فدعا عثمان أجلة الصحابة وأمرهم أن ينسخوا القرآن ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء وقال لهم أن اختلفتم فى شىء فاكتبوه بلسان قريش ففعلوا[1] علوا ذلك سنة ٣٠ هـ وكتبوا ستة مصاحف فبعث عثمان بأربعة إلى الأمصار مكة والبصرة والكوفة والشام وأبقى اثنين فى المدينة، والمصاحف التى تتداولها الآن هى فرع عن ذلك.

كتب القرآن بلا شكل ولا إعجام حتى أيام زياد فوضع نقطًا لونها يخالف لون الكلمة (إعجام غير واف) ثم وضع أبو الأسود الدؤلى نقطًا ليتميز بها الاسم والفعل والحرف وربما اقتبس هذا من السريان أو الكلدان. أما صور الحركات التى وصلت إلينا وهى الضمة والفتحة والكسرة فقد وضعها نصر بن عاصم بأمر الحجاج بن يوسف وجعلها أفرادًا وأزواجًا. ثم أضيف إليها الحركات المماتة وهى الإمالة (e) والروم (ﻥ) والإشمام (ﻫ) فكانت لها أوضاع خصوصية وزيدت عليها علامات أخرى مقتطعة من كلمات تؤدى المعنى المراد نحو مدّ (ـٓ) شدّ (ـّ). ولكن حفنى بك

---

(١) ومن هنا تفرعت القراءات الشاذة والصحيحة فأبيدت الفاسدة ولم يبق إلا القراءات السبع وأشهرها قراءة حفص (راجع الاتقان).

ناصف قال فى كتابهِ حياة اللغة العربية: إن الشكل موجود قبل الإسلام وأسند حجتهُ بادلة وبراهين قاطعة.

ومن المسلمين من يعتقد أن القرآن قديم ومنهم من يقول إنه حادث. ومحدث هذه البدعة درهم بن الجعد، أما المأمون فقد امتحن العلماء القائلين بقدمه ونكل بهم المعتصم من بعده.

٣٥ - آثار الخلفاء الراشدين فى فلسطين

الأبنية التى على رؤوس الجبال قد حولوها مناظر (مناطير) وجعلوها يشرف الواحد منها على الآخر فإذا داهمهم العدو أنذر بعضهم بعضًا نهارًا بالدخان وليلاً بالنار فينتقل الخبر بسرعة كالتلغراف ويأتيهم المدد. ومن آثارهم تأسيس دور الضيافات وفرض عطاء للمجذومين وبناء الجوامع فى القدس ونابلس وبيت لحم وغيرها.

٣٦ - أبطال النهضة الإسلامية

إن جميع النهضات القومية والانقلابات الاجتماعية يتقدمها أعمال تمهيدية تسهل لها النجاح. فالانتباه الفكرى والنبوغ الشخصى ركنا النهضات. وقد نبغ فى الصدر الإسلامى أساطين عظام كان لهم القدح المعلى فى تكوين النهضة الإسلامية والدفاع عنها فجدير بنا أبناء الأمة العربية أن نرفع لهم التماثيل إقرارًا بفضلهم واعترافًا بعظمتهم وتنويهًا بأعمالهم لنشفى بهم النفوس المريضة ونداوى الهمم الضعيفة فنقتصر هنا عَلَى سير من فتحوا فلسطين وكانوا عاملاً كبيرًا فى إحياء الأمة العربية فنقول:

١ - عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب من بنى عدى بطن من بطون قريش وكنيته أبو حفص كان تاجرًا وله السفارة فى الجاهلية فإذا ما اختلفت قريش وقبيلة أخرى انتدبته وحده للمفاوضة ولا حق لسواه أن يشاركه فيها.

كان المسلمون ضعافًا حتى أسلم فاعتز الإسلام به وصحب النبى صلى الله عليه وسلم خير صحبة وكثيرًا ما نزل القرآن بما أشار به وشهد غزوات بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان. ولما ولى الخلافة قال: (اللهم إنى شديد فلينى وإنى ضعيف فقوّنى وإنى بخيل فسخنى إن رأيتم فىّ اعوجاجًا فقوّموه) فأجابه أعرابى قائلاً: لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوّمناه بسيوفنا. فحمد الله الذى أوجد فى قومه من يقوّم اعوجاجه. وهو أول من وضع التاريخ الهجرى وفرض العطاء (رتب الرواتب) ودوّن الدواوين فأسس نظارة المالية والحربية والإعاشة وقسم البلاد إلى مناطق وعين عليها الأمراء ورتب الغزوات فى الشتاء (الشواتى) وفى الصيف (الصوائف) ورتب البريد مجانًا وأمر ببناء البصرة والكوفة وتخطيط شوارعهما بعرض ٢٠ ذراعًا والأزقة بعرض ٧ أذرع وحجر على المجذومين ومنعهم ملامسة الناس.

وأقام العيون (الاستخبارات) يوافونه بالأخبار وعين قاصًا (مفتشًا) يطوف عَلَى المأمورين ويحقق الشكايات سرًا وعلنًا ويحمل إليه ما وجده بالتدقيق. وأسس الحسبة (مجلس البلدية) لمشارفة الموازين والمكاييل ومراقبتها ولمنع الغش وتنظيف الأزقة والرفق بالحيوان فيجازى من حمله أكثر مما يطيق ويهدم البناء المحدث فى مجتمع السوق وحظر على الناس الازدحام فى الطرق وأمرهم أن يستروا الكنف وينحوا مثاعبها عن السبل. وكان إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وكان ديموقراطيًا لا فرق عنده بين الملك والسوقة وحارثة الملك الغسانى جبلة بن الأيهم مع الفزارى مشهورة وقصة عبد الله بن عمرو بن العاص مع القبطى ظهيرة وقوله المأثور (مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحرارًا) فكانت إدارته عرفية شديدة عادلة. كبح جماح الغطرسة البدوية وبنى عليها التساهل الحضرى.

كان يحب التجارة وحرَّض قومه على مزاولتها فقال: (لا تلهكم الرياسة وحبها يا معشر قريش لا يغلبنكم الغرباء على التجارة فإنها ثلث الإمارة) وكان إذا رأى فتى نشيطًا سأل عن حرفتهِ فإن قيل لا حرفة له هان عليهَ وكان يكره الكسول ويكره من يقطف رأسه إلى الأرض وكان يقول للقراء ارفعوا رؤوسكم ولا تكونوا عيالاً على المسلمين كان يكره التنطع فى الدين والولع فى الزهد فأمر

أن يعجل بإفطار رمضان وأن تمشى الناس مشية غيرناكسى رؤوسهم. وكان يقول للحجر الأسود إنى أعلم أنك لا تضر ولا تنفع. ولما أخذ الناس يعظمون الشجرة التى بويع تحتها النبى ﷺ قطعها وفى الحقيقة أنه من أعظم بناة الإسلام ومكونى الأمة العربية. وفى خلافته فتحت سورية والعراق وإفريقية ثم فجع أبو لؤلؤة العرب بقتله.

٢ - خالد بن الوليد

هو من بنى مخزوم بطن من بطون قريش كان قائد فرسان قريش فى الجاهلية (الأعنة والقبة) فلما أسلم أنفذه النبى ﷺ مع سرية زيد بن حارثة لغزو الروم فكانت موقعة مؤتة واستشهد فيها القواد إلى أن رفع المسلمون الراية إليه فأخذها وقاتل حتى اندق فى يده بضعة أسياف فسماه النبى سيف الله المسلول ثم اختاره أمير فرسان (سوارى) المسلمين وأبلى فى فتح مكة البلاد الحسن وهدم صنم العزّى وهو ينشد:

يا عزّ كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

وفى غزوة تبوك بعثه النبى ﷺ إلى اكيدر دومة الجندل فأسره وكان ترسًا وسورًا للمسلمين. وبعد أن قُبض النبى ﷺ وارتد العرب وجهه أبو بكر لقاتلتهم فأسلم بنو طيّء قبل قدومه خوفًا منه ونهد إلى طليحة الأسدى الذى كان قد ادّعى النبوة ففلّ جيشه وهزمه وقصد (أم زمل) فقتلها وتفرق من معها وسار إلى بنى تميم وتخلف عنه الأنصار منتظرين أمر الخليفة فقال لهم خالد (أنا الأمير وإلى تنتهى الأخبار ولو أنهُ لم يأت إلىّ كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعملتُ بها الخليفة فاتئنى لم أعلمه حتى أنتهزها وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد أشاور قومى ثم أعمل. وها أنا قاصد ولست أكرهكم) فسار ثم لحقوه فقتل مالك بن نويرة أمير بنى يربوع وتزوج امرأته فغضب عمر وطلب من الخليفة أن يقتص منهُ فأجابه: ارفع لسانك عن خالد فإنى لا أشيم سيفًا سله الله لقد تأول فأخطأ. واستفحل أمر مسيلمة وادّعى النبوّة ونكب جيش عكرمة وهزم جيش

شرحبيل فرماه أبو بكر بخالد فذهب وقد خاف فرار من معه ففصل الأحياء عن بعضها ليظهر بلاء كل قبيلة عَلَى حدة. وبعد حرب شديدة هزمه وقتله ولما أن هدأت الثورة الداخلية أرسله الخليفة إلى أسفل العراق ففتح الأبلة ثم الحفير وقصد الحيرة فدفع إليه إياس الطائى ٩٠ ألف درهم جزية.

وقدّم إليه الفرس هدايا كبيرة فحسبها من الغنائم وأرسل خمسها إلى أبى بكر. وهزم الفرس عَلَى نهر الثنى وعند الولجة وعَلَى نهر الليبس فأتاه «الدهاقين» وصالحوه وسار إلى الأنبار ففتحها وزحف إلى عين التمر وامتلكها. وقد تضايق القائد عياض بن غنم واستصرخه فأجابه: (من خالد إلى عياض إياك أريد) فسار وهزم أمير دومة الجندل وأخذ الحصن وشرع يتمم فتح العراق إلى أن بعثهُ أبو بكر إلى سورية فأخذ معهُ نصف الجيش ومرَّ بتدمر وأتى المسلمين فى اليرموك فوحَّد قواهم وخطب فيهم وعَبَّى الجيش تعبية فنية وبعد قتال عنيف هزم الرومان ولم يقم لهم بعدها قائمة ثم ذهب إلى دمشق وفتحها وبعد أن عزله الخليفة عمر عن الإمارة العامة دخل صنوف المسلمين كجندى وحارب فى بيسان ورجع إلى سورية فافتتح البقاع وفتح قِنسرين وصالحه أهل حلب وفتح مرعشًا وخرب حصنها حتى لا يعتصم به أهلها.

فدهش أمير المؤمنين من أعماله العظيمة وقال: (عجزت النساء أن تلدن مثل خالد لقد أمَّر نفسهُ يرحم الله أبا بكر كان أعلم منى بالرجال).

ثم استدعاه إليه وترضاه فعاتبهُ خالد بكلام قاس فأجابهُ عمر (ما عزلتك لريبة فيك ولكن اقتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بهم) وكتب بذلك إلى الأمصار وهى أعظم شهادة لحفظ كرامة خالد الذى ثل عرش الأكاسرة ودك أرائك القياصرة ولما ائتهُ الوفاة قال عند احتضاره (لقد شهدت مائة زحفة أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت عَلَى فراشة كما تموت العير فلا قرت أعين الجبناء) وفى الجملة فإنه رجل الإسلام وقامع الردّة وبطل اليرموك ولو أردنا استقصاء أخباره لطال بنا البحث فلنترك تحليل هذه الروح العظيمة إلى نباهة القراء واستنتاجاتهم.

٣ - أبو عبيدة

هو عامر بن عبد الله بن الجراح ويتصل فى فهر بنسب النبى ﷺ الذى لقبه أمين الأمة وهو أحد العشرة الذين بايعوا النبى وفى وقعة بدر كان أبوه مشركًا فتصدى له وهو يحيد عنهُ ثم قتله وهذا من أعظم الإيمان وأثبت المبادىء الصادقة والعقائد المتينة التى لا يحول دونها شفقة ولا حنان وقد اختاره الفاروق قائدًا عامًا لجيوش سورية فقام بوظيفتهِ خير قيام وكان محترمًا فى قومه مستشارًا فيهم رفيقًا بضعفائهم معروفًا بالرأى والدهاء. سلمت إليه طائفة من دمشق صلحًا وحاصر فلول اليرموك فى بيسان وحاربهم فى فحل فأجهز عليهم. وسار إلى حمص ففتحها صلحًا وسلمت إليه معرة النعمان وحماة وامتنع أهل اللاذقية فاحتال عليهم وأمر بحفر سرب فى الأرض يستر الفرس والفارس وأظهر لأهل المدينة أنهم انصرفوا ففتحوا الأبواب وخرجوا فلم يرعهم إلا ظهور المسلمين من كل جانب ودخلوها عنوة وفتح أنطاكية مرتين وكانت مشحونة بالمقاتلة ووضع فيها جيشًا يرابط الأعداء لوقوعها عَلَى الحدود.

ولم تطب نفس هرقل عن الفتح فعاود الكرة وفاجأ العرب بجند كثيف فخطب أبو عبيدة فى قومهِ قائلاً: (أيها الناس هذا يوم له ما بعده أما من حى منك فإنهُ يصفو له ملكه وأما من مات فله الشهادة ولا تكرهوا الموت. فإنهُ خير من حيلة المغلوب).

ولما طعن عمر قالوا له استخلف يا أمير المؤمنين فقال: (لو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته وقلت لربى إن سألنى سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة).

وقد توفى فى طاعون عمواس ودفن فى غور بيسان وله أوقاف كثيرة وبنى مشهده الملك الظاهر بيبرس وأوقف عليه بلادًا وأرضًا واسعة.

٤ - عمرو بن العاص

هو من بنى سهم بطن من بطون قريش وكان يعير بأمه لأنها سبية ولولا هذا الحيف الذى لحقه لزاحم على الخلافة. كان جزارًا وتاجرًا وله مكانة سامية عند قومه لشهرته بالمكيدة واختراع الحيلة وكان يلقب داهية قريش.

تأخر إسلامه ولكن حسنت صحبته وقاد سرية ذات السلاسل وفيها أبو بكر وعمر وكانت ليلة قِرّة–شديدة البرد–فكلمه أبو بكر كى يسمح للعرب بوقود النار فأجابهُ لايوقد أحد منهم نارًا إلا ألقيتهُ فيها فشكوه إلى النبى ﷺ فقال: إنى كرهت أن آذن لهم بوقود نار فيرى عدوهم قلتهم ويعطف عليهم فحمد رأيه وأرسله عَلَى صدقات عمان فلما قُبض النبى أقبل فنزل بقرّة ابن هبيرة فأكرم مثواه ولما عزم على الرحلة خلاَ به قرة وقال: إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة «الزكاة» فإن أعفيتموها من أخذ أموالها تسمع لكم وتطيع وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم فقال له عمرو: (أكفرت ياقرة أتخوفنا بالعرب؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل فى حِفْش[1] أمك).

وأعماله فى فلسطين درجناها ملخصة فلا حاجة لإعادتها. كان شديد التطلع إلى مصر فهوَّن فتحها للخليفة عمر حتى أذن له فسار بأربعة آلاف جندى ثم تبعته النجدات ففتح الفرما وبلبيس وأسر بنت المقوقس فجهزها وأعادها إلى والدها فسر بذلك وصالحه ولكن هرقل رفض الصلح فأقبل المقوقس إلى عمرو وعرّفهُ أن الملك كره ما فعلت وأمر الروم بقتالك ولكننى لا أخرج مما دخلت فيه وإنما سلطانى علىَّ وعَلَى من أطاعنى وارفق بالقبط فإنهم أعوانك فجمع عمرو عدتهِ وهاجم الفسطاط فامتلكه وبث قواده فشرعوا يفتحون المدن والبلدان إلى أن تم له الفتح وقد تألف قلوب القبط فأعاد بطريركهم بنيامين الذى نفاه الرومان إلى منصبه ولم يقتصر عزمه عَلَى فتح مصر فقط بل جهز جيشًا واخترق الصحراء من النيل إلى البحر الأحمر ووصله إلى بركة التمساح. ولما أصاب أهل الحجاز مجاعة عام القحط والرَّمادة طلب منهُ الخليفة زادًا فكتب إليه (أما بعد يا لبيك ثم لبيك قد بعثت إليك بعيرٍ أولها عندك وآخرها عندى والسلام).

وهو الذى أبطل تقديم عروس النيل ولقد وصف مصر فقال: (مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى

---

(١) الحفْش: البيت الحفير القريب السقف من الأرض - والبيت الصغير من بيوت الأعراب – المعجم الوسيط.

الشمس والقمر له أوان يدرّ حلابه ويكثر عجاجه وتعظم أمواجه فتفيض عَلَى الجانبين فإذا تكامل فى زيادته نكص عَلَى عقبة كاول ما بدأ فى جريتهِ وطما فى ردته فيخرج مُحْفِرُوه يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب فبينما هى لؤلوة بيضاء فإذا هى عنبرة سوداء فإذا هى زمردة خضراء فإذا هى ديباجة زرقاء فتبارك الله أحسن الخالقين).

ولما صرفه عثمان عن ولايةِ مصر حقدها عليهِ وحرك لسانه فاعتزل السياسة وسكن الرملة إلى أن حدث الخلاف بين على ومعاوية فكان من أكبر أنصار الثانى وأعظم أعوانه ومستشاره فى صفين وأحد الحكمين الظافر الذى ظل يمهد لمعاوية السبل ويسهل له الصعاب إلى أن أفل نجم على وتكمشت حدوده فأخذ طعمته مصر وتملكها (ومن شاء الزيادة فليراجع ترجمة عمرو بن العاص تأليف حسن إبراهيم حسن).

❁ ❁ ❁

obeikandl.com

الفصل السادس

٣٧ - فلسطين أموية :

بوفاة على بن أبى طالب انقرضت الجمهورية العربية وتبدلت حكومتها الشورورية بملك عضوض. فكان الخلفاء الراشدون لا يرثون الخلافة عن آبائهم بل كانوا يتعينون باتفاق الأمة وإجماعها. وكل من كانت تضعف ثقته بالخليفة يتربص عن البيعة منزويًا فلا يروّع إذا ما خيف شره فإن أضمر خلافًا أو سوءًا يجبر عَلَى البيعة واتباع الجماعة ولكن إذا أنكر من أعمال الخليفة والولاة شذوذًا أو خروجًا عن الشريعة الإسلامية طلب إليهم الرجوع إلى السنة فإن فعلوا سكن مستقيمًا وإلا جاز له خلع الطاعة.

مضت هذه الجمهورية العربية وابتدأت الحكومة الأموية بمؤسسها الكبير والإدارى القدير معاوية بن أبى سفيان الذى لم يكن طموحه إلى الخلافة شرهًا بل كان رجلها الفذّ وبطل بنى أمية الفرد الذين هم كانوا زعماء قريش فى الجاهلية فلما جاء الإسلام عابوه وقاوموه باطلاً فأرغموا يوم فتح مكة على الدخول فيه فترضاهم النبى ﷺ وجعل لهم امتيازات خاصة فقال «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»[1]. وأعطى من غنائم حنين لكل من أبى سفيان وابنه معاوية ١٠٠ بعير ليتألفهم فسموا «المؤلفة قلوبهم» وظل معاوية يتقدم إلى أن صار كاتب وحى النبى ثم اشترك وأخاه يزيد فى فتح سورية ونالا فى خلافة العمرين[2] مكانًا عليًا فوليا إمارة الجند وإدارة البلاد فلما ولى الأمر عثمان وقتل اتخذ معاوية قتله ذريعة لنيل الخلافة وصار يطالب بقتلهِ ويماطل فى بيعة على إلى أنْ فاز عليهِ وبويع له بالخلافة سنة ٤٠هـ فى بيت المقدس. وسنة ٤١هـ بايعهُ الحسن فخلا له الجو ولم يبق له مخالف فاتخذ مدينة دمشق عاصمته لأن أهالى سورية وفلسطين كانوا حزبه القوى وركنه المتين فسكنوا بينهم وتألفوا قلوبهم واقتطعوا الضياع فى

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) المقصود أبوبكر وعمر على التغليب.

فلسطين فأوقف عثمان قريته سلوان عَلَى فقراء بيت المقدس. وعمواس كانت إقطاع يزيد بن أبى سفيان والرملة مركز سليمان بن عبد الملك وكانت شرقى الأردن دساكر خلفائهم فيزيد الثانى توفى فى اربد من أرض البلقاء وسكن الوليد الثانى بعياله وأمواله على ماء الأغدف من نهر الزرقاء وكان يطعم من وفد إليه ثلاثة أيام سواء كان صادرًا من حج أو قافلاً من صائفة. وكان معاوية أول من أحدث ولاية العهد فى الإسلام فبايع إلى ولده يزيد فى حياته فأنكر ذلك نفر من الصحابة الحجازيين وامتنعوا من مبايعته لأنهم ألفوا أن يكون أمرهم بينهم شورى فينتخبون الأفضل والأصلح خليفة لهم فاغدق عليهم معاوية الأموال حتى انصرف بعضهم إلى ملذات الدنيا وطيباتها وأصبحت المدينة مصدر اللهو والطرب رغمًا عما هى عليه من المناخ والإقليم. ولكن البعض أكبر هذا العمل وجثم مستوفزًا فلما قضى معاوية هب الحسين بن على ونزا نزوته فتوجه إلى العراق مشاقًا يزيد فقتله شمر بن ذى جوش (جد عائلة الشمامرة فى قرية طلوزة) وأتى برأسه إلى دمشق فدفن فيها بباب الفراديس وقيل إنه دفن بعسقلان فبنى الملك الأفضل فى خلافة المستنصر العلوى مشهد الرأس عليه ثم نقله إلى القاهرة وبنى له مشهدًا.

نشأ يزيد بن معاوية فى فلسطين مع أمهِ ميسون بنت بحدل وكان شاعرًا مجيدًا فمن شعره

دعوت بماء فى أنا فجاءنى غلامٌ به خمرًا فاوسعتهُ زجرا

فقال هو الماءُ القراح. وإنما تبدَّى بهِ خدى فاوهمك الحمرا

وبعد وفاتهِ بويع لابنهِ معاوية الثانى فكان فى زمنهِ بيعتان إحداهما إليهِ فى الشام والثانية فى الحجاز لعبد الله بن الزبير ولم تطل مدة الأول أكثر من ثلاثة أشهر فإنهُ لما رأى انشعاب المسلمين وأنهُ عاجز عن إصلاحهم جمع الناس وخطب فيهم قائلاً: «أما بعد فإنى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت مثل عمر بن الخطاب حين استخلفهُ أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فانتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم» ثم تغيب حتى مات فهذا عمل الشاب المخلص الذى انقرضت بموتهِ الدولة السفيانية.

اضطربت الأفكار فى سورية وفلسطين واتجهت الأنظار نحو الحجاز فأجمع أمراء سورية على مبايعة ابن الزبير خلاً أمير فلسطين. وهمَّ شيخ بنى أمية مروان ابن الحكم ليبايعهُ مخافة الفتنة فنصحهُ عبيد الله بن زياد وهون عليهِ الصعب وأشار عليهِ أن يطلب الخلافة إلى نفسهِ فاستشرف إليها ونصره أمير فلسطين حسان بن مالك بن بحدل خال يزيد لأن هواه كان فى بنى أمية فدعا روح بن زنباع واستخلفهُ عَلَى فلسطين وقال له: إنى أرى أمراء الأجناد يبايعون لابن الزبير وأبناء قيس بالأردن كثير وهم قومى فأنا خارج إليها وأقم أنت بفلسطين فإن جلّ أهلها قومك من لخم وجذام وسار إلى الأردن فأخذ بيعتهم بشرط أن يجنبهم ابنى يزيد خالدًا وعبد الله لصغر سنهما فثار نائل بن قيس الجذامى وأخرج ابن زنباع من فلسطين فالتحق بالأردن وبايع نائل لابن الزبير فأرسل حسان كتاباً إلى الضحاك بن قيس أمير دمشق يعظم فيهِ حق بنى أمية ويذم ابن الزبير فلم يسمع منهُ فذهب إلى الجابية وقابل بنى أمية وبعد نجوى طويلة بايعوا مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ وذهبوا إلى الضحاك رئيس القيسية فحاربوه فى مرج راهط وظفروا بهِ فبايع من معهُ مروان وفر نائل الجذامى إلى الحجاز واستولى على فلسطين روح بن زنباع فتم الأمر لبنى أمية فى سورية. ثم توجه مروان إلى مصر ففتحها وبايعهُ أهلها ورجع إلى قرية الصبرة «السمراء» قرب طبرية فشكر حسان واثنى عليه وجد فى السير إلى عاصمتهِ دمشق ثم جاء أجله بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنهِ عبد الملك وبعده لعبد العزيز فاعترضت عبد الملك أمور شافة: ثورات داخلية، والخوارج، وشيعة على، ومناظرة ابن الزبير، ومنافسة عمرو بن سعيد، فصبر عليها بعزيمة ثابتة وهمة راجحة وذللها فاحتال عَلَى عمرو وقتله وذهب إلى العراق فقاتل مصعب بن الزبير وقتله وامتلك البلاد ثم وجه سنة ٧٣ هـ الحجاج ابن يوسف بجيش إلى الحجاز ليقضى على ابن الزبير فذهب واحتل المدينة وحصر مكة وخربها بالمجانيق وأضر بالكعبة وقسم حراسة أبواب المسجد عَلَى البلدان فأخذ أهل الأردن باب الصفا وأهل فلسطين باب بنى جُمح وأبلوا فى ذلك الحرب بلاءً حسنًا فلما تفرق عن ابن الزبير أصحابه دخل عَلَى أمهِ واستشارها

هل يسلم إلى عبد الملك ويأخذ منهُ ما أراد فقالت «أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق واليهِ تدعو فامض له فقد قتل عليهِ أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن..» فقال هذا رأيى فقالت أرجو أن يكون عزائى فيك جميلاً إن تقدمتنى احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك فخرج وقتل عظيمًا ومن ثم دانت البلاد لعبد الملك. وسنة ٨٥ هـ توفى ولى عهده عبد العزيز فعهد إلى ابنيه الوليد ثم سليمان فبايع جميع الناس ولم يتخلف إلا الخوارج والمتدينون.

٣٨ - بناء الحرم الشريف :

هو أعظم آثار بنى أمية فى فلسطين ومن مفاخر العرب وشهود حضارتهم ونعم الأثر فإن هندسته ونقوشه وجمال تكوينه تفوق أجمل الأبنية الشهيرة فى الشرق الأدنى.

إن المكان الذى بنيت عليهِ الصخرة كان مقدسًا عند جميع المسلمين لأنهُ من أثر الأنبياء ولأن النبى محمد ﷺ أسرى إليه ليلاً. أما أسباب بنائه فقد ذكر أنه لما عظم الخلاف بين ابن الزبير وعبد الملك وكان كل منهما يطلب الخلافة إلى نفسهِ خشى عبد الملك أن ينصرف عنهُ المسلمون ويبايعوا ابن الزبير لتعلقهم بالكعبة والقبلة فمنعهم الحج «كما قيل» فتذمروا وضجوا فرأى أن يشاغلهم ببناءِ هذا الأثر العظيم حتى إذا حدث ما حذر منهُ سلاهم وطيب خاطرهم بهِ.

فكتب إلى سائر الأمصار يستشيرهم فى بناء قبة على الصخرة المقدسة لوقاية المصلين من حر الشمس وبرد الشتاء ويأخذ رأيهم فى ترميم جامع عمر ابن الخطاب وتحسينه. وقال: إنهُ لا يقدم على عمل خطير كهذا دون مشورة المؤمنين فرضى جميع المسلمين واستحسنوا رأيه فاستعان بمهندسى الروم وصناعهم ورصد للبناء خراج مصر سبع سنوات وعهد بإدارة العمل إلى رجاء

ابن حيوة الكندى ويزيد بن سلام فبنيا أولاً قبة السلسلة الكائنة شرق الصخرة لتكون نموذجًا وخزَّنا فيها كل الأموال وفرغا من عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى سنة ٧٣ هـ وسنة ٦٩١ م وقد فضل مع الوكيلين ١٠٠.٠٠٠ دينار فاخبرا الخليفة فسمح لهما بها مكافأة فرفضا ذلك. فأمر أن يصهر الذهب وتموه بهِ القبة والأبواب وقد يرى الآن كتابة كوفية جميلة حول قبة الصخرة من عهد عبد الملك تدل عَلَى تاريخ البناء ولكن المأمون لما أمر بترميم المسجد تقرب إليهِ عماله المتزلفون فاستبدلوا اسم الخليفة الأموى باسمهِ وغفلوا عن تغيير السنة التى حدثت فيها العمارة. أما الحرم الحالى فليس جميع بنائه أمويًا وإنما طرأ عليهِ تغيرات كثيرة بسبب الزلازل والانقلابات السياسية وكر القرون فالذين رمموا الحرم وأضافوا إليهِ زيادات كثيرون منهم العباسيون ففى سنة ١٤٦ هـ وسنة ٧٥٥ م فى خلافة أبى جعفر المنصور حدث زلزال شديد فتصدع جانبًا المسجد الأقصى الشرقى والغربى فأمر بضرب ما كان عَلَى أبوابه من الذهب والفضة نقودًا لينفقونها عَلَى ترميمهِ وفى عهد المهدى أصابه زلزال آخر فأمر بإعادة بنائه وغير شكله فقلل طوله وزاد فى عرضهِ ولما زار المأمون سورية وفلسطين أمر بترميم بعض بنايات الصخرة وسنة ٣٠١ هـ أمرت أم المقتدر العباسى بصنع أبواب قبة الصخرة من خشب التنوب «كالصنوبر» (يكثر فى جزيرة جاوا) وسنة ٤٠٧ هـ و سنة ١٠٣٤م فى خلافة الحاكم بأمر الله سقطت قبة الصخرة الكبيرة وقسم كبير من سور الحرم فرممت فى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى وكذلك عمرّ فيها صلاح الدين والمماليك والسلطان محمد بن قلاوون وملوك آل عثمان سليمان وعبد العزيز وعبد الحميد.. إلخ. وقد طرأ عليها وهن سنة ١٩٢٢م وسنة ١٣٤٠هـ واستدعى لإصلاحها المهندس التركى كمال بك وقد قدر ما يلزمها من النفقة بمبلغ باهظ جدًا.

٣٩ - وقائع الدولة الأموية :

أجمع المسلمون عَلَى بيعة الوليد بن عبد الملك وتخلف الفقيه سعيد بن المسيب وحاول حاكم المدينة إكراهه فلم يفلح. ولما حج الخليفة أخرجوا كل من فى

المسجد ولم يتجرأ أحد من الحرس أن يتعرض إليه فقيل له: لو قمت قال لا أقوم حتى يأتى الوقت الذى كنت أقوم فيه. فقيل: لو سملت عَلَى أمير المؤمنين قال: لا والله لا أقوم إليه. قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالخليفة فى ناحية المسجد لئلاً يراه فالتفت الوليد فرآه فقال من ذلك الشيخ أهو سعيد قال: عمر نعم واعتذر عنه بعجزه وضعف بصره فدار الخليفة فى المسجد حتى أتاه فقال كيف أنت أيها الشيخ؟ فما تحرك بل قال بخير. فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ فانصرف وهو يقول هذا بقية الناس. وفى خلافته هرب يزيد بن المهلب من الحجاج وقدم فلسطين فنزل عَلَى وهيب بن عبد الرحمن الأزدى فأخذه إلى سليمان بن عبد الملك فى الرملة وتشفع فيه ونجاه وبعد وفاة الوليد أتت البيعة لأخيهِ سليمان وهو فى مدينة الرملة فبايعهُ الناس وهو على سطوح الصخرة وهمّ أن يحول عاصمته من دمشق إلى الرملة أو القدس ثم عدل. ولما استخلف عمر بن عبد العزيز أبطل سب عَلِيٍّ عَلَى المنابر وأمر كل العمال أن يضعوا مكانه ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1] فقال كثير:

وليت فلم تشتم عليًا ولم تخف بريئًا ولم تتبع مقالة مجرم

وأمر بإنشاء الخانات فى البلدان القاصية لإعالة مارة المسلمين والتعهد بدوابهم فيطعمون ويقرون يومًا وليلة ومن كانت به علة يبقى إلى أن يشفى. ولما بويع الوليد الثانى كان مقيمًا فى البرية فافتتح أعماله بنفى سليمان بن هشام إلى عمان انتقامًا منه بما فعله معه أبوه. وتبذّل كثيرًا ففسدت أحكامه وعكف على الشراب وجاهر به وانغمس فى الطرب والموسيقى واقتناء الكلاب المطوقة بقلائد الذهب. وانتهك حرمة القرآن. فأكبر ذلك العرب والمتدينون ونفر بنو أمية منهُ وتناجى أمراء قبائل فلسطين وأقروا عَلَى خلعهِ ومبايعة سواه فراودوا يزيد بن الوليد الأول فأجاب طلبهم وظل متكتمًا إلى أن انتشر الوباء فى الشام فخرج العباس بن الوليد

(١) سورة النحل الآية ٩٠

إلى القسطل وأخوه يزيد إلى بادية الأردن وأخذ يدعو إلى نفسهِ ويبايع النـاس سـرًا فعلم أخوه العباس وقال:

إنـي أعيذكـم بالله مـن فتـن ... مثـل الجبـال تسـامى ثـم تندفـع
إن البرّيـة قـد ملـت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعـوا
لا تلحمـن ذئـاب النـاس أنفسكم ... إن الذئـاب إذا مـا الحـمت رتعوا
لا تبقـرنَّ بأيديكـم بطونكـم ... فثـم لا حسـرة تغنـي ولا جـزع

وتهدد أخاه وانذره بالسجن أو يرسله إلى الخليفة إن لم يقلـع عـن عملـه. فلـم يعقه هذا التهديد وسار إلى دمشق الشام خلسة واحتلها وبايعهُ جميع أهلها وضبط الأموال والخزائن وتوافد عليهِ أعوانه فقدم أهالى جرش من فلسطين وغـيرهم وكـان الوليد عَلَى ماء الأغدف فى ضياعه نافرا من الوباء فغضب وسير جنـدًا إلى دمشـق فانضموا إلى يزيد ثم سار بنفسهِ فالتقى العسكران وأسفرت المعركة عن قتـل الوليـد فحنق أهل حمص وخالفوا يزيد وبعد معركة خذلوا فيها بايعوا له. وقد وثب أهالى فلسطين بتحريض سعيد وضبعان ولـدى روح بـن زنبـاع عَلَـى عاملـهم سـعيد بـن عبد الملك فأخرجوه وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك الـذى كـان سـجينًا بعمان فدعـاهم إلى قتـال يزيـد فأجـابوه لأن أهـالى فلسـطين كـانوا ميـالين لأبيـه. ولما بلغ أهل الأردن ما فعل أهل فلسطين ولوا عليهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا معهم على قتال الخليفة يزيد الثالث فعرف بهم الخليفة وسير إليهم سـليمان بـن هشام فاطمع سعيد وضبعان بنى روح وبذل إليـهما المـال ومناهمـا بالولايـة فرحـلا بأهل فلسطين. وبقى أهل الأردن فنهب سليمان قراهم فغضب أهل طبرية ونـهبوا دواب وسلاح يزيد بن سليمان ومحمد بن عبـد الملك ولحقـوا بمنـازلهم وبلدانـهم فسار سليمان ونزل فى قريـة السمراء «قـرب طبريـة» فاتـاه أهـل الأردن وبـايعوا يزيد بن الوليد ثم ذهب إلى طبرية فصلى بها الجمعـة وبـايع مـن بـها وتوجـه إلى الرملة فأخذ البيعة عَلَى من بها واستعمل ضبعان بن روح على فلسـطين وإبراهيـم ابن الوليد على الأردن.ولكن هذا الانقلاب لم يفد الأهالى شيئًا بل أطمع فى الدولة الطامعين فأنكر مروان بن محمد عمل الخليفة وفظعه. ولما مـات يزيـد قـام بـالأمر

بعده أخوه إبراهيم فزحف مروان إلى الشام وفتحها وبويع له ولكن الملكة كانت فوضى فخرج ثابت بن نعيم بأهل فلسطين وأتى طبرية فحصر عاملها الوليد بن معاوية بن مروان وقاتله أهلها أيامًا فهزموه واستباحوا عسكره فارتد مخذولاً فتبعه القائد أبو الورد وهزمه ثانية فتفرق أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان واستعمل الخليفة على فلسطين الدماعص بن عبد العزيز الكنانى فظفر بثابت وبعثه إلى مروان فأمر به وبأولاده الثلاثة فطقعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا. فامتعض أهل حمص وخلع سليمان بن هشام مروان وبعد معركة انخذل جيشه وهزم وظلت البلاد فى قلاقل إلى أن أعلنت الدعوة العباسية واصطدم الجيشان العباسى والأموى فى وقعة الزاب «قرب الرقة» العظيمة التى هدم بها ملك وقام ملك. فجالد بنو أمية حتى خروا صرعى وكان أحد شبانهم يتمثل:

اذل الحياة وكره الممات وكلاً أراه طعامًا وبيلاً

فان لم يكن غير إحداهما فسيرا إلى الموت سيرًا جميلاً

وفر مروان بن محمد إلى فلسطين فنزل نهر أبى فطرس «العوجاء» فوجد الحكم ابن ضبعان الجذامى قد تغلب عليها. فاستجار بعبد الله بن يزيد بن روح الجذامى فأجاره ولكن عبد الله بن على كان يقفو أثره ففتح دمشق وجاء إلى فلسطين فنزل على الأردن ثم بيسان ومرج الروم. فلقيه أهل الأردن وقد سوّدوا فأتى نهر أبى فطرس وأقام فى فلسطين وأرسل بعثاً إلى مصر خلف مروان بقيادة صالح بن على فحاربوه وقتلوه فى قرية أبو صير أما عبد الله بن على فإنهُ تتبع أولاد الخلفاء ووجهاء بنى أمية فقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبد الملك وأسر من وجدهم وبطش فيهم فقتل ٨٣ رجلاً عَلَى نهر العوجاء فخاف أعوان بنى أمية فبيَّض حبيب المرىّ أحد قواد مروان وفرسانه وخلع بيعة بنى العباس ووافقه أهل حوران والبلقاء والقيسية وبعد قتال أخذ الأمان لنفسهِ ولقومهِ ثم انتقض أهل حمص وبعد محاربة أخفقوا فيها دخلوا فى الطاعة وبيّض أهل دمشق فعاد إليهم فثابوا إلى رشدهم بلا قتال وبيّض أهل الجزيرة وقادهم إسحق بن مسلم العقيلى وهو يقول فى عنقى بيعة لا أدعها حتى أعلم أن صاحبها مات، فلما تيقن أن مروان قتل طلب الصلح والأمان. فانتقال الحكم من دولة إلى دولة أو نزعه من يد

إلى يد ليس بالأمر السهل بل يعقبه انقلابات وثورات عقلية واجتماعية كبيرة وخطيرة.

لم ينفع تعصب مروان إلى النزارية فإنهم خذلوه لما غلب عَلَى ملكه فوثب أهل قنسرين بساقته وخانه الحارث بن عبد الرحمن الحرشى فى دمشق ووثب به هاشم بن عمر العنسى والمذحجيون فى شرقى الأردن وعندما مر بفلسطين وثب عليه الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع واستقبل جميع القوم الحكومة الجديدة بكل ترحاب.

٤٠ - محدثات بنى أمية وميزاتهم :

كانت دولة بنى أمية عربية تتعصب للعرب وتحتقر سواهم فرغب ملوكها فى الحضارة ولم يجمدوا ونسوا البداوة وسارعوا إلى اقتباس ما حسن عندهم وتكيفوا بحسب الأحوال فأحدثوا ولاية عهد الخليفة وهو حى وقسموا إدارة البلاد إلى أمصار وكل مصر إلى أقسام. فالشام حاضرة وأمصارها فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين. ومن آثارهم المجيدة فى فلسطين قبة الصخرة وإطلال سرايا سليمان بن عبد الملك فى الرملة مكان دار الحكومة اليوم وأشياء زهيدة أعرضنا عنه لقلة أهميتها. لم تعمر الدولة الأموية طويلاً وعجل على سقوطها أسباب هامة منها.

١ – تعدد ولاة العهد فى آن واحد فكانوا يتنافسون فى الخلافة فينبت الشقاق بينهم ويطمع كل واحد فى الوصول إليها ومن نالها سعى بخلع أخيهِ أو ابن عمه ليحرمه منها ويورثها بنيه فيمتنع الثانى ويقضى امتناعه إلى العداء والتنازع فتتشعب الآراء وتفسد البلاد.

٢ – العصبية الجاهلية : فقد نبضت فى وقعة مرج راهط وانشطر العرب إلى قيس ويمن وتأجج نارها فى خراسان فكان كلما تعين وال من حزب يقضى على الحزب الآخر.

٣ - ميل بعض الخلفاء ورغبتهم فى طمس آثار السلف كما فعل سليمان بن عبد الملك بقواد أخيه الوليد حتى خثرت النفوس الطامحة وفترت الهمم النازعة

وضعفت آمال الأمراء بخلفائهم ولم يخلصوا لهم فثارت البغضاء ونما الكره فى صدور الأمة فانتكثت الوحدة وانقسمت المملكة إلى حزبين سياسيين لا همَّ لاحدهما إلا القضاء على الآخر وتغاضوا عن الدعوة العباسية التى كانت تنتشر بنشاط وسرعة.

٤ – احتقارهم الاعاجم والحط من قدرهم مما جعلهم يحقدون عَلَى هذه الدولة لما لحقهم من الذل والصغار فكانوا يلتفون حول كل ثائر ليضعفوها ويهدموها ويبنوا غيرها عله يكون لهم فيها حظ وافر.

٥ – تولية الخلافة لغلمان ليسوا أكفاء فى العقل والتدبير وسياسة الدول.

٦ – انتشار « البروباغندا » بأن أهل البيت هم أهل الملك وبنو أمية «مغتصبوه».

٧ -- انفصال أجزاء المملكة عن بعضها البعض فوسائط النقل قليلة والمخابرة بعيدة والتجنيد بسيط وأطراف المملكة ممتدة فإذا حدث فتق فى الهند كان لا يصل خبره إلى الشام إلا بعد شهور فلو جهزوا إليها حملة لما وصلتها إلا بعد سنة فصعب عليهم ضبط الثغور لعدم ارتباط العاصمة بها. أما القبائل التى سكنت فلسطين والأردن فكثير: منها جذام التى نبغ منهم موسى بن نصير فاتح الأندلس وروح بن زنباع وبقاياهم بنى صخر والعطاونة فى الكرك، ولخم ومنهم بنى عقبة فى التياها والمسعودى، وتنوخ ومنهم عرب السردية والفحيلى فى تل كلخ، وغسان وبهراء وبلى منهم البلاونة فى بنى صعب والسبع وغور بيسان وكلب ومنهم الشرارات. وقضاعة ومنهم العزازمة. بكر، السكاسك، قيس، الأزد، تغلب، طى.

(٤١) بعض أبطال الدولة الأموية :

١ – معاوية بن أبى سفيان

هو رأس الدولة الأموية وبانى أركانها. كانت تلوح عليهِ مخايل الشجاعة من صغره فمر به رجال فقال أحدهم «سيسود هذا الغلام» فقالت أمه هند «ثكلته أمه

إن لم يسد غير قومه». اختاره النبى ﷺ لكتابة وحيه وعيّنه أبـو بكـر قـائدًا فـى فتـح سـورية وامّـره عمـر ففتـح قيسـارية وعسـقلان ويافـا واسـترجع أكـثر البـلاد الساحلية بعد أن كر عليها الروم ثانية فى أواخر خلافة عمر. وظل يـترقى إلى أن استوثقت له أحكام سورية وفلسـطين ثـم بويـع بالخلافـة فصـانع رؤسـاء العـرب وداراهم وترضاهم ونظم البريد وقسم الطرق إلى منـازل وجـهزها بالرجـال والـدواب لاستلام ما يردهم وإيصالـه إلى مـن بعدهـم ولقـد احـدث السياسـة والتسـاهل فـى الأحكام الشرعية فاتخذ الحرس وأنشأ أبهة الملك وعمـل ديوان الخـاتم «تغليـف الرسائل» وأنشأ أسطولاً بحريًا مؤلفًا من ١٧٠٠ قطعة ورتب له أميرًا وجعـل يغـزو الروم برًا وبحرًا وحصر القسطنطينية وكاد يفتحها لولا النار الإغريقية ورأى تطلـع الناس إلى الخلافة وخاف حدوث الفتنة فبايع لابنهِ يزيـد وأحـدث ولايـة العـهد وتبعه من بعده وكان يقول: « لـو كـان بينـى وبـين النـاس شـعرة مـا قطعـت إذا شدوها أرخيتها وإن أرخوها شـددتها». وكـان عمـر بـن الخطـاب يقـول تذكـرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاويـة ومـن قولـه: «إنـى لأرفـع نفسـى مـن أن يكون ذنب أعظم من عفـوى وجـهل أكـبر مـن حلمـى وعـورة لا أواريـها بسـترى وإساءة أكثر من إحسانى» وقال: «أحب الناس إلى أشدهم لى تحببًا إلى الناس».

وقد كتب إلى على بعد وقعة صفين: «أما بعد فلو علمنـا أن الحـرب تبلـغ بنـا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض وإنا وإن كنا غلبنا عَلى عقولنا فقد بقى لنا ما نرد به ما مضى ونصلح به ما بقى وقد كنت سألتك الشـام علـى ألاّ تلزمنـى لك طاعة وأنا أدعوك اليوم إلى مـا دعوتـك إليـه أمـس فـإنك لا ترجـو مـن البقـاء إلا ما أرجو ولا تخاف من القتل إلا مـا أخـاف وقـد والله رقـت الأجنـاد وذهبـت الرجال ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعـض فضـل يسـتذل بـه عزيـز ويسترق به حرٌ والسلام».

٢ - الحجاج بن يوسف «كليب»

هو من قبيلة ثقيف كان معلم مكتب الطائف ثم التحق بروح بن زنباع الجذامى وزير عبد الملك إلى أن فسد جند الخليفة فأصبحوا لا يرحلون برحيلـه ولا ينـزلون

بنزوله فأشار عليه روح بتوليه الحجاج أمر العسكر فقلده إياه فالزم الجيش الطاعة وجبرهم على محافظة النظام فتأخر يومًا أعوان روح بن زنباع فجاءهم وهم على الطعام فوقف عليهم وقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين فقالوا له: انزل يا ابن اللحناء فكل معنا فقال لهم هيهات ذهب ذلك. ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوّقهم فى العسكر وأحرق فساطيطهم ففزع روح إلى عبد الملك وشكاه فقال له: علىَّ بهِ فلما دخل قال له «ما حملك عَلَى ما فعلت» فأجابه أنا ما فعلت بل أنت فعلت إنما يدى يدك وسوطى سوطك وما عَلَى أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين وعوض الغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدّمنى له فاعجب به وتقدَّم فى منزلته وكان ذلك أول ما عرف من كفايته.

حارب ابن الزبير وآلى ألاَّ يشلح السلاح . . . . . ولا يتطيب حتى يظفر به وحصره ورمى الكعبة بالمنجنيق فأرعدت السماء فاعظم ذلك أهل الشام فأخذ الحجارة ووضعها بيده فى المنجنيق ورمى بها وقال «يا أهل الشام لا تنكروا هذا فإنىّ ابن تهامة وهذه صواعقها وهذا الفتح قد حضر» ولما عين عاملاً عَلَى تبالة فى اليمن ذهب وسأل عنها فقيل له: إنها خلف هذه القلعة فرجع قائلاً: «لا بارك الله فى مدينة تسترها ذروة».

ولما شمخ أهل العراق وخشنوا عين إليهم فذهب باثنى عشر راكباً ودخل الكوفة وبدأ بالمسجد فصعد المنبر وأعلن الحكم العرفى بخطبتهِ المشهورة التى منها:

يا أهل الكوفة إنى لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى. . . إلخ وانساق له العراق وبنى مدينة واسط التى دفن بها وهو من الذين وطدوا الملك لبنى مروان وأخباره طويلة يرجع إليها فى المطولات. فهو بالإجمال من أعظم قواد الفتوح وولاة البلاد والجيوش.

٣ - موسى بن نصير اللخمى

كان شجاعًا تقيًا لم تهزم له راية ولىّ إفريقية فصرف همته فى تعريب البربر وإدخالهم فى الدين الإسلامى فغزاهم وقهرهم وأتم بلادهم فتحًا ثم أرسل مولاه

طارقًا إلى الأندلس فاجتاز البحر ثم حرق السفن وخطب قائلاً «اين المفر! ! البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا ا لصدق والصبر واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مآدب اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشهِ وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ولا أقوات لكم غير ما تستخلصونه من أيدى أعدائكم» ثم لحق به فاكمل البلاد وتم له النصر ونقل الدين الإسلامى إلى قارة أوروبا ولكن سليمان بن عبد الملك قابل أعماله الجليلة بالإساءة والكفران فعزله عن جميع أعماله وحبسه وأغرمهُ مالاً كثيرًا. ومن قواد الأندلس عبد الرحمن الغافقى الذى اخترق جبال البيرينية وأوقع بالافرنسيين فى سهول بواتيه وكانت هذه المعركة الفاصلة لتقهقر العرب من الأندلس بعد حين.

٤٢ - الدعوة العباسية :

لم يقم من بنى العباس من يطالب بالخلافة ولم تطمح أنظارهم إليهم فنسيتهم الأمة ولم يتشيع لهم أحد فقضوا أوقاتهم بمعزل عن الحركات السياسية حتى سنة ١٠١ هـ إذ وفد عبد الله بن محمد بن الحنفية عَلَى الخليفة سليمان بن عبد الملك فخافه وأرسل إليه من سمه فى الطريق فلما قصد الحميمة(*) قرية محمد بن على العباسى عاذ به العلوى وبايعه وعهد إليه بالخلافة ومن هنا ابتدأت الدعوة العباسية. وقد تطورت فى دورين الأول، دور الدعوة وهو من سنة ١٠١هـ - سنة ١٢٩ هـ نشرت فيه محبة آل البيت ومساوئ بنى أمية بتأن وتريث والثانى دور العمل وفيه أعلنت الدعوة وجُهر بها.

عرف العباسى أن كل محاولة فجائية يعقبها الخسران وأن هدم الدول وتأسيسها ليس بالعمل السهل وخشى إن هو أعلن اسمه أن ينفض من حوله دعاة العلويين فكتمه وأمرهم أن يدعوا إلى الرضى من آل محمد فقط ووجههم إلى خراسان فأسسوا جمعية سرية ذات فرعين الفرع الأول النقباء وهم اثنا عشر والفرع الثانى المبشرون وهم سبعون رجلاً يطوفون البلاد ويثيرون الناس ضد بنى

(*) هى الحميمة عند طبرية على الطريق الحجازى والعراقى. كانت قرية حقيرة أقطعها الوليد بن عبد الملك إلى محمد بن على بن عبد الله عباس واسكنه إياها

أمية واتخذوا موسم الحج مؤتمرًا عامًا يتداولون فيهِ الآراء وكانوا كلما اعترضتهم عقبات ذللوها حتى سنة ١٢٠ هـ فعظم الخلاف بين المضرية والنزارية فتنفست الشيعة وجدّت فى أمرها وفى سنة ١٢٩ أعلن أبو مسلم الدعوة ولبس هو ومن معه السواد شعار العباسيين ونشروا الرايات السود «الظل والسحاب» فعرف بهم نصر بن سيار فكتب إلى مروان بن محمد يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكو ... وإن الحرب مبدؤها كلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام

فأجابه اقطع هذا الثألول ولم يعبأ به. أما أبو مسلم فأخذ يتقدم ويفتح البلدان ويرسل قواده فيستولون بسرعة على إقليم بعد إقليم حتى استوثقت له خراسان ولا أحد يعلم لمن هى الدعوة إلا المبشرون بها إلى أن وقع كتاب إبراهيم الإمام فى يد الخليفة مروان فأرسل إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامل دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكداد والحميمة من يأخذ إبراهيم ابن محمد ويرسله إليه ففعل وأخذه من مسجد القرية وهو ملفف وحمل إلى الوليد فبعث به إلى مروان فحبسهُ فى حرّان فاثبت وصيته إلى أخيه أبى العباس السفاح ودفعها إلى مولاه سابق الخوارزمى وأوصاه أن يقوم بالدولة وألاّ يلبث بالحميمة بل يتوجه إلى الكوفة فأخذ أبو العباس أهل بيته وسار إلى الكوفة وسنة ١٣٢ هـ ظهر أبو العباس ولقب بالسفاح وأخذت له البيعة علناً فى المسجد من الصباح حتى جنهم الليل وظل نجمهم يشرف ونجم بنى أمية يغور حتى قتل مروان ومكوا جميع الأقطار.

ومن تأمل فى فوز العباسيين وهم جمعية بسيطة على بنى أمية وهم أصحاب الحكومة والدولة والجند والخراج يأخذه العجب ويستغرب كيف تم لهم ذلك ولكن لو عرف أن هذه الجمعية كانت منظمة ورجالها مخلصون وأن كل جديد مقبول وكل قديم منفور لزال عجبه واستغرابه.

الفصل السابع

٤٣ - فلسطين عباسية :

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وهم الذين نهضوا على بنى أمية فاستأصلوا دولتهم من الشرق وبنوا دولتهم عَلَى أنقاضها فاخضعوا العصبية العربية وأذلوا مضر وعززوا نفوذ الأعاجم الذين استبدوا بالأحكام فأصبحوا هم الملوك والعرب أسراهم.

تشكلت الدولة العباسية وبعثت ولاتها إلى الأمصار فكان وإلى سورية وفلسطين عبد الله بن على ثم ضمت الأردن إلى دمشق وتعين صالح بن على حاكمًا على فلسطين والبلقاء تحت إمرة عبد الله بن على وكلاهما عباسى فظل تابعًا له حتى خرج عبد الله على المنصور وُغلب فتعين صالح إلى مصر.

وقد امتازت الدولة العباسية عن سواها بإقبالها عَلَى العلم وترجمتها الكتب العلمية والفلسفية ونشرها فى الأقاليم وتحسين المعارف ومساعدة المؤلفين وإدرار النفقات عليهم وتشويق الأدباء وتشجيعهم الناس للإقبال عَلَى حرفة الأدب.. الخ.

وقد عامل هرون الرشيد نصارى فلسطين معاملة حسنة فسمح للإمبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة العذراء حيث يقوم على آثارها كنيسة الدباغة وبجانبها دير يأوى إليه زوار اللاتين وفى سنة ٧٩٦ م أهدى إلى شرلمان ساعة وفيلاً وأقمشة نفيسة وأرسل إليه مفاتيح كنيسة القيامة وتعهد إليه بحماية حجاج المسيحيين الذين يأتون لزيارة القدس.

وفى زمن خلافتى المأمون والرشيد زهت الدولة العباسية وأضاء عصرها الذهبى سياسة وآدابًا وعلمًا لأن مملكتهما امتدت من الأندلس وشمال إفريقية إلى شمال البحر الأسود والصين ونصف الهند ومن جزيرة العرب إلى حدود أنقرة فكثر

العلماء والأدباء فى أيامهما وترجمت كتب الطب والفلسفة والهندسة والجغرافيا إلخ. فكانت بغداد مهد الأدباء والعلماء وعش الجامعات ومعارض الكتب والمكاتب.

وفى سنة ١٨٦ هـ هاجت فتنة بدمشق بين المضربة واليمانية وسببها أن رجلاً من بنى ألقين خرج بطعام له يطحنه فى الحى بالبلقاء فمر بمقثأة لرجل لخمى فتناول منها بطيخة فشتمه صاحبها فتضاربا وانحاز لكل منهما قومه فكبر الخطب وقتل رجل يمنى وتداولوا الصلح بينهم فأبى اليمانية وجمعوا أمرهم وغزوا بنى ألقين فقتلوا منهم ٣٠٠ شخص فثاروا واستنجدوا قيسًا فأجابوهم وساروا معهم إلى الصواليك من أرض البلقاء فقتلوا من اليمانية ٨٠٠ شخص فتحزبت الحكومة إلى اليمانية وساعدتهم فانتصر عليهم أبو الهيذام زعيم المضربة وفرق جموعهم وفى سنة ١٧٧ هـ استعلت عليه الحكومة وبددت جمعه فنامت الفتنة ثم هاجت ثانية فتلافاها الرشيد وأصلح بينهم.

وقد أقطع المأمون أخاه المعتصم «أبا إسحق» الشام ومصر وفرض عَلَى دمشق وحمص والأردن وفلسطين ٤٠٠٠ جندى يقدمونها لغزو الصائفة وقطع للفارس ١٠٠ درهم راتبًا شهريًا وللراجل ٤٠ درهمًا. وفى سنة ٢٢٧ هـ سنة/ ٨٤٢ م خرج أبو حرب المبرقع عَلَى المعتصم واعتصم بجبال الأردن. وسبب مخالفته، أن بعض الجند أراد النزول فى بيتهِ وهو غائب فمنعتهُ امرأته فضربها الجندى بسوط فأصاب ذراعها. فلما رجع إلى منزله شكت إليهِ ما فعل بها الجندى فاخترط سيفهُ وقتله ثم دعا رؤساء قومه فاستجابوا له والتفوا حوله ومنهم ابن بيهس المطاع فى قومهِ فأرسل إليهِ المعتصم رجاء بن أيوب الحضارىّ بجيش زهاء ألف رجل. فلما رآه فى عالم كثيرة كره مواقعته وتربص حتى جاء موسم الزراعة فانصرف من معهُ من الزراع إلى أشغالهم وبقى فى نفر قليل فناجزه رجاء ثم أخذه وابن بيهس اسيرين. ومن أمعن النظر فى هذه الثورة وجد أن سببها الظاهرى غير كاف لإعلانها لأنهُ ليس من السهل أن يدعو الناس رجل بسيط فيلبيهِ جمع غفير ويحارب لأجله الحكومة ذات الحول والطول ولكن الحقيقة هى أن الخليفة

المعتصم استكثر من الجنود الأتراك فعبثوا بعادات البلاد وطبائع أهلها فسخط العرب عَلَى الخليفة وحكومته تعصبًا وغيرةً إلى أن نهض أبو حرب فشجعوه ونصروه. فلو لم تكن الغاية واحدة والكره مستحكمًا فى نفوس الجميع لما اتفقوا عَلَى خلع طاعة المعتصم الجانى على العرب والحكومة العباسية باستكثاره من أخواله الأتراك فى بلاطه ومنحهم السلطة الواسعة حتى تحكموا فى الدولة واستبدوا بالملك واستأثروا بالأموال فكان منهم الجند والقواد والولاة وأصبح العرب وهم أصحاب البلاد غرباء والأتراك وهم الدخلاء حكام البلاد.

وفى سنة ٢٥٢ هـ عقد لعيسى بن الشيخ سليل الشيبانى على الرملة فانفذ خليفته ابا المغراء واستولى على جميع فلسطين وتغلب عَلَى دمشق وأعمالها واستبد بالأموال وقطع ما كان يحمل للخليفة. فذهب سنة ٢٥٦ هـ إليه أماجور وقتل ابنه منصورًا وأخذ منهُ دمشق. ولم تدم عظمة الدولة العباسية طويلاً لأنها أسست من عناصر مختلفة متباينة الميول والطبائع والأخلاق فاستهوى الخلفاء مواليهم ورقوهم من حارس ووصيف إلى قائد وأمير فلم يخلصوا إليهم ولم يرعوا هذه النعمة ولم يحفظوا ذاك الجميل وأنكروا حسن الولاء فسلبوا الخلفاء أبهة الملك وجلالته وسيطرته وأبقوا اسمه فأصبح الخليفة آلة فى يدهم محدود النفوذ محجوز الإرادة ضعيف القوة فإذا ما حنقوا منهُ أو توسموا فيه الحزم أو النزوع إلى الاستقلال خلعوه أو سملوا عينيه وقد شعر المتوكل بنفوذ الأتراك والأعاجم فهم بنقل العاصمة من بغداد الفارسية التركية إلى دمشق العربية تخلصا من جورهم وفرارًا من غطرستهم فانشده يزيد المهلبى:

أظن الشام تشمت بالعراق ... إذا عزم الإمام عَلَىَ انطلاق

فان تدع العراق وساكنيها ... فقد تبلى المليحة بالطلاق

وقيل انهُ اسنوبأ دمشق وتركها فرجع إلى العراق والأصح أنهُ خشى نفوذ الأتراك وتخوف ان يخلعوه إن لم يدارهم فصدق ظنه وقتلوه فى بغداد وقد تمادوا فى العسف والاستبداد فاحتقروا الخلفاء واسنصغروهم وسلبوهم حريتهم الشخصية حتى قال الشاعر:

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وقد شددوا فى الحجر على الخليفة المعتمد فكان يطلب الدرهم فى خزانته فلم يجده فقال:

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعًا عليهِ

وتجبى باسمهِ الدنيا جميعًا وما من ذاك شىءٌ فى يديه

ومن تبصر قليلاً ورأى كيف أن الدخيل ينزل البلاد معدما لا يملك شيئًا فيمتص الدماء ويختلس الأموال ثم يحكم الرقاب عرف أن كل أمة لا تسهر عَلَى مستقبلها ولا تحافظ على كيانها فمصيرها إلى الدمار.

الفصل الثامن

٤٤ - الدولة الطولونية من سنة ٢٥٤ هـ- سنة ٢٧٠ هـ أو سنة ٨٦٨م - ٨٨٣ م :

تنتسب هذه الدولة إلى طولون الغلام التركى الذى أهداه نوح بن أسد السامانى عامل بخارى إلى المأمون فلم ينل ملكًا ولكن ولد له غلام فسماه أحمد وقيل: إنهُ تبناه ورباه تربية عربية.

وقد نشأ عظيمًا أديبًا يتقن اللغة العربية كأبنائها وساعده استعداده الفطرى وسما بهِ جده فقدم مصر نائبًا عن الأمير باكباك ودفعته مقدرته السياسية إلى أن صار واليًا لمصر فسعى إلى الاستقلال الداخلى وأكثر من الجند والحشم وقرب العلماء والقراء وبنى جامع ابن طولون فى مصر ورتب الصدقات والمبرات فاستمال الناس واجتذب قلوبهم ولما علم وتيقن أن الدولة العباسية ضعيفة وقد أنهكتها غارات الثوار الداخلية وفتنة الزنوج العظمى طمع فيها وقطع إرسال الخراج إلى الخليفة المعتمد غير وجل واعتز بنفسهِ فأغار على فلسطين سنة ٨٧٨ م وضمها إلى دولتهِ وعين واليًا للرملة. فاتسع ملكه حتى جاوز نهر الفرات وبنى قلعة يافا القديمة وحاول الاستيلاء عَلَى مكة فلم يفلح. ثم قطع خطبة ولى العهد الموفق لمنافسة كانت بينهما فأمر الموفق أن يلعن على المنابر وحذف اسمه من الخطبة واعتبره خارجيًا. وفى عهد إمارته سكنت البلاد من القلاقل إلى أن توفى سنة ٨٨٤ م/ سنة ٢٧٠ هـ وولى الأمر بعده ابنه خمارويه وفى سنة ٢٧١ هـ كانت موقعة الطواحين عَلَى نهر روبين(*) فانتصر المعتضد أولاً وهرب خمارويه وبينما كان جنده منهمكًا بنهب السواد خرج عليهم الكمين ووضع فيهم السيف ففر المعتضد وظل الجيشان يضطربان وليس لواحد منهما أمير فانجلت المعركة عن

(*) لم تزل أثار الطواحين هناك وقد وهم من ظنه نهر العوجاء.

خذلان العراقيين واستظهار المصريين. فذهبت البشارة إلى خمارويه وهو فى مصر فسرَّ كثيرًا وبعد ذلك صالح الخليفة وتوثقت العلائق بينهما فقلده أحكام مصر والشام وحدود الروم بشرط أن يدفع ٤٥٠ ألف دينار سنويًا ويترك العواصم وقنسرين. وقد تقرب للمعتضد فقدم إليه هدايا ثمينة وعرض عليه أن يزوج ابنته «قطر الندى» بابنه فقبلها الخليفة لنفسهِ وجهزها أبوها بجهاز عظيم أسرف فيه وأنفق من الأموال ما أضعف ماليته فأساء إلى الأهالى ونفرهم فقتل فى الشام ذبحا ودفن فى مصر سنة ٨٩٦ م وسنة ٢٨٢ هـ وتعاقب على البلاد أبناء بنى طولون فلم يُروَ لهم عمل مبرور أو شر مذكور. وسنة ٩٠٥ م وسنة ٢٩٢ هـ انقرضت مملكتهم وأخرجهم محمد بن سليمان من مصر والشام وفى سنة ٢٩٣ هـ كان عامل دمشق والأردن وفلسطين أحمد بن كيغلغ فذهب إلى مصر لمحاربة إبراهيم الخليجى وأناب عنه فى الأردن يوسف بن إبراهيم بن بغا فاغتنم القرامطة هذه الفرصة وساروا إلى بصرى واذرعات [اذرع][1] فافحشوا فى النهب واثخنوا فقتلوا نائب البلاد يوسف ونهبوا طبرسا وعاثوا فى الأرض فسادا فانفذ الخليفة حسين بن حمدان إلى مقاتلتهم فانسحبوا إلى البادية وكانوا يغوّرون الماء خلفهم حتى لا يستطيع الجيش أن يتعقبهم لقلة المياه

٤٥ - الدولة الأخشيدية سنة ٣٢٣ هـ ٣٣٤ هـ (٩٣٤ م) :

إخشيد لقب ملوك فرغانة فى تركستان وبعدهم ملك الملوك. مثل تبع اليمن وإمبراطور وملكشاه وقيصر وكسرى..

أما مؤسس الدولة الأخشيدية فهو طغج بن جُف من سلالة ملوك فرغانة القدماء كان من مماليك المعتصم فاقطعهُ محلا فى(سرّ من رأى)[1] وبعد وفاته اتصل ابنه بلؤلؤ غلام ابن طولون ثم عرفه أبو الجيش خمارويه فاعجب به وقلده دمشق وطبرية. فلما قتل أبو الجيش عاد طغج إلى المكتفى فوشى به وزير الخليفة العباس بن الحسن لأنهُ أبى أن يتزلف إليه فأمر الخليفة بسجنه إلى أن قضى نحبه ثم

---

(١) يوجد ثلاث بلاد متشابهة الأسماء وهى ادرع جنوب الكرك، اذرع ذرعاء، ادرعات ادرع

(١) مدينة فى العراق تدعى سامرا

هرب ابنه محمد إلى الشام واتصل بأبى منصور تكين الخادم. فاظهر مقدره وهمة ودهاء فقلده عمان وجبل الشراة وتدرج فى الرئاسة فعين حاكمًا للرملة سنة ٣٠٩ هـ وسنة ٩٢٧ م. ثم نقل إلى دمشق فسر بهِ الخليفة القاهر وولاه مصر سنة ٣٢١ هـ فمكث بها برهة قصيرة وصرف عنها ثم أعيد إليها فى خلافة الراضى وعهدت إليهِ أعمال مصر جميعها فعزل عنها أحمد بن كيغلغ ومنحه الخليفة صلاحية واسعة فصار أشبه بملك مستقل وسنة ٣٢٨ هـ استولى ابن رائق(*) عَلَى دمشق وتوجه إلى الرملة فملكها وسار إلى عريش مصر فصادمه الإخشيد وهزمه فارتد إلى دمشق بأقبح صورة فتعقبه أخو الإخشيد أبو نصر بن طغج بجيش كثيف فاعترضه ابن رائق واقتتلوا عَلَى عين اللجون(١) فقتل أبو نصر وانهزم عسكره فأخذه ابن رائق وكفنه وحمله إلى أخيه الإخشيد بمصر وانفذ معه ابنه مزاحم وأصحبه بكتاب يعزّيه بأخيه ويعتذر عما جرى ويأسف عَلَى ما حدث ويحلف أنهُ ما أراد قتله وقد قدم ابنه ليقتص منه فتلقى الإخشيد مزاحمًا بالجميل وخلع عليهِ وردَّه إلى أبيهِ واصطلحا عَلَى أن تكون الرملة وما وراءها للإخشيد وباقى فلسطين والشام لابن رائق بشرط أن يحمل إليه الإخشيد عن الرملة ١٤٠ الف دينار سنويًا. وفى سنة ٣٣٠ هـ هب الإخشيد من مصر لفتح دمشق فاستأمن إليه عاملها محمد بن يزداد فنقله إلى شرطة مصر وأناب بها بدر الخرشنى وفى سنة ٩٤٢ م سنة ٣٣٢ هـ قلد الخليفة الإخشيد إمارة الحجاز وسنة ٣٣٤ هـ ٩٤٦ م توفى بدمشق ودفن بالقدس وولى الأمر بعده ابنه أبو القاسم انوجور «محمود» فاستضعفهُ سيف الدولة وقصد دمشق فملكها وأساء إلى أهلها فخابروا كافورًا وصى الأمير فجهز جيشًا عرمرمًا وسار لمحاربة سيف الدولة فتصافا قرب الرملة وبعد جهد انهزم سيف الدولة واسترجع كافور دمشق وفلسطين.

كان أبو القاسم صغيرًا وخادمه كافور وصيه فغلب عليه وتفرَّد بالولاية ورشح نفسه للملك فقصده الشعراء ومدحه المتنبى بقصائد فائقة منها:

ومن مثل كافور إذا الخيل أحجمت وكان قليلاً من يقول لها أقدمى

(*) حاكم حران وقنسرين والعواصم..

(١) ماء يبعد عن جنين ساعتين ونصف..

أبا المسك أرجو منك نصرًا عَلَى العدى وآمل عزًّا يخضب البيض بالدم

فلو لم تكن فى مصر ما سرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتيم

وكافوريات المتنبى من خيرة شعره فقد أجاد فيها آملاً أن يوليه إقليمًا فلم يظفر به وقد أشار بعضهم عَلَى كافور ليمنحه إقطاعًا فقال: «حسبكم أن من يدعى النبوة مع محمد ألا يدعى الملك مع كافور».

إن من يطلع على تاريخ حياة كافور ويعرف كيف استوى على عرش مصر وسورية تحدثه نفسه بكل عظيمة. كان كافور عبدًا زنجيًا خصيًا فاشتراه الإخشيد بثمانية عشر دينارًا وقدمته نفسه الكبيرة وشخصيتهُ البارزة إلى أن أصبح قائدًا مشهورًا ثم عين وزيرًا لانوجور ومدبرًا لملكتهِ فساس الحكومة بإدارة قويمة ورأى سديد. فلما توفى أنوجور تولى الملك بعده أبو الحسن ولم يك له من الأمر إلا اسمه وبعد أن مات استقل كافور بمصر وتلقب بالإخشيدى فقلد ولاية مصر وسورية والحجاز وتوفى سنة ٣٥٦ هـ وسنة ٩٥٦م ودفن فى القدس فضعفت الدولة الإخشيدية بعده واستولى جوهر الصقلى قائد المعز الفاطمى عَلَى مصر وانتزعها من يد أبى الفوارس الإخشيدى وأنهى الدولة الإخشيدية بعد أن عاشت ٣٤ سنة.

وقد امتدح المتنبى ولى عهد أبى الفوارس بقصيدة عصماء منها:

فمالى وللدنيا طلابى نجومها ومسعاى منها فى شدوق الأراقم

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روّى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

❁ ❁ ❁

إذا صلت لم أترك مقالاً لقائك وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم

وإلا فخانتنى القوافى وعاقنى عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

حمته عَلَى الأعداء من كل جانب سيوف بنى طغج بن جف القماقم

هم المحسنون الكُرُّ فى حومة الوغى وأحسن منهُ كرهم فى المكارم
وهم يحسنون العفو عن كل مذنب ويحتملون الغرم عن كل غارم
حيون إلا أنهم فى نزالهم أقل حياء من شفار الصوارم

٤٦ - بعض أبطال الدولة العباسية

جاءت الدولة العباسية والحكم ممهد فلم تحتج لتوسيع حدودها أو نشر لغتها إنما اقتصرت على هدم الحكومة الأموية وبناء دولتهم مكانها وهو عمل صعب شاق تذل أمامه أعناق العظماء وقد قام به أقطاب عظام نذكر هنا بعضهم.

١ – أبو مسلم الخراسانى

اسمه عبد الرحمن من ذرية بزرجمهر. نشأ فى حصن عيسى بن معقل وكان يختلف مع ابنه إلى المكتب فظهرت نجابته وتفوّقه من صغره واتصل بالنقباء العباسيين فعجبوا بمعرفتهِ وأدبهِ وأخرجوه معهم إلى مكة وعرجوا إلى الحميمة «عش الدعوة العباسية» فاهدوه إلى الإمام وانصرفوا فلما رجعوا ثانية سألوه رجلاً عاملاً يقوم بأمر خراسان فقال: إنى جربت هذا الأصفهانى ظاهره وباطنه فوجدتهُ حجر الأرض فقلده الأمر وأرسله إلى خراسان فبث الدعوة ونظم الإدارة ثم وثب وحارب قواد مروان وبايع للسفاح فصفت له خراسان وقال:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنهُ ملوك بنى مروان إذ حشدوا
مازلت اسعى بجهدى فى دمارهم والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا
حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنمًا فى أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

ولما امّحت دولة بنى أمية وأسست دولة بنى العباس طمع أبو مسلم فى الخلافة وطلب إلى السفاح أن يسمح له بالحج آملاً أن يوليهُ إمارته ولن يتولاها آنذاك إلا ولى العهد فأذن له السفاح بالحج واعتذر إليهِ أن قد سبق فوليت إمارة الحج إلى أخى المنصور فحقد أبو مسلم وحج مع المنصور وكان لا يأتمر بأمره

ولا بسير خلفه ويتقدمه فى الرحيل وبذل فى موسم الحج أموالاً طائلة فحبب إليه قلوب العرب واستمالهم وادّعى أنهُ عباسى من ذرية سليط بن العباس وكان ببدأ فى مخاطبة المنصور ومكاتبتهِ بنفسهِ وخطب عمته آسيا واستخف بالمنصور فاحفظهُ وأحنقهُ إلا أنهُ كظم غيظه حتى توفى السفاح وخلع عبد الله بن على فأرسله المنصور إلى محاربتهِ فذهب إليهِ وقضى عَلَى جيشهِ وحاول المنصور أن يصرفهُ عن خراسان اتقاء عصيانه فأبى فاحتال عليهِ وقتله ثم استشار مسلم بن قتيبة فى أبى مسلم فقال له الآية ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١) ودخل جعفر بن حنظلة على المنصور وقال له ما تقول فى أمر أبى مسلم؟ فأجابهُ إن كنت أخذت منهُ شعرة فاقتل ثم اقتل فأراه إياه فى البساط قتيلاً فقال يا أمير المؤمنين عد هذا اليوم أول خلافتك.

٢ – عبد الله بن على

هو عباسى الأصل عم المنصور وناب من أنياب الدولة العباسية وركن من أركانها وعظيم من عظمائها. نادب نفسه إلى قتال بنى أمية وصاحب جيش المغرب وقال جيش مروان فى وقعة الزاب ونال عرش بنى أمية فى دمشق وهاتك أستارهم ونابش قبور خلفائهم. كان عامل الخليفة فى دمشق فلما توفى السفاح دعا الناس إلى نفسهِ وقال لهم: إن السفاح جمع أبناء أبيهِ وراودهم فى محاربة مروان وقال من انتدب منكم إليهِ فهو ولى عهدى فلم ينتدب غيرى فذهبت وأيدت للسفاح الملك وشهد له بعض أخصائه ومعارفه فبايعهُ الجميع فسير المنصور أبا مسلم إلى محاربتهِ والتحم الجيشان وبعد قتال شديد هزم جيشه فذهب والتجأ إلى أخيهِ سليمان بالبصره.

إن هزيمة جيش عبد الله بن على لم تكن عن جهل وضعف تدبير وقلة جند وجبن رجال بل كل شىء كان موفورًا اللهم إلا أن الجند لم يكونوا يعتقدون بصحة قضيتهم وأنهم يقاتلون على الحق بل كانوا موقنين أنهم مبطلون فى دعواهم وأن عبد الله بن على خارجى فلم يصدقوا الحملة ولم يحاربوا برغبة ولم

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢.

يثبتوا فى القتال فهزموا فلو كانوا مؤمنين بصحة دعوى قائدهم لاستبسلوا ولنُصروا نصرًا مبينًا. ومن أبطال دعوة العباسيين سليمان بن كثير وأبى سلمة الخلال وزير بنى هاشم ثم البرامكة وغيرهم ولكنا لا نقصد هنا أن نلم بذكر جميع القواد العظام ونقتصر على تراجم هؤلاء الأبطال لترسخ فى ذهن الطالب شهرتهم ويعلم أن فى قومه رجالاً لا يقلون عن رجال الغرب الذين يتغنى بهم قومهم.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل التاسع

٤٧ - الدولة الفاطمية نشؤها ودخولها مصر وبناء القاهرة

اعتقد أبناء فاطمة الزهراء بأنهم أحق بالخلافة من سواهم وبدأوا يعملون سرًا لاسترجاعها. فتسرع بعضهم وجهر بدعوته قبل أن يكون له جيش يعززه فلاقوا القتل والصلب جزاء فعلتهم.

أما الفاطميون فقد أدركوا هذا السر واختاروا إقليمًا قاصيًا عن العمران بعيدًا عن مركز الخلافة لينطوى ذكرهم ويخفى خبرهم فأرسلوا داعيتهم أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٨٠ هـ وسنة ٨٩٣ م إلى شمالى إفريقية يدعو إلى المهدى(*) ولم يعلن اسمه فلما انتصف أبو عبد الله وأطاعتهُ القبائل ناوأ الحكومة واستولى عَلَى إفريقية ثم استقدم المهدى فسار عن طريق مصر وحل بمدينة رُقَّاده وأمر أن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة ولقب بأمير المؤمنين وقد أخذته الوحشة من أبى عبد الله الشيعى فقتله وأخاه أبا العباس بعد أن دانت له جميع بلاد المغرب. ثم تاقت نفسه لفتح مصر وقد حاول خلفاؤه من بعده ذلك فحالت دونهم حوائل إلى أن ولى الخلافة المعز لدين الله(*) سنة ٣٤١ هـ وسنة ٩٥٢ م فوجه همه وقوته إلى فتح مصر وسير إليها أكبر قواده جوهر. فدخلها ظافرًا فى سنة ٣٥٨ هـ وقضى على الدولة الإخشيدية ثم ملك البلاد وبنى مدينة القاهرة والجامع الأزهر العظيم وسير جعفر ابن فلاح الكتامى إلى الشام فى جمع كبير فبلغ الرملة وحارب الحسن بن عبيد الله بن طغج فظفر به وأسره مع قواده وبعث بهم إلى جوهر فى مصر ودخل البلد

(*) هو عبد الله بن محمد وقد اختلف النسابون والمؤرخون فى نسبة فمنهم من يقول أنهُ فاطمى وهو الصحيح ومنهم من ينكر ذلك.

(*) كان خطيبًا عالمًا باللغة اليونانية واللغات الإفريقية شجاعًا قديرًا فى السياسة حريصًا على النفوس.

عنوة وقتل من أهلها كثيرا. وجبى الخراج وسار إلى طبرية فوجد ابن ملهم قد أقام الدعوة الفاطمية فسار عنها إلى دمشق وبعد حروب عديدة استولى عليها.

تكون فى المملكة العربية حكومات كثيرة ولكن لم يجرؤ أحد عَلَى ادعاء إمارة المؤمنين واكتفوا بالسلطة الزمنية فقط فلما ظهرت الدولة الفاطمية القرشية أحدقت بالدولة العباسية الأخطار لأنها نازعتهم الخلافة والسلطة معًا ولقبوا بأمراء المؤمنين ودعوا لأنفسهم عَلَى المنابر. أما الدول الطولونية والأخشيدية والأموية «الأندلسية» والطاهرية وغيرها فكان استقلالهم ينحصر فى السلطة السياسية وظلوا يعترفون بالخلافة إلى الخلفاء العباسيين فصار للمسلمين آنذاك خليفتان عظيمان الأول عباسى عَلَى ضفاف نهر دجلة والآخر فاطمى فى حوض النيل وشرعا يتنازعان السيادة وكل بلاد كان يفتحها أحدهما تتقلص عنها دعوة الآخر. وأمَّا بنو أمية فى الأندلس فإنهم تربصوا حتى عهد عبد الرحمن الناصر فخطب له عَلَى المنابر ولقب بأمير المؤمنين.

تهيبت دول الشرق الحكومة الفاطمية وخافوا بأسها وقوتها فلم يقدموا عَلَى التحرش بها لعظمتها وفتوتها. وانبرى عز الدولة بختيار البويهى فأغرى قائد القرامطة عَلَى مقاومة الفاطميين وساعده بالمال والسلاح فسار فى سنة ٣٦٠ هـ إلى دمشق يطلب الإتاوة(٥) من أهل دمشق التى كان قطعها الفاطميون فلم يحفل جعفر بن فلاح بجمعهم واستهان بهم فكبسوه وقتلوه وامتلكوا دمشق فأمَّنوا أهلها وطمحت نفوس القرامطة إلى هدم دولة الفاطميين والاستيلاء عَلَى بلادهم فانقضوا عَلَى الرملة واحتلوها واستولوا عَلَى ما فيها وحصروا جند الفاطميين فى يافا. وقصدوا مصر وقد التف حولهم خلق كثير منهم حسان بن الجراح الطائى أمير عرب الشام فتصافوا قرب عين شمس واقتتلوا مرات كان الظفر فيها للقرامطة فاستعظم المعز الأمر وهالة فعمد إلى الحيلة واستمال أمير العرب حسان الطائى ورشاه بمبلغ ١٠٠ ألف دينار فانسحب وتبعه العرب وثبت القرامطة إلى أن أرهقهم جند المعز فانقلبوا راجعين وأتوا الرملة وشددوا الحصار على يافا فسير

(٥) كان للقرامطة ٣٠٠ ألف دينار يأخذونها سنويا من ابن طغج.

جوهر من مصر ١٥ مركبًا تحمل ميرة ونجدة للمحصورين فأخذها القرامطة ولم ينج منها إلا مركبان غنمهما الروم ومن قول ابن بهرام القرمطي:

زعمت رجال الغرب أني هبتها فدمي إذن ما بينهم مطلول

يا مصر إن لم أسق أرضك من دم يروى ثراك فلا سقاني النيل

وساروا من فلسطين سنة ٣٦٣ هـ إلى أذرعات ومنها إلى الإحساء وفي سنة ٣٦١ هـ سار المعز لدين الله الفاطمي من أفريقية إلى مصر ونقل عاصمته إليها وسنة ٣٦٤ هـ انهزم افتكين(*) التركي من مولاه بختيار وسار في طائفة صالحة من جند الترك فوصل إلى حمص ومنها إلى دمشق فدخل المدينة وأخرج حاكمها ريان وقطع خطبة المعز وخطب للطائع العباسي فلما مات المعز طمع بحيازة واغتصاب بلاده وأغار عَلَى صيدا وانتصر عَلَى حاكمها وقصد طبرية فنهبها وعاث فيها فغضب الخليفة العزيز وأرسل جوهرًا بجيش ضخم فانسحب افتكين إلى الشام واستصرخ القرمطي فلباه فعرف جوهر وانصرف فسارا في أثره فأدركاه بظاهر الرملة ونزلوا عَلَى نهر الطواحين (نهر روبين) فقطعوا عنه الماء(*) فتراجع إلى عسقلان فحصراه مدة ثم فسحا له فذهب إلى مصر وعلم العزيز فبرز وفرق الأموال وجمع الرجال وسار إلى محاربة القرمطي وافتكين وعلى مقدمتهِ جوهر فاصطدم الجيشان عَلَى مقربة من الرملة وبعد قتال عنيف انهزم القرمطي وتبعه افتكين ومن معهما فبذل العزيز مائة ألف دينار لكل من أتاه بافتكين أسيرًا فأدركه المفرج بن دغفل الطائي وقد كظه العطش فأخذه إلى بيتهِ وأكرم مثواه لما كان بينهما من الأنس القديم. ثم أعلم العزيز به فدفع إليه الجعالة وتسلمه فأحسن إليه وقربه وأعطاه الخيام وأعلى مكانه وأعاد إليه من كان يخدمه وحمله معهُ إلى مصر وجعله من أخص أعوانه. أما القرمطي فقد بعث إليه العزيز رسولاً يدعوه ليحسن إليه فلم يأمن وخاف الغدر فعين إليه ٢٠ ألف دينار سنويًا. وفي

(*) يسميه الأتراك أنوشتكين والدروز نشتكين.

(*) كان ينحدر الماء إلى الرملة من عين يردة وهي تبعد ١٥ كيلو متر من شرقها وآثار القناة باقية للآن.

سنة ٣٦٨ هـ تغلب المفرج بن دغفل بن الجراح الطائى عَلَى الرملة وناحيتها وأظهر طاعة العزيز من غير أن يتصرف بأحكامه فعظم شأنه وكثر جمعه وعاث فى الأرض فسادًا فجهز العزيز بالله العسكر وأمَّر عليها القائد يلتكين فسار مجدًا إلى الرملة وقد التف حوله القيسية «العرب» فقابله جيش المفرج وكان منظمًا وبعد حرب قصير فرَّ ابن الجراح إلى إنطاكية والتجأ إلى أميرها اللخمى التنوخى. فانقضت خلافة العزيز وداخلية البلاد فى اضطراب واختلاف مع أنهُ كان حليمًا عادلاً غير متعصب كثير التسامح لا يفرق بين المذاهب والأديان فكان كاتبه الخاص عيسى بن نسطورس مسيحيًّا ونائبه فى دمشق منشا يهوديًّا وقد اعتز المسيحيون واليهود فى خلافته وهجاه شاعر فقال:

تنصر فالتنصر دين حق عليه زماننا هذا يدل

وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب وهذا الـ ـعزير ابن وروح القدس فضل

فامتعض وغضب ولكن عفا عنهُ فأطال لسانه أحد الشعراء وغضَّ من هيبة الملك وقال:

زبارجىٌّ نديم وكلّسىٌّ وزير

نعم عَلَى قدر الكلب يصلح الساجور

فبلغهُ الخبر وعرف القائل فقال لابن كلس قد اشتركنا فى الهجاء فشاركنى فى العفو وتوفى سنة ٣٧٦ هـ وعهد إلى ابنه أبى على المنصور الملقب الحاكم بأمر الله ولغرابة أطوار هذا الخليفة نفرد له نبذة خاصة.

٤٨ - الحاكم بأمر الله

ولى الخلافة سنة ٩٩٦ م سنة ٣٧٦ هـ وعمره إحدى عشرة سنة ونصف فأوصى بهِ والده أرجوان الخادم وجعله مدبر دولته فتغلب عليه الحسن بن عمار شيخ قبيلة كتامة وسيدها وبغى على الخليفة وتحكم فى المملكة وتلقب بأمين الدولة

وهو أول من تلقب فى الدولة الفاطمية وعبث بالخليفة واستصغره فتبسطت كتامة فى البلاد ومدوا أيديهم إلى أموال الرعية فأنف أرجوان وصى الحاكم وكاتب بعض القواد والعمال لاستخلاص البلاد منهُ فسار حاكم دمشق منجوتكين إلى مصر فأذاع ابن عمار أنهُ عصى الخليفة وندب العساكر لمحاربته وأمّر عليها أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح فتصافا قرب عسقلان وأُسر منجوتكين وهزم جمعه وبعث به أبو تميم إلى مصر فغضب أرجوان وثار فى مصر وأخذ السلطة من يد ابن عمار وبايع الحاكم ثانية فطمع المفرّج الطائى ونزل عَلَى الرملة ونهب ما وجده فأنفذ إليه أرجوان جيش بن الصمصامة فاسترد الرملة وهرب المفرج الطائى من بين يديه ثم ثار ثانية فملك الرملة وما والاها فاستبشر أبو القاسم المغربى وزير شرف الدَّولة وانسل إليهِ وحبب إليهِ الخروج عن طاعة الفاطميين وحسن له أن يبايع سواهم فراسل أمير مكة الشريف أبا الفتوح وخاطبه بأمير المؤمنين ورغبه فى القدوم إلى الرملة ليبايع له بالخلافة فاستناب بمكة وحضر وخوطب بأمير المؤمنين فَفَرِقَ الحاكم وراسل المفرّج وابنه حسان ومجدهما وترضاهما وضمن لهما الإقطاع الكثير والعطاء الجزيل فعدلا عن الشريف وردَّاه إلى مكة وعادا إلى طاعة الحاكم الذى جهز عسكرًا إلى الشام بقيادة على بن جعفر وأمره أن يكبس بنى طيّ. فلما وصل الرملة أزاح حسان وأباه المفرج وعشيرتهما عن تلك الأراضى وأخذ ما كان لهم من الحصون بجبل الشراة ونهب أموالهم وذخائرهم واستأنف السير إلى دمشق. ثم أمن الحاكم المفرَّج وأكرمه ووضع عليه من سمه فارتاح من شغبه.
ومن أعمال الحاكم المتناقضة التى تشهد بضعف عقله وهوسه أنه ادّعى الألوهية وسمى نفسه الحاكم بأمره واضطهد الديانة الإسلامية وأمر بسب الصحابة وترك صلاة التراويح ونشر مذهبًا جديدًا أباح فيه زواج الأخ بأخته وحرّم أكل الملوخية لأن معاوية بن أبى سفيان كان مغرمًا بها وأكرم النصارى واستوزر منهم فهد بن إبراهيم المسيحى ثم اضطهدهم واليهود فأمر بهدم كنيسة القيامة فى القدس وغيرها من الكنائس ثم أمر بعمارتها عَلَى نفقته وسلب أموالهم وأمرهم أن يلبسوا السواد شعار العباسيين احتقارًا لهم.

ونهى النساء عن الخروج من بيوتهن وقد أجمع الشعب عَلَى كرهه وتوقّوْا بطشه فضجرت منه أخته ست الملك وتوقعت نقمته فاحتاطت لنفسها واتفقت مع القائد ابن دوّاس عَلَى قتله فأمر من اغتاله قرب المقطم وأخفى جثته. ومن آثار شيعة الحاكم فى سورية وفلسطين الأمة الدرزية التى تنتسب إلى أنوشتكين الدّرزى ومحمد بن إسماعيل التميمى الداعى وهما المبشران بألوهية الحاكم ومذهب التقمص الذى صادف هوى فى نفوس القرامطة «الدروز» فاعتنقوه. وبعد أن فقد الحاكم جمعت ست الملك الناس وأحسنت إليهم ورتبت الأمور وبايعت للظاهر لإعزاز دين الله وجعلت الأمر فى يد ابن دواس تطمينًا له ثم أمرت بقتله وأعلنت للقواد أنه هو الذى قتل سيدهم ومدّت يدها إلى الملك فاستبدت به.

وسنة ٤٠٢ هـ استطال حسان الطائى واستفحل أمره فى فلسطين وعقد حلفًا مع صالح بن مرادس أمير بنى كلاب وسنان بن عليان واتفقوا عَلَى أن يقتسموا سورية بينهم فيكون من حلب إلى عانة لصالح ودمشق وملحقاتها إلى سنان ومن فلسطين إلى مصر لحسان فاستولى صالح عَلَى حلب وبلادها وحصر حسان الرملة وامتلكها ومن تأمل قليلاً فى هذا الحلف يجده منطويًا عَلَى أسرار خطيرة لأن هؤلاء الرجال كانوا أمراء القبائل العربية فى عصرهم ويشبهون فى الحالة الراهنة ابن سعود وخزعل وابن الشعلان وابن مهيد.. الخ. وقد رأيت مما مرّ بنا إن أسماء القواد والعمال كانت أجنبية ولم يبق للعرب حظ فى دولتهم فنقموا هذه السياسة وعقدوا حلفًا عربيًا صرفًا ضد الأعاجم الذين كانوا يحكمون رقاب قومهم ويسومونهم سوء العذاب. وقد تنبه الوزير المهلبى إلى هذه الأخطار وأشار إلى ما ترمى إليه الحكومة من سوء الإدارة بإقصاء العرب وتقريب الأجانب.

وقد لمح المتنبى فى شعره إلى أن البلاد العربية أصبحت أعجمية فقال قصيدة منها:

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

فمن هذا يظهر أن البلاد العربية والشعب العربى انفصل عن حكومته وسادت عليه العناصر الأخرى فكان يشكو ويتألم ولكن بلا جدوى لأنهم كانوا غير قادرين على دفعهم والخلفاء لا يأخذون بيدهم فعقدوا هذا الحلف وحاولوا إثبات حقهم وكان يجب عَلَى الخليفة الظاهر أن يؤازرهم ولكنهُ سخط وغضب ثم جهز قائدة أنوشتكين البريدى بجيش كبير فسار إلى فلسطين ودلف إليه حسان وصالح فتصافوا فى سهل الأقحوانة(*) وبعد قتال عنيف قتل صالح وابنه الأصغر وأرسل أنوشتكين رأسيهما إلى مصر واستولى على جميع البلاد ونجا نصر بن صالح فأسس فى حلب الدولة المرداسية واستكان حسان حتى سنة ٤٣٣ هـ ثم نهض مع بنى كلاب وثاروا ثانية ولكنهم لم يفلحوا وسنة ٤٦٠ هـ كثرت الزلازل بمصر والشام فانثلم سور القدس وانهدم أكثر منازل الرملة وهلك تحت الردم خلق كثير فتحولت المدينة إلى قرية وانشقت صخرة بيت المقدس وسنة ٤٢٩ هـ سمح الخليفة المستنصر بتعمير كنيسة القيامة وهادن ملك القسطنطينية.

وفى أيام هذا الخليفة اجتاز عرب بنى هلال فلسطين وعبروا مصر وقد بولغ فى قصصهم حتى اختلط الصحيح بالفاسد ولكن ابن الأثير وابن خلدون ذكرا ما نورده هنا بعد التمحيص فقالا: إن المستنصر استوزر الحسن بن على من قرية يازور (قرب يافا) ولم يك من أهل الوزارة بل كان قاضيًا على الرملة فاكرم العلماء وبجلهم فاحبوه وساعده الحظ فارتقى الوزارة ونال الإمارة بجده وعلمه واتفق أن والى إفريقيا المعز بن باديس قطع خطبة العلوى سنة ٤٤٠ هـ وخطب للقائم العباسى فحنق المستنصر وتهدده فغلظ المعز فى الجواب وخرج عن مألوف المخاطبات مع اليازورى وكاتبه بصنيعتهِ «وليس بعبده» فعاتبهُ فلم يرجع وطغى فلما أن قدمت قبائل بنى هلال زغبة ورياح وسليم وعدى وخفاجة وأميرهم مؤنس ابن يحيى المرداسى انتهز المستنصر ورجاله هذه الفرصة وأصلحوا ما بينهم وأزالوا أحقادهم وأعطوهم أموالاً ووجهوهم إلى القيروان وعاهدوهم بأن يعطى لهم كل ما يفتحونه ووعدوهم بالمدد والمساعدة فدخلت العرب إفريقية وكتب اليازورى إلى

(*) القحوانة قرب طبرية على شاطئ البحيرة.

المعزّ: «أما بعد فقد أرسلت إليك خيولاً فحولاً ورجالاً كهولاً ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً» فجاسوا الديار وعاثوا فيها وامتلكوها وظلوا فى حروب مستمرة حتى أواخر سنة ٤٥٧ هـ فاصطلموا زنانة وتم لهم النصر.

وفى عهد المستنصر بالله كثرت الاضطرابات فى مصر فاستقدم الخليفةُ بدرَ الجمالى حاكم عكا لإصلاح ما فسد فنشط بدر ودخل مصر فى جيش من أهل فلسطين ففتك بجند الأتراك ولكن الخليفة لم يتعهد بلاد سورية فشغرت وهب ملكشاه السلجوقى لامتلاكها وفى سنة ٤٨٧ هـ توفى الخليفة المستنصر وكانت مدة خلافته ستين سنة وأربعة أشهر.

٤٩ - الدولة السلجوقية

زحف من تركستان إلى البلاد الإسلامية قبائل متعددة كانت خاضعة إلى الأمراء السلاجقة الذين انقسموا فيما بعد إلى دول ثلاث: خراسانية وسورية وأناضولية. وقد اشتهر طغرل بك حفيد سلجوق بالشجاعة والفطانة وساعده الحظ والاجتهاد إلى أن دخل بغداد وخطب له عَلَى منابرها واخضع من تمرد عَلَى العباسيين ولكنهُ توفى عقيمًا فانتقل ملكه إلى ابن أخيه السلطان ألب ارسلان الذى امتد نفوذه واتسعت حدود بلاده واستولى عَلَى حلب فلما قضى خلفه ابنه ملكشاه فهمّ بفتح مصر واستئصال الدولة الفاطمية وسير سنة ٤٦٣ هـ وسنة ١٠٧٧ م أحد قواده اتسز «اقسز» بن أوق الخوارزمى إلى فلسطين ففتح مدينة الرملة وحاصر القدس وفتحها وملك ما يجاورهما من البلاد خلا عسقلان وقطع الخطبة الفاطمية وأحيا الخطبة العباسية وفى سنة ٤٦٨ هـ حاصر دمشق وفتحها ومنع الشيعيين أن يجهروا فى آذانهم بفقرة «حىَّ عَلَى خير العمل» وأن يؤذنوا كالسنيين وفى سنة ٤٦٩ هـ سار لفتح مصر فقابله أمير الجيوش بدر ومعه جمع كبير من العرب فهزمه وقتل أخاه وأكثر أصحابه فعاد «اتسز» منهزمًا إلى الرملة ثم سار منها إلى دمشق وقد خالف أهل القدس حاكمهم فنهد إليهم وحصر المدينة ففتحها عنوة ونهبها وقتل أهلها حتى من التجأ إلى المسجد الأقصى وكف عمن عاذ بالصخرة. وفى سنة ٤٧١ هـ أقطع السلطان ملكشاه الشام لأخيه تاج الدولة تتش فكف

هجمات المصريين عن البلاد وقتل«اتسز»لأنهُ لم يستقبله وبعد وفاة ملكشاه استقل فى سورية ودعا لنفسهِ وفى سنة ٤٨٢ هـ نهضت عساكر مصر لاسترداد سورية فلم يتوافقوا إلا لفتح عكا وبعض بلدان فلسطين فعين أمير الجيوش عليها الأمراء والعمال وفى سنة٤٨٦هـ فتحوا مدينة صور. ولما توفى «تتش» انقسمت مملكته إلى قسمين كانت قاعدة إحداهما حلب وملكها ابنه رضوان وحاضرة الأخرى دمشق وسلطانها دقاق. فشاق رضوان أخاه وسار إلى فلسطين ليفتحها فجاء إلى نابلس والقدس ورجع خائبًا ثم مات دقاق ملك سورية واستبد بالمملكة أتابكه «مملوكة» «طفتكين» وأسس ملكًا لولده بورى المنتسبة إليه هذه الدولة وقد وهم بعضهم فظنها دولة سلجوقية والواقع أنها بورية وهكذا ظلت الدولتان السلجوقية والفاطمية فى عراك وصدام فإذا ما استضعفت إحداهما الأخرى كانت تغير عَلَى بلادها وتقتطعها فتتربص الثانية حتى يوهن عدوتها فتق أو طارئ جديد فتنال به غرة وتهب بخفة وتسترد منها ما سلب. فباغتهم الصليبيون وهم منهوكو القوى وبلادهم فوضى وجيوشهم قد سئمت الحرب وملته وزهدت فى القتال والدفاع وطما عليهم السيل الغربى وأيقظهم التيار الأوروبى فغمر بلادهم وحكم فى رقابهم وطردهم من أوطانهم وسلب أطيب رقادهم حتى قيض الله لهم صلاح الدين فأخذ ثأرهم ونفى عارهم واسترد استقلالهم ونجاهم من عذاب أليم.

obeikandl.com

الفصل العاشر

٥٠ - الصليبيون

توالى عَلَى العرب فى فلسطين لنزع السيادة منهم هجمات كثيرة أعظمها الحملات الصليبية الأوروبية التى كان الباعث لها أسبابًا خطيرة لا يسعنا تفصيلها فى هذا الموجز بل نكتفى بسردها مختصرة فنقول: ظهرت هذه الحرب لعامة شعوب أوروبا بمظهر دينى فقط فأشاعوا أن السلجوقيين أهانوا حجاج المسيحيين واعتدوا عليهم غير أن التواريخ العربية لم ترو هذا الخبر قطعًا بل ذكرت أن المسيحيين كانوا ينعمون فى حريتهم مثل المسلمين وما كان يقترفه بعض الملوك مثل الحاكم الفاطمى من الظلم والجور كان يشمل المسلمين والمسيحيين عَلَى السواء ولكن هذه الحروب كانت منطوية عَلَى أمور سياسية كما ورد فى خطاب البابا أوربانوس الذى حرض بهِ الممالك التجارية عَلَى اغتنام هذه الفرصة ويقال: إن روم القسطنطينية خافوا سلجوقى الأناضول فاستغاث إمبراطورهم بالبابا ووعده أن يضم كنيسته إلى كنيسة روما ويقال: إن الحكومات التجارية حرصت على أسواق الشرق لما اضطربت العلائق بين آسيا وأوروبا فهبت تدافع عن مصالحها. وقيل أن أيدى أمراء المقاطعات فى أوروبا لاسيما فى انكلترا كفت وألغيت امتيازاتهم فأخذوا يبحثون لهم عن بلاد أخرى يستعيضون بها عن مقاطعاتهم. ومما هو جدير بالذكر أن أوروبا كانت حينئذ مسوقة بتيار دينى وهوَس مسيحى وكان ذلك الوقت زمن الفروسية والنجدة فنذر كل فارس أن ينقذ الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ويغيث الضعيف والمظلوم. وهذا الشعور الدينى كان عاملاً عظيمًا فى الحروب الصليبية لأنهُ عز عَلَى أبناء المسيح فى أوروبا أن يروا أقدس بقعة لديهم فى يد عدوهم. فلما زار القدس بطرس الناسك الأفرنسى فى أواخر القرن الحادى عشر وشهد خشونة التجبر وذاق مرارة التحكم التهبت فى صدره نار الحمية وقابل

بطريرك القدس فحدثه بهذه الشدة والقساوة ووعده أن يستبدل هذا الذل بالعز وصمم على إثارة نفوس زعماء أوروبا إذا هو لم يمت فلما رجع أعلن ما رآه وحدث البابا بما عاين ولمس فعقد الاجتماعات وأرسل المناشير وخطب ووعظ وأقنع الأمم الأوروبية وهاجمهم وحرضهم على فتح فلسطين والاستيلاء عَلَى الأماكن المقدسة ولكنا نضرب صفحًا عما يتعلق منها بأوروبا ونحصر بحثنا بما جرى فى فلسطين لأن هذا المختصر لا يتحمل التطويل فنقول كانت فلسطين قبل قدوم الأفرنج محطة للنوائب لأنها توالت عليها الزلازل وفتكت بها الحروب والفتن وأهزلتها المجاعات بل كانت شبه كرة يتلقفها فريق ويتخطفها آخر فيوماً تكون تحت النفوذ العباسى ويوماً فى يد الفاطمى يتنازع عليها القواد ويغتصبها الأمراء ويقتسمها العمال وليس للخلفاء إلا الخطبة والسكة والطراز وأصحاب الأقاليم والبلاد هم السلاطين والملوك يحكمون ويجبون الأموال ويعلنون الحروب ويؤيدون الخليفة ويتمسكون بهِ ليهبهم الألقاب ويخطب لهم عَلَى المنابر.

فزحفت جموع أوروبا إلى سورية باذلة أرواحها ومهج بنيها وحملوا على الشرق تسع حملات تخللها كثير من النجدات بعضها هوى فى الطريق والبعض الآخر وصل فلسطين.

الحملة الأولى: سنة ١٠٩٦ م أو سنة ٤٩٠ هـ

كانت الحملات الصليبية خليطًا من الفرسان "Knights" والجنود المنتظمة والمتطوعة تسير جماعات بمواشيها كالقبائل الرحالة فلا قائد يتعهدهم ولا أمير يدبر شؤونهم كأنهم قطيع من البشر ساقهم التعصب الدينى إلى الموت.

اجتمع فى فرنسا سنة ١٠٩٥ م جمهور مختلط يبلغ عددهم مائتى ألف نفس بلا رابطة تجمعهم ولا ألفة تمسكهم إلا عاطفة رسم الصليب «+» المنقوش على سلاحهم وصدورهم. فساروا إلى ألمانيا فالنمسا فهنغاريا فالأستانة وهنالك أحصى عددهم فإذا هم النصف والباقى تخطفهُ أهل البلاد فقتلوهم ومنهم من مات جوعًا أو ضل عن الطريق ومنهم من رجع فانطفأ أمله بإنقاذ القبر المقدس. فاستأنف

الباقون السير برًا إلى الأناضول فصدهم السلاجقة إلا أنهم عجزوا عن إيقافهم. وبعد قتال عنيف استولوا عَلَى إنطاكية سنة ٤٩١ هـ وسنة ١٠٩٦ م ومنها انحدروا إلى المدن الساحلية كطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا مُجدِّين فى سيرهم مصممين عَلَى فتح بيت المقدس فلما عرف الفاطميون بقدومهم ورأوا الخطر المحدق بهم طلبوا مصالحتهم عَلَى شرط أن يسهلوا الطرق لمن أراد زيارة القدس من المسيحيين فرفض الأفرنج وقصدوا الرملة فذهب إليهم نفر من أهالى بيت لحم ورحبوا بهم وحثوهم عَلَى قتال الفاطميين فصعدوا من الساحل إلى القدس وكان عددهم ٤٠ ألف مقاتل فحصروها وتحملوا من المشاق والصعوبة ما أزعجهم.

٥١ - فتح القدس:

كانت القدس قبل الفتح الصليبى فى يد سلاجقة الشام فخرج عسكر الخليفة الفاطمى بقيادة الأفضل بن بدر الجمالى واستولى عليها أمانًا فى شعبان سنة ٤٨٩ هـ فدخلت فى ملك المصريين وأنابوا عنهم فيها أفتخار الدولة فاتاها الإفرنج وحصروها نيفًا وأربعين يومًا وعانوا صعوبات شديدة نأتى عَلَى أجلها.

١ - قلة الماء: فإنهم كانوا ينقلونهُ من البيرة وعين كارم ولفتا.

٢ - نفاذ الذخيرة: إننا قد شهدنا أثناء الحرب العامة ما كان مجموعًا لتأمين المجاعات ومع ذلك فقد شكا الجند الجوع والعطش وكانت الحكومة المحلية تحرسهم والشعب يؤازرهم فكيف بجماعات غرباء فى بلاد يمقتهم أهلها ويقبحون أعمالهم وينكرون فظائعهم.

٣ - لوازم الحصار: فإن المحاصر يحتاج إلى أخشاب وأدوات أخرى وهؤلاء الدخلاء لم يحضروا معهم شيئًا من ذلك وكانت البلاد قاحلة والأحراج بعيدة عن القدس ولولا قدوم السفن الإيطالية التى كانت معها كثير من الأخشاب لما قدروا عَلَى بناء الأبراج ولما استطاعوا التسلق عَلَى جدران المدينة ولكنهم ذللوا كل هذه الصعوبات وحصروا المدينة ودخلها غود فرى من باب الساهرة وهو أول الداخلين ثم فتحت جميع الأبواب فملكوا القدس عنوة يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان

سنة ٤٩٢ هـ وسنة ١٠٩٩ م ولبث الفرنج يقتلون ويفتكون فى نساء وأطفال وشيوخ ومرضى المسلمين أسبوعًا ويقدر ما قتل منهم فى المسجد الأقصى ما يربو عَلى ٧٠ ألف نفس وفيهم أئمة المسلمين وعلماؤهم وعبادهم ممن جاوروا بيت المقدس وما ندرى لو تجلى السيد المسيح ورآهم يرتكبون تلك المخازى والمنكرات ماذا عساه يقول لهم وهو القائل «أحبوا أعداءكم» ولو أنا قايسنا بين دخول عمر ابن الخطاب البدوى وبين دخول غودفرى الافرنسى الذى عاش فى القرن الخامس بعد عمر لخجل الفرنج من سيرة قائدهم وفظائعه وافتخر العرب بعدل خليفتهم ومآثره.

فلما رأى المسلمون ما حل بهم استجاشوا الجموع لمحاربة الفرنج واسترجاع بيت المقدس فهتف الأبيوردى بقصيدة عصماء منها:

وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بنى الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... عَلَى هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماءٍ قد أبيحت ومن دُمى ... توارى حياءً حسنها بالمعاصم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرّع بعدها سن نادم
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدى ... رماحهم والدين واهى الدعائم
فليتهم إن لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

فهاجت نفوس المصريين وحشد الأفضل أمير الجيوش عساكره وسار إلى عسقلان وأنكر على الفرنج ما فعلوه وتهددهم فعاجلوه وهزموه وقتلوا من جيشه كثيرًا وغنموا ما فى المعسكر من مال وسلاح فانسحب إلى عسقلان ومنها إلى مصر فحصر الفرنج عسقلان وأخذوا من أهلها ٢٠ ألف دينار قطيعة لهم وعادوا إلى

القدس متخاذلين فأسسوا مملكة لاتينية صغيرة علَى شكل الإقطاع الأوروبى القديم واختاروا غودفرى أميرًا عليهم وشرعوا يفتحون ما بقى من مدن فلسطين فعاجل غودفرى أجله ودفن فى كنيسة القيامة عَلَى يمين الداخل ويوجد هناك سيف يزعمون أنهُ سيفه ولا يعلم حقيقة ذلك الزعم وانتخب بعده أخوه بلدوين ففتح مدينة ارسوف أمانًا وحيفا وقيسارية وقتلوا أهلها. ثم فتحوا كافة مدن الساحل خلا صور وعسقلان وظلوا فى حروب مستمرة مع الفاطميين وبوريى دمشق فلم يظفر أحدهم بالآخر وعجز المسلمون عن رد غاراتهم لأن بلادهم كانت منقسمة إلى إمارات وملوك عديدة واتفق أن استحكم الخلاف بين السلاجقة فشغلوا عن مقاومة الأجانب بمحاربة بعضهم بعضًا حتى إن «بكتاش بن تتش» أخا ملك سورية وايتكين الحلبى صاحب بصرى حالفاهم فاطمان الصليبيون وظنوا أنهم ملكوا البلاد فبنوا قلعة الشوبك والكرك وحصون عثليت وصفد وطبرية. وفى سنة ٥١٩ هـ انضم أمير العرب دبيس بن صدقة إلى الفرنج وحارب معهم العرب والمسلمين وفى سنة ٤٩٦ هـ سير الأفضل أمير الجيوش مملوك أبيه سعد الدولة لمحاربة الفرنج فلقيهم بين الرملة ويافا وبعد قتال عنيف كبا به الجواد فقتلوه وهزموا جنده وملكوا ما فى خيامه فارسل الأفضل ابنه شرف المعالى فى جمع كثير وصادمهم قرب يازور وهزمهم وأثخن فيهم وأسر كثيرًا من زعمائهم وأرسلهم إلى مصر وفتح الرملة وعزم أن يذهب إلى فتح القدس فجاءت نجدة صليبية من البحر فثبط عزمه وخارت قوته فانسحب إلى عسقلان واحتمى بها فحصروهم ثم قفلوا راجعين إلى القدس

وفى سنة ٥٠٢ هـ سار طغتكين إلى طبرية فحارب ابن اخت بلدوين وانتصر منه وأسره ثم هادن بلدوين أربع سنوات. وفى سنة ٥٠٧ هـ نزل طغتكين بجبشه الأقحوانه وحارب الفرنج فخذلهم وغرق منهم خلق كثير فى البحيرة ونهر الاردن فاستغاثوا بافرنج طرابلس وإنطاكية فأنجدوهم وأعادوا الكرة ولكنهم جبنوا والتجاوا إلى جبل غرب طبرية فحصرهم طغتكين ٢٦ يوما ثم سار إلى بيسان فنهب بلاد الفرنج بين عكا والقدس. وفى سنة ٥١٢ هـ خف طغتكين لمحاربة

الفرنج فلقيهم بين دير أبوب وكر بصل (فى حوران) ودخل طبريا ونهبها وما حولها وقصد عسقلان واتفق مع الجيش المصرى المرابط فيها ثم عاد إلى دمشق وهكذا ظل المسلمون والصليبيون فى كروفر حتى سنة ٥٤٧ هـ وسنة ١١٥٣ م فانقض الفرنج عَلَى مدينة عسقلان وفتحوها ونزعوها من يد الفاطميين فاستراحوا من غزواتهم وغاراتهم. ثم قام بعد بلدوين الأول بلدوين الثانى والثالث والرابع والملك أمورى ولكن هممهم أخذت تضعف وتفتروهمم الوطنيين تقوى وتستعر لأن حماسة الصليبيين تلاشت وانطفأت حرارتها فزال المحرك الذى ساقهم لإنقاذ البلاد والقبر المقدس مما رأوا من فساد الرهبان وأطماع الأمراء الذين رجعوا إلى سيرتهم الأولى فاختلفوا وانشقت كلمتهم وانصرف كثير منهم إلى بلادهم وتخاصم الباقون عَلَى التاج والألقاب والسلطة والأموال وتفاقم بينهم الخلاف والانقسام ووجبت شمسهم بقدوم بطل الشرق السلطان صلاح الدين فدك عرشهم ونكس أعلامهم.

الفصل الحادى عشر

صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة الأيوبية

٥٢ - حالة العالم الإسلامى

قبل أن نشرح سيرة السلطان صلاح الدين نمهد للقارئ الأسباب التى ساعدته عَلَى بلوغ هذا المقام العالى فنقول: كان العالم الإسلامى فى سبات عميق فالأشراف يتنازعون الخلافة حتى لا يكاد يمر عام إلا ونسمع أنهُ خطب لفلان عَلَى منابر اليمن أو الحجاز أو مصر ولآخر فى شمال إفريقية أو العراق أو طبرستان إلخ. والأمراء والملوك اقتسموا البلاد فاقتطع بنوزنكى «مماليك السلاجقة» ولاية الموصل وامتدوا إلى سورية واشتهر منهم نور الدين بمناهضته للفرنج فامتلك دمشق سنة ٥٤٩ هـ واختار أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين قائدًا عامًا لجنوده.

فلما اختلت أحكام مصر وغُلب الخلفاء عَلَى أمرهم تواثب الأمراء وطمعوا فى الوزارة فتولاها فى سنة واحدة أربعة ونهض أمير الصعيد ضرغام وغصبها من شاور الذى التجأ إلى دمشق وطلب إلى نور الدين أن يساعده بقوة عسكرية لاسترجاع منصبه بشرط أن يعطيه ثلث حاصلات البلاد خلا إقطاعات العساكر ويظل شيركوه بعساكره فى مصر «احتلال عسكرى» فأرسل معُ أسد الدين شيركوه فدخل مصر وقتل ضرغامًا وعين شاورًا محله فنكث وعده واستعان بالصليبيين علَى اخرج أسد الدين من بلاده فأجابوه وردوا الجيوش الشامية.

وفى سنة ٥٦٢ هـ سار أسد الدين ثانية إلى مصر بجيش مجهز ففتح ثغر الإسكندرية واثخن فى الصليبيين وعساكر مصر وفتح الصعيد وجبى أمواله وأخيرًا اتفقوا عَلَى أن تبرح جنود نور الدين والصليبيين مصر بشرط أن يدفعوا إلى شيركوه خمسين ألف دينار سوى ما جباه من الأموال فتمت المعاهدة ورجع إلى الشام. لكن

الصليبيين نقضوا وتواطأوا مع المصريين عَلَى أن يكون لهم بالقاهرة شحنة تحرس أبواب المدينة ويعطى لها معاشًا سنويًا مائة ألف دينار من واردات مصر فتجاوزوا هذا الحد وتجبروا وطمعوا فى استملاك البلاد وأرسلوا جندًا للاستيلاء عَلَى مدينة بلبيس وأفحشوا فيها وحاصروا القاهرة فاستغاث الخليفة العاضد بنور الدين واستنجده فلباه بإرسال أسد الدين مع جيش كبير مجهز بالمهمات وأعطى لكل جندى علاوة عَلَى راتبه عشرين دينارًا فساروا حتى قاربوا مصر فرحل الفرنج عنها واستمر أسد الدين فى سيره حتى قدم القاهرة فدخلها ورضى عنه العاضد لكن شاور أخذ يماطل فى قطاع الجند وثلث البلاد ففرغ صبر صلاح الدين وفتك به فخلع العاضد على شيركوه خلع الوزارة ولقبهُ الملك المنصور. وبعد شهرين وخمسة أيام من تاريخ وزرته توفى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾[1] فهب أمراء الأجناد يطالبون منصبه وكل منهم جمع أصحابه ليغالب عليه فاختار العاضد يوسف صلاح الدين ابن أخى أسد الدين وولاه الوزارة وخلع عليه مراسميها ظانا أنه صغير السن قليل الاختبار و الدربة فيتمكن منه بما يريد ويستميل الجند ويخرجه من بلاده ويسترد استقلاله. وطمع الفرنج فى صلاح الدين وحاولوا امتلاك مصر فساروا إلى دمياط وحصروها سنة ٥٦٥ هـ وسنة ١١٦٩م فقاومهم صلاح الدين وأغار على بلادهم الشامية وناوأ الكرك فخافوا العقبى وارتدوا عَلَى أعقابهم داقتفاهم وكبس عسقلان والرملة ونهب ربض غزة وفتح فرضة ليلة «العقبة» ثم أرسل اخاه شمس الدولة إلى اليمن ففتحها وتوغل هو فى السودان وضمهُ إلى مصر فدبت الغيرة فى صدر نور الدين وخشى أن يتفق صلاح الدين والفاطميون ويخلعوا طاعته فطلب إليه أن يقطع خطبة العاضد ويخطب إلى المستضئ العباسى ابتغاء جمع الكلمة فتردد صلاح الدين قليلا ثم أمر سنة ٥٦٧ هـ وسنة ١١٧١ م بلبس السواد شعار العباسيين وخطب فى الجوامع للمستضئ وقطع خطبة الفاطميين فانقرضت الخلافة الفاطمية بعد أن دامت

---

(١) سورة الأنعام الآية ٤٤

٢٦١سنة فلم تطب نفس نور الدين وخاف العقبى فاستوحش صلاح الدين وسعى ليبقى الفرنج حاجزًا بينهما وكم حاول نور الدين الاجتماع به فلم يتوفق لأنه كان إذا ما اقترب منهُ قفل راجعًا إلى مصر متعللاً بالأعذار وظل يراوغ أحدهما الآخر حتى توفى نور الدين واستخلف بعده ولده الملك الصالح إسماعيل فخطب له صلاح الدين وضرب السكة باسمهِ وتربص مترقبًا حصول فتنة أو خلاف فى بيت زنكى فلما حدث أسرع إلى دمشق وفتحها وهو يظهر الطاعة إلى الملك الصالح الذى كان يخاطبه بالمملوك ثم فتح قلعة حمص وبعلبك وحماه وغير ذلك.

وفى سنة ٥٧٣ هـ سار صلاح الدين إلى ساحل الشام فوصل عسقلان وبث السرايا للغارة والإرهاب وانفرد بثلة قليلة من الجند فباغتهُ الفرنج على نهر روبين وفتكوا بجنده فرجع مخذولاً وأرسل إلى أخيه توران شاه يقول:

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

نجونا من الموت الوحى غير مرة وما يثبت إلا وفى نفسها أمر

وفى سنة ٥٨٠ هـ بنى الفرنج حصنًا منيعًا بمخاضة الأحزان (جسر بنات يعقوب قرب صفد) فعز ذلك عَلى صلاح الدين فواقعهم وبعد معركة شديدة أسر فيها حكام الرملة ونابلس وطبرية وجنين. فتح الحصن وهدمهُ وكان فخر هذا النصر إلى فرخشاه ابن أخى صلاح الدين الذى غشى الوغى وهو يتمثل:

فإن تكن الدولات قسمًا فإنها لمن يرد الموت الزؤام تؤول

وَمَنْ هوَّن الدنيا على النفس ساعة وللبيض فى هام الكماة صليل

إن الحركات الحربية بين الصليبيين والوطنيين كانت تدور شرقى القدس عَلَى الكرك والشوبك لأنهما فى طريق الحج وجسر اتصال بين الشام والحجاز ومصر ومن جهة غربها عَلَى عسقلان لأنها محطة الارتباط بين مصر ودمشق فمن يملك هذين المركزين كان يقطع المواصلات ويعوق الحركات وقد أدرك الصليبيون مكانة هذه النقط فامتلكوها واحتفظوا بها وحصنوها فحجزوا ما بين مصر والشام وضيقوا مجرى تنفسهما بل داخلهم الغرور وطمعوا فى مهاجمة مكة والمدينة المقدستين

للقضاء على الدين الإسلامى فسار البرنس ارنا (رينو) Renaud صاحب الكـرك إلى تيماء فى سنة ٥٧٧هـ وسنة ١١٨٢م مستطلعًا فسمع بذلك عز الديـن فرخشـاه والى دمشق وسار مجدًا إلى الكرك فنهب بلادها وصد ارناط عن التقدم ولكـن فـى سـنة ٥٧٨هـ نضجت فكرة فتح الحجاز فى دماغ البرنس ارناط وعزم عَلِى خَضَدِ شـوكة المسلمين فعمل أسـطولاً وجمـع قطعـه مفككـة وحملـها إلى بحـر إيلـة ثـم ركبـها وشحنها بالمقاتلة وسيرها فى البحر الأحمر وحصر من فى إيلة ومخر من معه بحر عيذاب وأفسدوا السواحل فعرف الملك العادل وأمر قـائد أسـطوله لؤلـؤًا بمطاردتـهِ فسار وبلغ إيلة وقتل من عليها وتبع من فى البحر بمراكبهِ وجنـده فأدركـهم فـى ساحل الجوزاء وأوقع بهم فاعتصموا بشعاب البر فأخذ خيلاً من الأعراب وأركبها جنده وما زال يقاتلهم حتى ظفر بهم وأسر منهم كثيرًا ونحرهم وسار صلاح الديـن من دمشق إلى طبريا فخيم فى الأقحوانة ونزل الفرنـج طبريـا فشد فرخشـاه عَلَـى بيسان وفتحها وغنم ما فيها ثم أغـار على جنين واللجون ومرج عكا.

وعاود الكرة ثانية ففزا بيسان وخربها وأغار عَلَى الكرك ولما صدر عنـها نـهب مدينة نابلس وأحرقها ونهب كل ما عَلَى طريقـها ونـهب سبسطية وجنـين وفـى سنة ٥٨٢هـ انحاز كونت (قُمص) طرابلس إلى صلاح الدين فوعده بالمناصرة وضمن له أن يجعله ملكًا مستقلاً وأطلق من عنده من أسراء. وقد طاش سهم البرنس أرناط فغدر بعهده بعد الهدنة وأغار عَلَى قافلة عظيمـة كـان فيـها أخـت صـلاح الديـن فنهبها وأسر رجالها. فغضب الأفضل بن صلاح الديـن وغـزا بـلاد عكـا وحـارب الأعداء فى قرية صفورية فكسرهم وقتـل عـددًا مـن شـجعانهم ولكـن جميـع هـذه المواقع مع الفرنج لم تكن سوى مناوشات ومقدمات لمعركة فاصلة إما أن تكـون لـه أو عليه.

٥٢ - معركة حطين(*)

رأى صلاح الدين الفرنج قد أسسوا أربع مقاطعـات فـى داخـل مملكتـه: الأولى مقاطعة القدس والثانية طرابلس الشام والثالثـة إنطاكيـة والرابعـة الرهـا وارفـا وأن

(*) قرية صغيرة واقعة فوق تل يشرف على غرب بحيرة طبريا

تلك المقاطعات بؤرة ثورات وفساد فى قلب مملكته. وكان أشدهن تنكيلاً برجاله وأثقلهن عليه مقاطعة فلسطين وأعظم أبطالها وأعندهم البرنس ارناط صاحب الكرك الذى حاول احتلال الحجاز وتعرض لأخت صلاح الدين وكرر نكثه للعهود مما أسخط المسلمين وأحفظهم عَلَى صلاح الدين فأطالوا ألسنتهم وفوّقوا إليهِ سهام السباب واللعن وقالوا: «ترك قتال الفرنج وأقبل عَلَى المسلمين يقاتلهم ويفتح بلادهم». فتحركت لذلك غيرة صلاح الدين واستفز الناس للجهاد وجمع جيشًا عرمرمًا وعسكر فى سهل الاقحوانة واستشار فأشار عليه بعضهم بترك مناضلة الأعداء والاكتفاء بشن الغارات وأشار عليه الآخرون بملاقاتهم ومناجزتهم فعزم عَلَى المناجزة والدخول مع الفرنج فى ملحمة كبرى فسار إلى طبرية وفتح المدينة دون القلعة وأحرق ما فيها من الذخائر الفاضلة عن حاجتهِ واحتفظ بمنابع المياه ولما أحس الفرنج بعمله استخفوا به وبجيشه وساروا إلى ملاقاتهِ فى ٢ تموز الموافق ٢٤ ربيع الآخر فاشتد عليهم العطش من حمارة القيظ وتقابل الفريقان فى سهل قرية لوبيا وعزم الفرنج عَلَى ورود الماء فأدرك صلاح الدين مرادهم وصدهم عنهُ وأمر بإحراق العشب والأشواك فأخذ منهم الظمأ كل مأخذ وحملوا حملات عنيفة كادوا يزيلون بها المسلمين لولا ثبات أبناء فلسطين الذين استماتوا فى حومة الوغى حتى هب عليهم ريح النصر وكسروا الفرنج وركبوا أقفيتهم وطحنوا جيشهم حتى لم تقم لهم بعدها قائمة وتقدر قتلاهم فى حطين بثلاثين ألفًا خلا الأسرى فقد أسروا كثيرا من أبطالهم منهم الملك (Guy) غاى ورنو (ارناط) صاحب الكرك وبعد أن فرغ المسلمون من القتال فائزين جلس صلاح الدين فى خيمتهِ وأحضر ملك الفرنج ورنو صاحب الكرك وأجلس الملك إلى يمينه وأعطاه ماءً مثلوجًا فشرب وأعطى فضله البرنس ارناط فغضب السلطان وقال للملك إن هذا الملعون لم يشرب بإذنى فينال أمانى ثم التفت إلى البرنس وذكره بذنوبهِ وعدد عليه عوراته وقام إليه بنفسهِ وضرب رقبته وقال كنت نذرت مرتين أن أقتله إن ظفرت بهِ الأولى حينما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القافلة غدرًا ثم أمر بهِ فسحب إلى خارج المكان وباسط الملك وأمّنهُ.

كانت معركة حطين من المعارك الفاصلة التى ختمت الحروب الطويلة بين الشرق والغرب وجدير بأهل فلسطين أن يجعلوا يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة٥٨٣هـ عيدًا سنويًا وتذكارًا روحيًا عظيمًا فإن فيهِ خضدت شوكة الجيش الصليبى وفلّ حده وقويت جموع الوطنيين وانتعشت نفوسهم فعادوا إلى طبريا وتسلموا قلعتها من زوجة صاحبها أمانًا ووفى لها صلاح الدين ثم سار إلى عكا وامتلكها وجاءَ الملك العادل من مصر وفتح حسن مجدل يابا (مجدل الصادق) ويافا وساحت عساكر السلطان فى البلاد ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا فالشقيف وغيرها من البلادالمجاورة ثم سبسطية ونابلس واجتمع عسكر الملك صلاح الدين بجنود أخيه العادل وساروا إلى عسقلان وفتحوها وبثوا السرايا فى أطراف البلاد المجاورة ففتحوا الرملة واللد وغزة والخَليل وبينة وبيت لحم وبيت جبرين. وأمر قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤًا أن يقطع طريق البحر ويتصيد مراكب العدو ويمنعها أن ترسوا عَلَى سواحل البلاد وأرسل رسلاً لمفاوضة أهل القدس كى يسلموا المدينة فرفضوا فنهد إليهم بجنده وخيم على التكفورية بين المحطة وبركة ماملا وظل خمسة أيام يطوف حولها لينظر أى الجهات أسهل للمهاجمة ثم انتقل بجيشهِ إلى الشمال الغربى جهة المسكوبية وباب العمود وباب الساهرة وشدد الحصار فسلمت المدينة يوم الجمعة فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ وفى ٢ تشرين أول سنة ١١٨٧م عَلَى شروط منها:

أن يؤُخذ عن كل رجل ١٠ دنانير والمرأة والولد ديناران فدية ومن لم يدفع حتى أربعين يومًا يصبح مملوكًا للعرب فبذل باليان عن فقراء قومه ثلاثين ألف دينار ووضع صلاح الدين عَلَى أبواب البلدة أمناء ليأخذوا ما ضرب عَلَى الفرنج وأظهر من العدل والعظمة ما شهد له بهِ الأعداء فسمح لنساء الملوك والأميرات بحشمهن وخدمهن ولم يأخذ من البطريرك إلا عشرة دنانير ولم يشره إلى ما كان معهُ من الأموال والذخائر وعامل نصارى العرب معاملة حسنة وترك لهم أموالهم وأملاكهم وسمح لهم أن يشتروا متاع الإفرنج وقد وهب لمظفر الدين كوكبورى ألف مملوك من الفرنج فأعتقهم ووهب أيضًا لأخيه العادل ولكثير من الأمراء أمثال ذلك ووزع الأموال والدواب على الضعفاء ورفق بالفقراء فسمح لهم بالخروج من باب

العمود وأرسل معهم جنودًا لإيصالهم إلى المدن التى كانت لا تزال فى أيديهم فأنكرهم إخوانهم وأبوا قبولهم وأغلقوا الأبواب فى وجوههم وأرسلوا خلفهم من نهب متاعهم. فتاهوا فى الفيافى وتشتتوا فى أنحاء البلاد فرثى لهم عدوهم العربى ورحمهم وأغلظ لهم صديقهم الغربى وجفاهم مشايعهم الأفرنجى ولو أنا قابلنا هذا العمل بما أتاه الفرنج قبل ٨٨ سنة لرأينا الأخلاق والإنسانية والمكارم وعزة الملك وكبر النفس جلية فى أعمال صلاح الدين وشهدنا القساوة والفظاعة والتوحش والتعصب واضحًا فى أفعال غودفرى الذى قضى على ألوف من المسلمين.

أكمل صلاح الدين الأيوبى عمله وشرع ينظم المدينة فأزال كل أثر صليبى فى الصخرة والمسجد الأقصى وكسر الصور والتماثيل الصغيرة والصلبان التى نقشوها ونقل إلى المسجد الأقصى المنبر الذى أمر بصنعهِ نور الدين زنكى فى حلب وبلغ فى إتقانهِ فاستغرق عمله عدة سنوات وكان بين صنعه ونقله إلى القدس ٢٠ سنة وأمر بعمارة المسجد الأقصى وتحسينه وترصيفه بالفسيفساء والرخام وغير ذلك مما يحتاج إليه وجعل كنيسة القديسة «حنة» مدرسة للشافعية (الصلاحية) وأخذ قسمًا من منزل البطريرك وحَوَّله إلى جامع وخانقاه للصوفية (الخانكى). وفى سنة ٥٨٤هـ فتح الملك العادل قلعة الكرك والشوبك وسار صلاح الدين إلى صفد فامتلكها وذهب من فيها إلى صور وفتح حصن كوكب بعد عناء والتحق فرنجه بصور حتى غصت بالمهاجرين وانقلب افراط صلاح الدين وتساهله مع الفرنج وبالاً عليه حتى قال ابن الأثير (لم يكن لأحد ذنب فى أمر صور غير صلاح الدين فإنهُ هو الذى جهز إليها جنود الفرنج وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا والقدس وعسقلان) فأصبحت مركزًا لحملاتهم ونجداتهم ولكن سورية ومصر أصبحت متصلة بعضها ببعض لا يفصلهما تخم ولا يحجز بينهما عدو.

٥٤ - الحملة الصليبية الثالثة

كان العالم الإسلامى يظن أن الحروب الصليبية قد انتهت ولم يدر أن وقوع القدس فى يد صلاح الدين أحدث تأثيرًا عظيمًا وصدى سيئًا فى نفوس الغربيين

فقام منهم رجال كثيرون وحرضوا قومهم عَلَى استرجاع القدس وانتزاعها من أيدى المسلمين فنجحوا وأجمعت أمم أوروبا وحكوماتها ثانية عَلَى محاربة الشرق الأدنى وإعلان النفير العام لاسترجاع القدس فهب ربكاردوس البطل الشهير الملقب بقلب الأسد وترك عرشه فى إنكلترا رغبة فى إنقاذ بيت المقدس ونهد إمبراطور ألمانيا بربروسا (ذو اللحية الحمراء) وآزرهما فيليب أوغسطس ملك فرنسا فغرق ملك الألمان فى نهر سالون قرب أنطاكية ورجع فيليب إلى فرنسا بعد فتح عكا وقام بالمهمة قلب الأسد.

تكاثرت جموع الفرنج فى صور فتحمسوا وجددوا نشاطهم واضطرمت النار بغتة فى صدورهم فساروا بجموعهم إلى عكا فخف لصدهم صلاح الدين فسبقوه لأنه كان وقتئذ موعوكاً فمرَّ بكفر كناوخيم عَلَى تل كيسان وامتدت ميمنته إلى تل العياضية وميسرته إلى نهر المقطع وأنزل الأثقال فى قرية صفورية واستعرت الحرب بين الفريقين وحدثت موقعة طاحنة انهزم فيها قسم من الوطنيين وفاز الباقون وظفروا بعدوهم ثم انتكست صحة صلاح الدين فرحل إلى الخروبة (تل الفخار) حيث توفى أحد قواده ضياء الدين عيسى الهكارى العلمى الحسنى فنقل إلى القدس ولما أبلّ صلاح الدين عاد إلى مخيمه القديم (تل كيسان) فوجد الفرنج يجدون فى حصار عكا وقد احتاطت بها أبراجهم فاخترع على بن عريف النحاسين الدمشقى نفطاً أحرق به الأبراج الثلاثة فاطمأن السلطان ورجع إلى الخروبة ونقل أثقال المسلمين إلى قرية الدامون (سيمون) الواقعة على بعد ٣ فراسخ من الخروبة وقد ذكر ابن الأثير أن نصارى العرب كانوا مأمورى إعاشة جيش صلاح الدين وخزنة أمواله وكان مركزهم فى مدينة حيفا وظل الحرب سجالاً إلى أن قدم فيليب ملك فرنسا فجد فى قتال مسلمى عكا وشدد فى حصارهم فكان صلاح الدين يركب يوميًا من شفا عمرو ويشاغلهم بالقتال ليفرج عن البلد فلما أتى قلب الأسد تحول صلاح الدين ونزل عليهم لئلا يتعب عسكره من الغدو والرواح وفى ١٧ جمادى الأخرى استولى الفرنج عَلَى عكا سلمًا بشروط غدروا ولم يفوا بها وانحدر قلب الأسد جنوبا وعسكر صلاح الدين بجانبهم من جهة الشرق فالتقوا فى مدينة ارسوف (على مقربة من حرم على بن عليم) واضطربوا فهزم جيش المسلمين وأخذ

الفرنج يفتحون البلاد الصغيرة حتى إنهم دخلوا يافا ولم يجدوا فيها أحدًا. أما صلاح الدين فإنهُ استشار قواده فى شأن عسقلان فقرروا هدمها لمكانة موقعها الحربى ولعجزهم عن حمايتها ولأن من يستولى عليها يستطيع أن يقطع الطريق بين مصر ودمشق وقد ذكرنا سابقًا أن صلاح الدين كان يرسل نجداته وجيوشه عن طريق البادية خيفة هجمات الحصون الساحلية. فهدم صلاح الدين مدينة عسقلان وباع أهلها كل ١٢ دجاجة بدرهم وانقلب إلى الرملة فخرب حصنها وهدم قسمًا من اللد وخرب قلعة الاطرون. فأخذ المركيز كونراد قلب الأسد على تمكين أعدائه من هدم وتخريب عسقلان ولكن قلب الأسد لم يعبأ بتقريعهِ ومال إلى عقد هدنة وفاوض الملكِ العادل وكان يدخل معسكر المسلمين ويطرب إلى موسيقى العرب ويعجب بنغماتها وبعد المذكرات اتفقا عَلَى شروط وهى:

– أن يتزوج الملك العادل أخت قلب الأسد أرملة ملك صقلية وتكون القدس وما فى أيدى المسلمين من بلاد الساحل للملك العادل وعكا وما فى أيدى الفرنج من البلاد لأخت قلب الأسد مضافًا إلى أقطاعها فى بلادها ووافق على ذلك صلاح الدين إلا أن القسيسين والأساقفة حالوا بين ذلك ومنعوه فانقطعت المفاوضة وعادت البلاد إلى الحرب فناجز صلاح الدين الفرنج حتى الشتاء ثم انسحب إلى القدس فتبعوه إلى الاطرون ففزع منهم وأمر بعمارة سور بين المقدس وتجديد ما رث منهُ وكان ينقل الحجارة بنفسهِ مع العمال وأحكم المحل الذى ملك منهُ البلد وأتقنه وقوَّاه وأمر بحفر خندق خارج السور وسلم كل برج إلى أمير فرجع الصليبيون إلى الرملة ومضوا إلى عسقلان وشرعوا فى عمارتها لما لها من المركز الحربى والتجارى.

وفى سنة ٥٨٨هـ استولى الفرنج عَلَى حصن الداروم[1] ورجعوا إلى قرية بيت نوبة ومنها إلى قلونية فردتهم سرايا المسلمين فأغاروا عَلَى قافلة بجوار الخليل وأوقعوا بها ونهبوها. فغضب لذلك صلاح الدين وحاصر يافا وملك المدينة دون

(١) بين غزة والعريش ونظنه تل العجول وفى جنوب غزة محل يدعى باب الداروم يؤدى إلى ذلك التل الذى يبعد فرسخًا من البحر كما ذكر.

القلعة ثم تركها وعاد إلى الرملة وفى شهر شعبان الموافق لشهر أيلول من السنة المذكورة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة على شروط منها:

١ – أن تظل عسقلان خرابًا وتبقى أملاك صلاح الدين فى يده وأملاك الفرنج فى أيديهم وهى يافا وقيسارية وارسوف وحيفا وعكا وأعمالها جميعًا أما اللد والرملة فتبقى (مناصفة) مشتركة بين الفريقين.

٢ – وأن تكون الهدنة ٣ سنين و ٨ شهور.

٣ – وألاّ يتعرض الصليبيون لبيت المقدس.

٤ – وأن يسمح صلاح الدين لزوار الفرنج بدخول القدس فأتى الزوار إليها وزاروها فعلاً وسمى هذا الصلح (صلح الرملة) وبعد انعقاد الهدنة رحل قلب الأسد إلى عكا ومنها إلى إنكليرا فتفقد صلاح الدين القلاع والحصون ثم ذهب إلى دمشق بعد أن أناب عَلَى القدس الأمير جورديك ولكن فاجأته المنية فى صفر سنة٥٨٩هـ الموافق شهر شباط سنة ١١٩٣م فدفن فى القلعة ثم نقل إلى جوار الجامع الأموى وقبره مشهور ولابد هنا من أن نذكر صفحة من حسنات هذا البطل العظيم والقائد الكبير فنقول:

إنه وإن كان صلاح الدين كرديًا(*) فإنه كان من عظماء رجال الإسلام وقد خدم العرب خدمات جليلة وأظهر من محاسن الشيم ما خلد ذكره فمنها:

١ – معاملته الحسنة لصليبيى بيت المقدس مع أنهم من الدّ أعدائه.

٢ - ملاطفة أسرى حطين وتقديم الماء المثلوج إلى الملك.

٣ – إكرام وفادة أرملة رنو صاحب الكرك لما جاءت تطلب ابنها.

٤ – حفظه للعهود واستكباره غدر الفرنج ونكثهم بها وعفوه عمن أراد قتله. إلا أنهُ كان مفرطًا فى الحلم وكل شىء تجاوز حده انقلب إلى ضده فإن قواده طمعوا فيه وأخذوا يخالفون أمره.

(*) ذهب كثير من المؤرخين أن بعض القبائل العربية نزحت إلى بلاد الأكراد فامتزجت بالقبائل الكردية ويرجعون بنسب صلاح الدين إلى الحسن بن على بن أبى طالب.

إن صلاح الدين لم يكن قائدًا فقط بل كان رجل أخلاق ودين يغار عَلَى الإسلام ويدافع عنهُ بكل غيرة وإخلاص فقد جمع كلمة المسلمين المتفرقة وألف بين قلوبهم وأخرج الأجانب من ديارهم وأباد الفاطميين وأيد كلمة العباسيين وبنى المدارس والرباطات ومات ولم يترك فى خزينته سوى دينار وأربعين درهمًا فمن للشرق اليوم بمثل هذا البطل العظيم ينهض به من كبوته وينقذ أهله من براثن الموت والشقاء.

٥٥ - صلاح الدين ومواسم فلسطين وشىء عن القبائل:

فتح الفرنج البلاد فأخذوا يظلمون العرب مسلميهم ومسيحيهم فنزح بعضهم إلى الأقطار العربية الخارجة عن سلطة الفرنج فلما استجاش صلاح الدين الملوك والأمراء والقبائل وصدم الفرنج فى وقعة حطين وأزاحهم عن البلاد شغرت أكثر مدن فلسطين فاسكنها القبائل وأقطعها لهم فتوطن القدس موقتًا قبائل بنى حارث وكانت منازلهم خارج المدينة عند القلعة وحارة بنى مرة فى جهة الغرب الشمالى إلى سوق الفخر «خان الزيت» وحارة السعدية لبنى سعد(*) ويلى عقبة الشيوخ من جهة الشمال حارة بنى زيد وحارة الجرامنة سوق القطانين ثم وزعهم عَلَى البلدان التى حول القدس فأخذ بنى زيد ١٩ قرية شمال رام الله والحق بهم بنى مرة وهم ثمانى قرى وبنى سالم وهم فى أربع قرى وعهد إليهم بحماية برج مجدل يابا «مجدل الصادق» وماء نهر الأعوج والطريق بين القدس ونابلس. وأنشأ لهم موسمًا فى مقام النبى صالح يقام فى جمعة زفة البيارق «الجمعة الحزينة» فى القدس وأعطى بنى حارث ١٧ قرية جنوب بنى زيد وعمل لهم موسمًا فى النبى عنير يوم الجمعة المذكورة واختص الأمراء الجرامنة بسواحل يافا والعراق ووادى الصرار وبنى عمير وأخذ بنى حمار ١١ قرية وجعل لهم جميعهم موسم النبى صالح فى الرملة وأخذ بنى صعب ٢٨ قرية والحق بهم الشعراوية وعين لهم موسمًا فى

(*) منهم دار نجم وغيرهم كان لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه فى يدهم وكان لهم مضافة فى حيهم.

أبى العون وعلى بن عليم ثم تحول زمانه واختلف عن المواسم الأخرى وأنشأ بغزة موسم الداروم وعمل إلى بدو غزة موسم المنطار والى بدو عسقلان وأطرافها موسم الحسين وعين إلى عرب المساعيد والمشالخة والصقر موسم أبى عبيدة بن الجراح وجعلها جميعها تابعة لموسم النبى موسى الذى جمع له بنى مالك وهم ٢٤ قرية وبنى حسن وهم ١٣ قرية وجبل القدس وهم ٢٢ قرية والوادية وهم ٩ قرى وعززهم بجبل الخليل وجبل نابلس الذين يردون متعاقبين إلى القدس. وتتوافد قبائل شرقى الأردن إلى مشهد النبى موسى فتصادف جميع هذه المواسم عيد الفصح الذى يأتى فيه الأوروبيون لزيارة القدس فتكون آنذاك الأهالى فى نفير عام قد تجمهروا فى شعبات أخذ عسكر بنى صالح بنى زيد وبنى عنير بنى حارث وبنى صالح الرملة وروبين يافا وحسين عسقلان ومنطار العربان وداروم غزة وأبى العون بنى صعب وأبى عبيدة الغور ونبى موسى القدس مستعدين بسلاحهم وذخائرهم ومؤونتهم لمفاجأة الطوارئ فإذا ما حدث فتق فزعوا لرئقه لأن السلطان صلاح الدين ألف من غدر الصليبيين ونكثهم بالعود ما جعله يحتاط ويخشى إن هم دخلوا القدس زوارًا ينقلبون جنودًا ويحتلون المدينة ويمتلكونها سلمًا فأنشأ هذه المواسم موافقة لأيام عيدهم لتكون القدس حينئذ غاصة بأهالى الخليل ونابلس المجاورة وتكون البلاد كأنها ثكنة عسكرية متأهبة لرد كل غارة ودفع كل عداء. وبهذا العمل استطاع أن يأمن غدر الأجانب ويعصم البلاد من التعديات المتكررة ولما جاء الملك الظاهر بيبرس ومن خلفه من الملوك استحسنوا رأيه ونظموا هذا العمل وهو نظر بعيد وفكر صائب يستحق عليهِ الشكر الجزيل والثناء الخالدلانه عيد استقلال البلاد وذكرى خلاصها. وجدير بالأمة أن تستفيد من هذه المواسم الوطنية فوائد اقتصادية واجتماعية.

٥٦ - فلسطين والدولة الأيوبية سنة ٥٩٠ هـ - ٦٤٨ هـ وسنة ١١٩٣ م - ١٢٥٠ م:

أسست الدولة الأيوبية على عظمة صلاح الدين ودفنت بدفنه لأنه ألَّف بين عدة خيوط غير مؤتلفةٍ ولا متفقة فانتقضت من بعده وقد أحس صلاح الدين بهذا

الخطر الذى يتهدد دولته فجمع القواد والعساكر غير مرة وأخذ عليهم عهد الطاعة لولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين واقطعهُ دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وسورية الغربية فلما توفى صلاح الدين انتكث الغزل وانتثرت جماعاته أفرادًا وطمع بعضهم ببعض ونسوا عدوهم الغريب فاستقل الملك الظاهر فى حلب وسورية الشمالية وربض الملك العزيز فى مصر واستولى عليها وطمع الملك العادل أخو صلاح الدين فى الكرك والشوبك واحتمى بهما. فأصبحت فلسطين بهذا التقسيم موزعة بين ثلاث دول الملك الأفضل والملك العادل والفرنج ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً لأن الملك العادّل ولع بإغراء بنى أخيه عَلَى بعضهم بعضًا وأنساهم عهد صلاح الدين إلى الأفضل ومناهم بالملك فتشوف كل منهم إلى حصر السلطة فى يده والقضاء عَلَى ما سواه. فتنبه لذلك الملك الظاهر وقال للأفضل «اخرج عمنا من بيننا فإنهُ لا يجىء علينا منهُ خير ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد» فرفض الأفضل وظل منصاعًا لدسائس الملك العادل فحنق العزيز وسار إلى دمشق وحصر الأفضل بها فاستنجد عمه العادل واستحثه فاتاه بجند كثيف وترددت بينهم الرسل عَلَى أن يضم إلى العزيز القدس وما جاورها فرضى وقفل راجعًا ولكنهُ عاد إليها ثانية فلم يحل بطائل. ثم اتفق الأفضل والعادل عَلَى فتح مصر وضمها للأفضل مع دمشق فسارا وملكا القدس من واليها سنقر الكبير وجاسوا بلاد مصر فاذنلب العادل عن الأفضل ونكث عهده. ومالأ العزيز سرًا وتوسط فى الصلح عَلَى أن تظل البلاد كما كانت بشرط أن يقيم هو فى مصر فنجح وبعدئذ أقنع العزيز وراوده على فتح دمشق واستخلاصها من الأفضل ففعلا وأخذاها منه وعَوَّضاه قلعة صرخد فاستوطنها وشكا أمره إلى الخليفة الناصر فقال :

مولاى إن أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد أخذا بالظلم حق على

فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقى ... من الأواخر ما لاقى من الأول

فأجابه الناصر:

غصبوا عليًا حقه إذ لم يكن بعد النبى له يثرب ناصر
فاصبر فإن غدا عليه حسابهم وابشر فناصرك الإمام الناصر

فلما رأى الصليبيون الخلاف مستحكمًا بين العرب هاجموهم فناهضهم العادل وخيم على عين جالوت «بين جنين وبيسان» ثم رحل إلى يافا وملكها. وبعد أن توفى الملك العزيز سنة ٥٩٦ هـ ولى الأفضل الديار المصرية فخافهُ الأمير جركس «جهاركس» وفر إلى بيت المقدس وتغلب عليها ثم انضم إليه ميمون(*) القصرى حاكم نابلس فقويت شكوته وأرسلوا إلى العادل فجاءَ وأخذ البلاد من الأفضل وعوضهُ ميافارقين وبلادًا أخرى ولكنهُ لم يسلمها له.

وفى سنة ٥٩٧ هـ حدث زلزال هدم قسمًا من عكا ونابلس وفى سنة ٦٠٠ هـ تحرك الفرنج ونهبوا قرى الأردن فنهد إليهم العادل وعسكر قرب جبل طور الناصرة ثم عقدوا معاهدة عَلَى ما يأتى.

– أن يأخذ الفرنج الناصرة ويافا ويتنازل العادل لهم عن البلاد المشتركة بينهما كاللد والرملة وغيرهما.

ثم فى سنة ٦٠٩ هـ خرَّب الملك العادل حصن كوكب «قرب طبريا» ومحا أثره وبنى حصنًا عَلَى جبل الطور ثم خربه الملك المعظم سنة ٦١٤ هـ مخافة أن يملكه الفرنج لأنهم ثاروا وملكوا بيسان وعاثوا فى البلاد. ثم توفى العادل بعد أن قسم البلاد بين أولاده فجعل الملك الكامل عَلَى مصر والملك المعظم عَلَى جميع سورية فسار الملك المعظم وهدم أسوار القدس لعجزه عن حمايتها وخوفه أن يحتلها الفرنج ويمتنعوا بها وعمل أبواب الخشب التى عَلَى باب المسجد وأوقف لمسجد الخليل حاصلات قريتى دوره وكفر البريك. وفى سنة ٦٢٥ هـ سار الملك الكامل بعد وفاة أخيه المعظم وامتلك القدس ونابلس ثم تأخر إلى تل العجول(*) مشاقًا لإخوانه فقابله الملك الاشرف وحذره عاقبة الخلاف فرضى ولكن نفسه كانت تحدثه بامتلاك جميع البلاد غير ملتفت إلى النجدات والحملات الصليبية

(*) المنتسبة إليه المدرسة «المامونية»

(*) تل يبعد إلى الجنوب من عزة ١٥ كيلو متر تقريبًا وربما كان حصن الداروم.

المتعاقبة التى حاولت استرجاع القدس ولم تفلح. فلما استحكم وأعلنت المشاجرة بين أبناء العادل تسابقوا إلى مرضاة الفرنج ابتغاء التفرغ إلى بعضهم البعض فجاء فريدريك إمبراطور ألمانيا سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م وعقد معه الكامل هدنة عَلَى هذه الشروط:

١ – أن يسلم إلى الفرنج بيت المقدس مع بعض ملحقاتها بشرط ألاَّ يعمروا السور الذى خره الملك المعظم ولا يتصدوا لقبة الصخرة ولا للجامع الأقصى.

٢ – أن تظل «الرساتيق» الخليل ونابلس وطبريا والغور فى يد المسلمين. فتم هذا الاحتلال السلمى الذى لم يصادف قبولاً من الفرنج لأن الإمبراطور فريدريك كان محرومًا من البابا وغضب المسلمون عَلَى الكامل لأنه سلم القدس للفرنج بلا داعٍ يستند عليه إلا ليتقوى بهم على إخوانهِ وأبناء عمهِ. وفى سنة ٦٣٥ هـ توفى الملك الاشرف ملك دمشق وعهد بها إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل وفى سنة ٦٣٦ هـ أعطى الصالح أيوب سنجار والرقة إلى الملك الجواد وأخذ منهُ دمشق فطمع بمصر وسار بعساكره ليأخذها فغدره الملك الصالح إسماعيل والملك المجاهد «صاحب حمص» وهجما عَلَى دمشق وأخذاها فلما بلغ الصالح أيوب الخبر وهو بالغور تفرق عنه جنوده فقصد نابلس ونزل بها فسار إليه الملك الناصر صاحب الكرك وأمسكه فاعتقله فى الكرك وأكرمه ثم جاء القدس فحصرها وفتحها وخرب قلعتها التى بناها الفرنج وخرب برج داود وعاهد الصالح أيوب وتحالفا على الصخرة بأن تكون مصر للصالح وسورية للناصر إذا هما امتلكاها فتوجها إلى مصر وفتحاها فخاف الصالح إسماعيل وسلم الفرنج سنة ٦٣٨ هـ صفد والشقيف وفى سنة ٦٤١ هـ اتفق الصالح إسماعيل والناصر داود مع الفرنج واعتضد بهم وسلما إليهم طبريا وعسقلان فعمروا قلعتهما ثم أباحا لهم القدس فغضب الصالح أيوب واستدعى الخوارزميين المنهزمين من وجه المغول وجنكيز خان.

٥٧ - الخوار زمية:

ينتسب هؤلاء القوم إلى بلاد خوار زم شرقى بحر قزوين وهم تتر كانوا أصحاب حكومة ودولة فلما طم عليهم سيل المغول وأباد حكومتهم ساحوا فى البلاد يقتلون

وينهبون كل من اعترض طريقهم بلا تفريق بين دين ومذهب وصدف أن كان الناس فوضى قد انقسموا عَلَى أنفسهم وتفرقت كلمتهم فأصبح كل زعيم لا يهمه سوى الاستئثار بالسلطة ولو بهدم أهله وذويه فمصلحته الشخصية فوق كل شيء إذا زاحمهُ قريبه استعان عليهِ بعدوهما الذى يجهز عليه بعد القضاء عَلَى ابن عمه فيكون بذلك كالباحث عن حتفهِ بظلفه قد طعن نفسه وهدم عشيرته وأهله الأقربين بمعول حب الذات والنفوذ.

ظل جنكيز خان المغولى يدحرج الخوارزميين وهم ينحدرون أمامه ولم يعقبوا حتى إذا وصلوا العراق جمعوا فلولهم ونظموا صفوفهم وأخذوا يتوسلون إلى الملك الصالح أيوب بقربى الدين لظنهم أنه أقوى الملوك فاستدعاهم إليه لمحاربة الفرنج وبنى عمه فاتفقوا معهُ عَلَى شرط أن يقطعهم الاقطاعات ويسكنهم البلدان فساروا إلى غزة سنة ٦٣٢ هـ وانضموا إلى أمير العساكر المصرية وقاتلوا الفرنج وعسكر الشام بظهر غزة فهزموهم واستولى الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل وفتح القدس وقطع رؤوس الكهنة وخرَّب القبر المقدس والقى الرعب فى قلوب الأهلين.

ثم بدر الصالح إلى دمشق وحاصرها وفى سنة ٦٤٣ هـ فتحها وخاس بعهده مع الخوارزميين فنقموا عليهِ وحالفوا الملك الصالح إسماعيل عم الصالح أيوب وانضم إليهم أمراء المصريين والملك الناصر داود صاحب الكرك وحصروا دمشق فقلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة ولكن واليها حسام الدين قام فى حفظها خير قيام فانخذل المتحالفون وردّوا عَلَى أعقابهم خاسرين فهاجم الصالح أيوب شرقى الأردن واستولى على مدنه وتسلم الكرك سنة ٦٤٧ هـ وفى سنة ٦٤٥ هـ استعاد المسلمون عسقلان وطبريا من الفرنج فتحمس أهالى أوروبا وجردوا حملة صليبية سنة ١٢٤٨ م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا فعرجت عَلَى مصر وحاصرت دمياط فغلبهم المصريون وشتتوا شملهم ففر أكثرهم إلى فرنسا والبعض الآخر إلى عكا ومكث لويس ملك فرنسا ٤ سنوات فى فلسطين وهو يحصن قيسارية ويافا مخافة أن يأخذها منهُ الوطنيون ولم تحدثه نفسه بمهاجمة القدس وأخيرًا رجع إلى فرنسا مخذولاً ولم يقم للصليبيين بعد ذلك قائمة لأنهم مكثوا فى البلاد أذلاء

غرباء ضعفاء حتى سنة ١٢٩١ م وسنة ٦٩٠ هـ فسلموا عكا وصور وصيدا وبيروت وعثليت وانطرطوس وتركوا فلسطين وودعوها الوداع الأخير بعد أن دامت حروبهم قرنين وهم القوم الأشداء البواسل الذين عضدتهم أمم أوروبا أجمع فلم يظفروا بما أملوا وظلت البلاد عربية وانتهت روايتهم بالخسران.

٥٨ - أضرار الحروب الصليبية بفلسطين وفوائدها

هل أفادت الحروب الصليبية فلسطين أو أضرتها؟

ليس من السهل الجواب عَلَى هذا السؤال لأنهُ يفتقر إلى تفصيل ولكنا نجمل البحث فنقول:

تضرر الشرق عامة وأهل سورية وفلسطين خاصة بالحروب الصليبية أكثر مما استفادوا ولكن الفرنج جنوا منها نفعًا أرجح من أضرارهم. وهذه نبذة من مضارها الجسيمة.

١ - أنها أشعلت نار التعصب الدينى بين المسلمين والمسيحيين وزرعت النفور بين الأهالى ونظن أن مداخلة الفرنج فى أحوال سورية وفلسطين أضرت ببعض المسيحيين الوطنيين فأفسدت عقيدتهم الوطنية ومنتهم بأحلام جميلة فإذا هى سراب. وقد رأوا بأم أعينهم أن مسلمى العرب قد أحسنوا ورفقوا بمسيحى العرب فى حين أن الفرنج قد أساءوا إليهم وأنكروهم.

٢ - أن هذه الحروب الطاحنة أضعفت روح القومية العربية فى نفوس نصارى الشرق وزادوا ولاء لبنى دينهم الأجانب وأكرم بنصارى فلسطين العرب الذين حافظوا عَلَى جنسيتهم ولغتهم ونبذوا التعصب الدينى وراءهم ظهريًا ولزموا إخوانهم مسلمى العرب وأثبتوا أنهم من أبناء غسان وطى وتغلب الذين هم من صميم العرب.

٣ - فظاعة الحرب وسفك الدماء وتخريب البلدان والمدن وقطع الأشجار وتعطيل الأرض وانتشار الوباء وهدم المنافع العمرانية وبعبارة أخرى القضاء المبرم

عَلَى الحركة الاقتصادية ولذلك ارتفعت أسعار الحاجيات ستة أضعاف ما كانت عليه سابقًا.

٤ – تلطيخ الدين المسيحى والازدراء بتعاليمهِ ومبادئه لأن مسيحى الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم. وقد أجمع المؤرخون عَلَى أن المسلمين تقيدوا بالفضائل الدينية وراعوا المصلحة الإنسانية أكثر من الفرنج الناكثى العهود والقاتلى الأسرى والذين أفحشوا فى سفك الدماء لما دخلوا القدس وحقروا الديانة المسيحية فى مهدها ولكنهم ذهبوا وخلفوا بقايا كثيرة من جنسهم مما سنوضحهُ فى تاريخ قبائل وأسر فلسطين. فبعض الألقاب الموجودة فى بيت لحم والناصرة والقدس وبيت جالا وغزة ويافا تدل عَلَى أن حامليها ليسوا عربًا ولكن اصطبغوا وطبخوا فى معمل العربية وتزوجوا بنساء شرقيات عربيات وتوطنوا فى البلاد واندغموا فى أهلها وكذلك يوجد قبيلة بدوية خلف الجوف تدعى «صليبه» شقر الوجوه لا يتزوج العرب منهم ويدعون أن أصلهم صليبيون كما ورد فى تاريخ سينا والمقتطف.

أما الآثار الصليبية فلم يبق إلا قليلها: منها كنيسة الصلاحية وبقايا كنيسة البيرة والدير فى الرملة وحصن عثليت وقلاع صفد وطبرية والشوبك والكرك. ولم يؤثروا عَلَى لغة السكان ولهجتهم بل ظل العرب عربًا يخاطبون الفرنجة عند الحاجة بواسطة التراجمة ولم يتعلم أحد الفريقين لغة الآخر لما بينهما من سابق العداوة المتأصلة فكان إذا تغلب فريق عَلَى مدينة نزح عنها الآخرون ولكن لما طال بهم الأمد امتزجوا قليلاً فخف الكره والبغض كما ورد فى رحلة ابن جبير الأندلسى ومما قاله عن مدينة بانياس أثناء زيارته لسورية:

«هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهى صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر يفضى إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للفرنج يسمى «هونين» بين الفرنج والمسلمين ولهم فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ويتشاطرون الغلة عَلَى السواء

ومواشيها مختلطة ولا حيف يجرى بينهم.. الخ. ثم جاء إلى تينين فى عجلون حيث يقدمون فيه والضرائب «جمارك» فقال والضريبة دينار وقيراط صورية ولا اعتراض عَلَى التاجر ثم مرّ بضياع كثيرة وعمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون يؤدون للفرنج نصف غلتهم وديناراً وخمسة قراريط جزية عَلَى كل رأس ونزل بضيعة من ضياع عكا الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الفرنج فأضاف القافلة ضيافة حافلة وزار مدينة عكا ونزل بالخان ووصف كتاب الفرنج والسفن والمرفأ ومركزها التجارى وكثرة سكانها ثم ذهب إلى صور ومنها إلى الأندلس.

أما ابن بطوطة فجاء إلى فلسطين بعد ختام الحروب الصليبية من مصر عن طريق الساحل فقال: «إنه قدم قطية حيث تؤخذ فيها الزكاة وتفتش أمتعة التجار «جمرك» وهناك كتاب ومجباها كل يوم ألف دينار ذهب ثم جاء غزة فوصف عمارتها وأسواقها ومساجدها وعلماءها ومنها عطف على خليل الرحمن فقال إنها مدينة صغيرة الساحة وذكر مسجدها وموقعها الطبيعى وعرج عَلَى تربة يونس عليه السلام ثم زار بيت لحم وقال إنهم يضيفون الغرباء وأتى القدس فوصف قبة الصخرة ودهش بها وذكر فضلاء القدس وعلماءها وروى أن الأمير سيف الدين تنكيز حاكم دمشق جر الماء إلى القدس وسافر ابن بطوطة إلى عسقلان فوجدها خرابًا يبابًا [ولا ندرى لماذا لم يزر عسقلان لما كان فى غزة] ثم سافر منها إلى الرملة فقال إنها كثيرة الخيرات حسنة الأسواق وبها الجامع الأبيض وذكر بعض علمائها منهم مجد الدين النابلسى. ثم خرج منها إلى نابلس وقال إنها مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتونًا ومنها يحمل الزيت والصابون إلى دمشق الشام وبها تصنع حلواء الخروب ثم ذهب منها إلى عجلون فوصفها واجتاز غور أبى عبيدة ومر بمدينة عكا ومنها إلى صور فمكث فى سورية مدة ورجع إلى زيارة الحجاز فركب بصحبة الأمير محمد بن شيخ قبيلة العجارمة فمر بذرعاه ثم بصرى وزيزاء «جيزة» واللجوم وحصن الكرك ووصفهُ وبالغ فى مناعته».

٥٩ - فرسان مار يوحنا «الاسبتاليون»

أسس الصليبيون هذه الفرقة وألفوها لتمريض الجرحى والمرضى وخدمة الإنسانية البحتة «كالصليب الأحمر» فاتخذوا سمة خاصة وهى رسم صليب ذى ثمانى نقط عَلَى جنب لباسهم الأيسر وجعلوا دير مار يوحنا فى سوق افتيميوس جنوب كنيسة القيامة مستشفى لمواساة الضعفاء ثم تغيرت مهمتهم أثناء الحروب وأصبحت عسكرية محضة حتى إنهم كانوا أشد الجنود الصليبية عَلَى صلاح الدين وأكثرهم نكاية بجنده وأثبتهم أمامه ولما خرج الفرنج من القدس تحولوا إلى صور ثم إلى عكا وهناك استماتوا فى الدفاع عن الصليبيين ولكنهم جلوا وسكنوا جزيرة رودس حتى أخذها منهم العثمانيون فنزحوا إلى مالطة ولا يزال منهم جماعة تمثلهم وتحيى ذكرهم فإنهم أنشأوا فى القدس مستشفى عيون فى البقعة واقعًا بين بركة السلطان والمحطة ولا أحد ينكر ما له من الخدمات والأيادى البيضاء على سكان البلاد بمعالجة عيونهم ومداواتها ويؤمه فى عهدنا هذا ألوف من الناس للاستشفاء. ولهم أيضًا مضافة (Hospice) فى آخر شارع الخانقى بالقرب من سوق حان الزيت.

٦٠ - فرسان الهيكل

تألفت فرق صغيرة أخرى غير فرسان مار يوحنا أهمها فرسان الهيكل (الداوية) وكانت مهمتهم حماية الزوّار وإيصالهم إلى القدس وحراستهم من تعدى المسلمين غير أنهم تحوّلوا إلى فرقة عسكرية شديدة البأس والشكيمة واتخذوا الجامع الأقصى مقرًّا لهم وجعلوه مخزنًا لطعامهم وأسلحتهم وبنوا فيه محلات أخرى فاستبدوا وظلموا وولعوا بالنهب والسلب ولذلك أنذرهم صلاح الدين بأنه لا يأسر أحدًا منهم إلا قتله ونقم عليهم البابا والناس أجمعون فتلاشوا وانقرضوا.

أتى الصليبيون ففتحوا البلاد وتمكنوا بها إلى أن قيض الله للشرق البطل الكبير صلاح الدين رأس الأسرة الأيوبية فقضى عليهم وفتح معظم البلاد العربية ثم أورثها أخاه وأبناءه وتداولوها حتى سنة ١٢٥٠ م وسنة ٦٤٨ هـ حيث ضعفت

شوكتهم وتقلص نفوذهم ودالت دولتهم فقتل الملك الظاهر بيبرس توران شاه سنة ٦٤٨ هـ وانتخب بعده «شجرة الدر» وهى الملكة الوحيدة التى توجت فى الممالك الإسلامية العربية وضربت السكة باسمها وخطب لها فنفر أمراء دمشق وانضموا إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب فأعلنوا طاعته ودخلت جميع بلاد سورية فى حكمه فعظم الخبر عَلَى المصريين وخلعوها وولوا أمرهم عز الدين ايبك «المملوك» ولقبوه بالملك المعز فتزوج شجرة الدر ليرضى الشعب ولكنهُ لم يرق لهم هذا العمل واختاروا الملك الأشراف موسى بن يوسف صاحب اليمن وقرروا أن يكون ايبك أتابك جنده فغضبت دولة دمشق الأيوبية وسار الملك الناصر يوسف إلى مصر وحاول الاستيلاء عليها ولكنه فر منهزمًا واحتدم الخلاف بين مصر الأيوبية تحت إمارة المماليك ودمشق الأيوبية البحتة إلى أن أصلح بينهم الخليفة العباسى عَلَى أن يكون الحد الفاصل بينهما نهر الأردن. ثم ثار ايبك سنة ٦٥٢ هـ وخلع الأشرف واستبد بالملك فشق ذلك عَلَى المماليك ورحلوا إلى دمشق وأطمعوا صاحبها فى ملك مصر واستحثوه فسار إلى غزة وهناك اتفقوا عَلَى أن يكون حد الدمشقيين العريش. وفى سنة ٦٥٧ هـ قدمت عساكر هولاكو التترى وتملكوا الشام وقتل الملك الناصر ابن الأشرف سنة ٦٥٩ هـ فانقرض ملكهم من الشام كما انطفى من مصر.

obeikandl.com

الفصل الثانى عشر

فلسطين فى حكم المماليك

٦١ - المماليك البحرية

المماليك جمع مملوك وهم الجماعة الذين دخلوا خدمة الملوك والأمراء فترقوا من خادم إلى ملك ومن أجير إلى أمير ويرجع أصلهم إلى الأسرة المغولية من سكان أواسط آسيا. فالسلجوقيون والخوارزميون والمماليك والعثمانيون من فصيلة واحدة بعضهم نزح بعياله ومواشيه إلى حدود المملكة العربية خشية بطش جنكيز خان أو غيره وبعضهم كان يجلب ويباع فى العواصم أو يقدم هدايا للملوك والأمراء من كان منهم قويًا ذكيًا كان يقدمه جده ومقدرته فيلبس التاج ويؤسس مجدًا باسقًا ومن كان منهم ضعيفًا عاش خاملاً ومات خادمًا ومن يتصفح تاريخ الحكومات العربية ويستقصى حوادثها يدرك لأول وهلة سرًا خطيرًا وهو أن جميع الدول كانت تستكثر من الخدم (المماليك) وتكرمهم وتقربهم وترقيهم وتمنحهم ألقاب الأمراء وتقطعهم البلاد فيستبدون ويتحكمون ثم يؤسسون حكومات تكون فروعًا للجذع الذى نبتوا عليه فإذا ما عظموا قطعوا عنهُ غذاءه وأصبحوا –وهم العبيد– أصحاب البلاد. وما من دولة إلا ارتكبت هذه الغلطة فانقرضت وتلاشت جميعها على أيدى مماليكها وخدمها ولم تتعظ واحدة منها بالأخرى وليس هذا بعجيب لأننا معاشر الشرقيين بسطاء القلوب مخلصون سمحون متساهلون لا توقظنا عظة الادهار ولا تنبهنا حوادث الاعصار شأننا فى جميع أمورنا وأعمالنا ولو أنا طفنا بيوت الأسر الكبيرة لكشفنا ذلك السر ولاطّلعنا عَلَى أمور توضح لنا أسباب رقى أولئك المماليك ونجاحهم وإليك أيها القارىء الكريم مثالاً:

يأتى السيد العربى بخادم أو خادمة إلى بيته فيجعله فردًا من العائلة ويشركه فى أمره ويدلله ويطلعهُ على أسرار البيت وعورات أهله ودخائله فيعرف فقره

وغناه ومقامه الحقيقى والظاهرى ويتدخل بينهم فيجدهم أحزابًا يستعين به أحدهم عَلَى الآخر ويتقوى بهِ أضعفهم ويستند عليه أعجزهم فيحترم ويكرم ويتنافسون فى استمالتهِ إليهم حتى يصبح مستشارًا لا خادمًا فيخالفهم ويخاشنهم، أما الغربيون فيظل خادمهم خادمًا لا يعرف من أمرهم شيئًا وليس له عليهم من سبيل. وربما طردوه لأقل ذنب اقترفه أو خطأ جناه ولو كان طفيفًا.

تشعبت الدولة الأيوبية وطمع بها كثير وأصبحت البلاد لمن غلب فاستكثر الملك الصالح المماليك وقربهم منهُ وولاهم الإدارات فاستفحل أمرهم وقويت شوكتهم وسطع نجمعهم وأيدهم السلاح الذى بين أيديهم فنالوا المناصب العالية وأصبح الحل والربط منوطًا بهم فاحتقروا آخر ملوك الأمويين وخلعوه واستبد بالملك أيبك الجاشنكير أول ملوك المماليك البحرية الذين لقبوا بهذا اللقب لأن مقرهم كان فى جزيرة النيل عند نقطة سميت بالبحر لاتساعها تمييزًا لهم عن المماليك الجراكسة.

٦٢ - قطز الملك المظفر

ولى السلطان قطز الملك سنة ٦٥٧هـ وهو الثالث من ملوك المماليك البحرية ولم يدم سلطانه سوى أحد عشر شهرًا لأن هولاكو زحف بحموع كالجراد فدخل بغداد (دار السلام) وقضى على حضارتها ومدنيتها الباهرة وإنا نسطر هذه الفاجعة الأليمة المحزنة فنقول: كان هولاكو تتريًا من أحفاد جنكيز خان وله حكومة قوية فاستدعاه مؤيد الدين العلقمى وزير المستعصم لفتح بغداد فلباه وهاجم البلاد العربية وكان لا يأتى إلى بلد أو مدينة إلا وفتك بأهلها فتكًا ذريعًا فلا يترك رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا شيخًا إلا قتله فوصل بغداد وحصرها وضيق عليها فخرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمى (مسبب هذه النقمة) إليه وتوثق منهُ لنفسهِ وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال له: إن هولاكو سيبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم فى (الأناضول) ويريدان يزوج ابنته من ابنك أبى بكر وحسن له استقباله فخرج المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه ونزل فى خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وظلوا

يخرجون إلى التتر طائفة بعد طائفة حتى تكاملوا وكان منهم محيى الدين ابن الجوزى وأولاده فأمر بقتلهم جميعًا ثم مدوا الجسر ودخلوا بغداد وأعملوا السيف فى أهلها وهجموا عَلَى دار الخلافة وقتلوا من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا الصغار ودام القتل والنهب نحو أربعين يومًا وقتل الخليفة ولم يعرف طريقة اغتياله ثم نودى بالأمان.

هكذا ختمت الخلافة العباسية البغدادية التى أجلَّها واحترمها وهابها السلاطين والملوك فداسها هؤلاء البرابرة بأرجلهم القذرة سنة ١٢٥٧م و ٦٥٦هـ بعد أن عمرت خمسة قرون ونيفًا وتركت من المآثر الجليلة ما برزت بها عَلَى الأولين وبذت السابقين.

انقضت هذه الصاعقة أو الفاجعة بل الطامة على العرب فذعروا واستسلموا وتمرد هولاكو فاستولى عَلَى العراق وتقدم غربًا وجنوبًا إلى سورية ففر الملك الناصر من دمشق بأولاده ونسائه وأتباعه ونفائس ذخائره إلى بركة الكرك (زيزًا) فجاء نائب هولاكو القائد كتبغا وتسلم دمشق بأمان ثم بحث عن الناصر حتى عرف مقره فأمسكه وبعث به إلى هولاكو فقتله وانقرضت به الدولة الأيوبية الدمشقية ثم زحف التتر إلى عجلون وفلسطين وقدموا غزة وامتلكوها فالتقاهم الملك قطز وصحبته المنصور صاحب حماة والتحم الجيشان فى الغور عَلَى عين جالوت بين بيسان وجنين فكانت موقعة كبرى قتل فيها كتبغا وأسر ابنه ثم قتل وتأثر فلولهم بيبرس وما زال يفتك بهم حتى أخرجهم من البلاد ورجع فقتل الملك المظفر قطز واستوى على العرش.

٦٣ - الملك الظاهر بيبرس البندقدارى

لا ريب أن السلطان بيبرس هو أعظم المماليك وأشدهم بأسًا فإنه حكم فلسطين وحارب ما بقى فيها من الصليبيين وانتزع منهم الشوبك والكرك وفتح قيسارية وأرسوف وصفد وذبح أهلها وفتح يافا واهتم بالأماكن المقدسة ورمم قبة الصخرة وزاد فى أوقاف الحرمين الشريفين الأقصى والخليل وفى سنة ٦٦٨هـ سنة

١٢٦٩م عمَّر مسجد النبى موسى وزاد فيه ورتب موسمه وحسنه وقاوم التتر وصد هجماتهم عن سورية وفلسطين.

٦٤ - انتقال الخلافة العباسية إلى مصر

ومن الأعمال الجليلة التى قام بها الملك بيبرس نقله الخلافة العباسية من العراق إلى مصر فإنه لما استأصل هولاكو شأفة الأسرة العباسية المالكة فى بغداد ذهب إلى مصر رجل بغدادى أسمر اللون اسمه الإمام أحمد وادَّعى أنهُ عباسى فقبله بيبرس لغرض سياسى ودعا إليه القضاة فى مصر فأثبت نسبه أمامهم وبايعوه بالخلافة ولقبوه المستنصر وكانت العامة تلقبهُ بالزراتينى ثم أرسله إلى بغداد فقتله التتر قبل وصوله. ومات الملك الظاهر بيبرس فى دمشق ودفن بالقرب من الجامع الأموى.

بدأ شأن الخلافة فى الضعف مذ عهد الراضى سنة ٣٢٢هـ الموافق سنة ٩٣٤م عند ما فصلت عنها السلطة الزمنية واستبد الملوك والأمراء وأصبح الخلفاء شيوخ زاوية يتبرك بهم بل هدفًا للسجن والقتل فجاءهم هولاكو وأبادهم وثل عروشهم فنقلوا إلى مصر وزادوا ضعفًا فوق ضعفهم حتى بلغ من الملك الناصر أن نفى الخليفة المستكفى إلى قرية قوص ومن ملوك هذه الدولة السلطان الملك المنصور قلاوون الذى فتح طرابلس الشام واستردها من الفرنج بعد أن مكثت فى أيديهم ١٨٥ سنة ثم خلفه ولده السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل الذى هدم قبور خلفاء الفاطميين فى مصر وبنى مكانها خانًا دعاه الخان الخليلى بقرب مشهد الحسين وفتح عكا وقتل أهلها وخرَّبها وتسلم عثليت وفى عصره سنة ٦٩٠هـ خلت سورية وفلسطين من الفرنج.

٦٥ - محمد بن قلاوون

ولى الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد أن خلع مرتين وعمر فى القدس المساجد وأنشأ المآذن وصد هجمات ملك التتر قازان الذى أوغل فى البلاد وتجاوز حدود فلسطين فوجس الناصر وجهز سلار وبيبرس الجاشنكير بجيش لمحاربتهم فأجهزوا عليهم وردوهم عَلَى أعقابهم منقلبين.

ولا حاجة للإفاضة فى هذا المختصر عن سيرة كل ملك من المماليك البحرية لأنه لم يحدث بفلسطين شىء جدير بالذكر غير خلع الملك هذا وتعيين ذاك مما لا يهم القراء معرفته.

٦٦ - المماليك الجراكسة أو دولة المماليك الثانية

كانت منازلهم فى سيبيريا حول بحيرة بيكال فهجروها واستطونوا بلاد الجركس وقفقاسية وما وراءها فاستقدمهم الملوك والأمراء واصطفوهم واستكثر منهم العباسيون وبنو أيوب والمماليك البحرية فقضوا عَلَى سلطتهم بأسلوبهم العجيب وهو تنصيب الأحداث والضعفاء من أبناء الملوك عَلَى سدة السلطنة لسهولة نزعها منهم ثم يكفله أحدهم ويدير شؤون المملكة فيستبد بالسلطان ويتربص له ويخلعهُ وأول ملوك المماليك الجراكسة.

٦٧ - أبو سعيد برقوق (الظاهر)

هو أحد موالى بنى قلاوون النابهين ساعده جده فبرز عَلَى أقرانه ونال حظوة عند أسياده فأغدقوا عليه نعمهم وأحلوه صدر مناصبهم وأعلاها فجنحت نفسه للعرش ونهج منهج أسلافه المماليك فاختار حاجى الصغير ابن السلطان شعبان وكفله وناب عنهُ فى المملكة وما زال به حتى خلعه واستوى عَلَى عرشه فانتقض عليه الأمراء وبعد عراك شديد تغلب عليهم وشردهم فالتجأ أحدهم منطاش إلى آل الفضل عرب الأمير محمود الفاعور واحتمى بهم فدافعوا عنهُ وحاربوا معهُ وأخيرًا أخذوا له الأمان وسلموه فخاس برقوق بعهده وفتك به فصفا له الجو وقرتّ عينه بالملك. وفى سنة ٧٩٦هـ كان ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس شهاب الدين الأمير أحمد بن اليغمورى (وله أسرة فى الخليل والشام) فأبطل المظالم والمكوس التى عملها سواه ولما زار الناصر فرج بن برقوق القدس رأى عَلَى نيابتها ونظارة الحرمين حاكمًا واحدًا فلم يستحسن ذلك وجعل لكل منهما مأمورًا خاصًا فتعين الأمير ناصر الدين النشاشيبى ناظرًا للحرمين فقط وأسرته فى القدس كبيرة ومشهورة.

٦٨ - مجيء التتر

اشتهر من التتر ثلاثة ملوك عظام الأول جنكيز خان مؤسس الدولة والثانى هولاكو مبيد مجد العرب وطافىء سراج مدينتهم ومحرق مكتباتهم ومدارسهم فى بغداد والثالث تيمورلنك ملك سمرقند الذى اجتاح البلاد وفتح خراسان وتركستان والهند وفارس واخترق الأناضول وأسر السلطان العثمانى بايزيد ثم انقلب إلى سورية سنة ٨٠٣هـ فأمر فرج بن برقوق سائر النواب بالتوجه إلى حلب ليمنعوها منهُ ففعلوا ولكنهم عجزوا عن رده وصد غاراته فحاربهم وانتصر عليهم وفتح حلب وأمعن فى النهب والفتك وسفك الدماء البريئة وسار إلى الشام فامتلكها وأحرقها ونكل بأهلها وأحرق الجامع الأموى وفتك بالأهالى وعاث فى الأرض فسادا.

ولما ولى السلطان الملك الظاهر خشقدم عمر قناة السبيل وأجرى بها ماء العروب إلى القدس ومن ملوك هذه الدولة السلطان قايتباى الذى عمر كثيرًا وطالت سلطنتهُ وقد حدث فى عهده وقائع عمومية نذكر بعضها باختصار فمنها:

أنهُ فى سنة ٨٧٨هـ نشبت فتنة فى الخليل بين الأكراد (الحموريين) وبين الدارية (التميمية) المنشعب منهم سكان قريتى النبى صالح ودير نظام وتميمبو نابلس فقتل من الفريقين ثمانية عشر رجلاً. ومنها الفتنة التى حدثت بسبب كنيسة اليهود وتشدد متعصبو المسلمين إلى أن تفاقم الخطب. وفى سنة ٨٨٠هـ خيم السلطان عَلَى بركة الجاموس قرب الرملة فسرق له اللصوص «بقجة» قماش من الخيمة التى كان نائمًا فيها فاستدعى شيخ بنى صعب حرب الجيوسى وحبسهُ ثم غرمهُ مالاً.

ومما يدل عَلَى ضعف الحكومة وقتئذ أن حاكم القدس قتل جماعة من بنى زيد فهجم عصبتهم وأعوانهم ونهبوا المدينة ودخلوا المسجد شاهرى السلاح وهرب من وجههم الحاكم فتمردوا وكسروا باب السجن وأخرجوا منهُ المساجين.

وسنة ٨٨٨هـ اختلف السلطان قايتباى والسلطان بايزيد العثمانى فجمعوا من فلسطين الجنود (تجريدة) وصرفوا لهم المعاشات فأخذوها ونكلوا عن الحرب.

وفى سنة ٨٩٤هـ حضر أبو العويس أمير عرب الجرامنة (جد العويسات فى بيراماعين والبرج) وطرح مظلمة على الفلاحين فعارضهُ نجم الدين بن جماعة (من أجداد دار الخطيب) واسترحم من الدوادار[٥] أن يمنعهُ قلبى طلبه.

وفى ١٩ ربيع الأول سنة ٨٩١هـ الموافق ٧ كانون أول تساقط الثلج فى القدس من يوم الثلاثاء حتى يوم الخميس فتراكم كثيرًا مثل ثلجة سنة ١٩١٩م وفى هذه السنة حدث خلاف بين حاكم غزة وحاكم القدس وتداخل بينهما السلطان وأصلح ذات البين وظلت البلاد فى انحطاط حتى التهمها الأتراك العثمانيون.

(٥) هو الدمدار (قائد المؤخرة) والبيشدار (قائد الطليعة).

obeikandl.com

obeikandl.com

القسم الثالث

فلسطين ايالة عثمانية

الفصل الثالث عشر

٦٩ - تمهيد

إن دولة حكمت فلسطين وخفقت راياتها عَلَى ربوعها أربعة قرون لجديرة بأن نخصص لها بابًا ندوّن فيه أعظم المواقع وأشهر الحوادث التى جرت فى أيامها ولا بأس من أن نبدأ بحثنا بذكر خلاصة عن أصل هذه الدولة وما وقف إليها من الأعمال الجليلة دون سواها من الدول الأخرى.

(أ) حاول العرب فتح القسطنطينية ودك عرش الرومان والقضاء عَلَى مملكتهم فسلخوا جزءًا كبيرًا من جسم إمبراطوريتهم ولم ينفذوا إلى قلبها فبقيت ذات حول وقوة تكافحهم وتنازعهم البلاد ثم طمع سلجوقيو الأناضول فى القسطنطينية وتلاهم التتر فهاجموا الرومان من الشمال والشرق والجنوب وفتكوا بهم فتكا ذريعًا فلم يقدروا عليهم فلما نجم الأتراك العثمانيون فتحوا الأناضول وتوغلوا فى أوروبا وحاصروا الآستانة من كل الجهات وبعد حروب طويلة دامية دخلوها عنوة سنة ٨٥٧هـ وسنة ١٤٥٣م واستولوا عَلَى ممالك الرومان فى أوروبا وآسيا.

(ب) أصلهم: كان وسط آسيا مهد القبائل التركية ومصدرًا للأمم التى كانت تبدو صغيرة ثم تنتشر فنزداد عظمتها كلما نأت عن بلدها الأصلى كحجر يلقى فى بركة ماء فتتسع دائرته كلما بعدت عن مركزها أو كصخر انحط من على فكلما طال فى جريهِ زادت سرعته واشتد انحداره. أما الأتراك العثمانيون فهم من جبل التتر (القبيلة الطورانية) الذين سكنوا حدود الصين ثم زحفوا إلى تركستان

فتجنيهم الأكاسرة وهابوا صولتهم فلما فتح العرب إقليمهم احتك الأتراك بهم واقتبسوا مدنيتهم ودانوا بالدين الإسلامى فى القرن الحادى عشر وأشهر هذه القبائل السلاجقة الذين ينتسبون إلى جدهم سلجوق والعثمانيون الذين ينتسبون إلى السلطان عثمان الغازى وهو الحجر الأول فى أساس دولتهم.

(جـ) تكوّنهم: فى سنة ٦٨٧ وسنة ١٢٨٨ بدأت نواة الدولة العثمانية تتشكل فى الأناضول عَلَى أصل الدولة السلجوقية وما زال يمتد جذرهم ويبسق فرعهم حتى تغلبوا عَلَى إخوانهم واحتازوا الملك دونهم ومدوا ظلهم إلى البلقان وفينا عاصمة النمسا وامتلكوا العراق وسورية ومصر وإيران وشمال البحر الأبيض ولم يقفوا عند هذا الحد كأسلافهم السلاجقة أو الدول الإسلامية الأخرى بل تعدوا طورهم وضنوا عَلَى العرب بالخلافة (السلطة الروحية) وتطلعوا إلى اغتصابها منهم. فإن العرب قبلوهم همجًا وهذبوهم وصقلوهم وربوهم وعلموهم الدين الإسلامى الحنيف وعرفوهم عبادة الله عوضًا عن عبادة الأصنام ولقنوهم اصطلاحات علمية وفنية فلم يرع الأجانب لهم هذا الجميل وغلبوهم عَلَى تلك المملكة الواسعة التى فتحوها بجدهم ونشاطهم وروحهم الدينية وسلبوهم إياها وهذا يشبهُ ما حدث للرومان مع برابرة الألمان الذين ظهروا من أحراج أوروبا الشمالية فسطوا عَلَى مدينتهم وانتزعوها من أيديهم.

فاز الترك على العرب بيد أنهم سلكوا شريعة نبيهم محمد ﷺ ودخلوا فى دينهم واقتبسوا تقاليدهم فأصبح الأتراك وهم الغالبون مغلوبين لارتباطهم باللغة العربية الدينية وزيارة البلاد العربية لأداء فريضة الحج فهذه العلائق المتينة ربطت الأتراك بالعرب وأخضعتهم إليهم إلى أن قام الحزب الوطنى فى أنقرة وقرر أن تتلى خطب الجمعة فى البلاد التركية بلغتهم فدفنوا بهذا الحكم لغة محمد ﷺ.

٧٠ - نشوء الدولة العثمانية حتى فتحها فلسطين

مؤسس هذه الدولة أرطغرل بن سليمان شاه التركمانى سلطان بلاد ماهان قرب بلخ من جنكيز خان وارتحل إلى بلاد الروم ببعض قبائل الترك فلما انتهى إلى

الأناضول رأى جيشين يلتطمان ويتحاربان فعلا نشزًا من الأرض ليراقب حركاتهما الحربية ولما آنس من أحد الفريقين ضعفًا وخذلانًا هب بفرسانه لنصرته واعمل السيف فى الجيش المنتصر فهزمه وبدّد جيشه وبعد أن انكشف الغبار علم أن من أنجده كان الأمير علاء الدين سلطان قوفية[1] الذى شكره عَلَى نجدته وصنيعه وأقطعه عدة مدن واتخذه ركنه وعماده فى حروبه وغاراته وأغدق عليه النعم ومنح قبيلته لقب(مقدمة السلطان)ولما توفى ارطغرل خلفهُ ولده عثمان وأخذ لقب بل مثل، أمير، لورد، فيكونت،وأجيز له ضرب النقود وأن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة فعرج إلى قمة الرقى تدريجًا حتى قدم التتر وقتلوا الملك غياث بن السلجوقى فاتسع المجال لعثمان ولقب نفسه(بادشاه آل عثمان)واتخذ مدينة يكيشهر عاصمة له وخلفهُ ابنهُ اورخان فاستولى عَلَى جزء من أوروبا ونظم الجندية بمشورة وزيره خير الدين باشا الذى جمع الشباب من أسرى الحرب فرباهم تربية أنستهم أصلهم وجنسيتهم وباركهم شيخ طريقة البكطاشية المقيم فى أماسية وسماهم(يكى جارى) الجيش الجديد فتحرف الاسم إلى انكشارى فكان هذا العمل من أكبر العوامل لتثبيت دعائم هذه الدولة الفتية وقد سلك هذه الخطة فردريك الكبير ملك الألمان إذ نظم الجيش فرفع شأن بروسيا وأرهب ممالك أوروبا.

ارتقى جيش العثمانيين الجديد (يكى جارى) وزاد عدده فاخترق قلب البلقان ومكدونيا وفتح الآستانة.

وفى عهد السلطان سليم تحالف ملك مصر قانصوه الغورى وشاه إيران إسماعيل واتفقا على محاربة العثمانيين فسار السلطان سليم بجيش إلى بلاد العجم وفتح بعض ولاياتها وأقاليمها ثم انثنى إلى محاربة الملك الغورى فتصادف الجيشان فى مرج جابق (قرب حلب) ولم يصبر المصريون على مدافع الأتراك وانهزموا فقتل ملكهم وأسر الخليفة واستولى السلطان سليم عَلَى مدن سورية ثم تقدم إلى فلسطين فالتقى بجيش طومان باى قرب اللجون فحمل عليهم بجيشه وردهم عَلَى أعقابهم واستولى عَلَى فلسطين وفتح مصر فقضى عَلَى آخر ملوكها

(١) إحدى الإمارات السلجوقية المتجزئة من مملكتهم بعد انحلالها.

وضمها إلى ملكه فى سنة ٩٢٣هـ وسنة ١٥١٧م وقسم مصر إلى أقسام إدارية ووزع النفوذ بين الأمراء فكان كل منهم رقيبًا عَلَى الآخر وقفل راجعًا إلى الآستانة مستصحبًا محمد المتوكل آخر خلفاء بنى العباس الذى تنازل للسلطان سليم عن الخلافة وسلمهُ الآثار النبوية الشريفة: البيرق والسيف والبردة وأعطاه أيضًا مفاتيح الحرمين الشريفين فصارت الآستانة من ذلك الوقت مقر الخلافة الإسلامية وأصبح كل سلطان عثمانى خليفة لرسول الله ﷺ وأميرًا للمؤمنين فجمع السلطان سليم السلطتين الزمنية والروحية وحصرهما فى نفسهِ وفى أحفاده من بعده ولم يك عمله هذا حرصًا عَلَى الدين أو حماية للإسلام وحسب ولكن أراد أن يستأصل منازعيه ويوحد كلمة المسلمين ويجعل لهم إمبراطورية عظمى.

٧١ - السلطان سليمان وما بعده من الأحداث

لو تتبعنا تاريخ هذا الخليفة لوجدناه مملوءًا بالأعمال الجسيمة والمآثر الجليلة الخالدة ولكنا نقتصر عَلَى ذكر ما يتعلق بفلسطين فمن مآثره فيها: وأعماله الحميدة سور القدس الذى أنشأه سنة ١٥٤٢م وسنة ٩٤٥هـ ولا يزال اسمه منقوشًا عَلَى صفحاته. ومنها عمل باب قبة الصخرة الغربى. وفتح باب السيدة مريم. وسد الباب الذهبى (شرقى الحرم). ومنها عمارة بركة السلطان الواقعة على طريق المحطة من باب الخليل. وهو الذى نظم القوانين، فلقب بالقانونى وكان سلطانًا عظيمًا وإداريًا حازمًا وبطلاً قديرًا وصلت تركيا فى أيامه إلى ذرا مجدها حتى إنهُ هدد المجر واوستريا وملك سائر بلاد البلقان وأصبح البحر الأسود بحيرة تركية تحيط به الأقاليم العثمانية من كل جهاته ودخل قى طاعته خير الدين باشا بارباروس فولاه قيادة الأسطول وأوقع الرعب فى دول أوروبا البحرية. وفى عهده خرج حاكم سورية وفلسطين جان بردى الغزالى فاستولى عَلَى قلعة دمشق وأعلن العصيان فأرسل إليه السلطان أحد قواده فرحات باشا وعاجله فأخمد تلك الفتنة وقطع رأس الغزالى.

وفى أواخر القرن السادس عشر فشا استعمال التبغ فى سورية ومصر وأقبل الجميع عَلَى تدخينه. وفى ذلك القرن استولى الأمراء المعنية عَلَى نابلس وأطرافها

وعينوا عليها ولاة من قبلهم وسار الأمير فخر الدين إلى نهر العوجاء وحارب بدو الساحل وبدد جموعهم ولكن أهل بلاد حارثة[1] حاصروه فى قلعة جنين وأخرجوه منها.

وفى هذا القرن عظم شأن الانكشارية واستبدوا بالملوك فأخذوا يخلعون من شاءوا ويولون من أرادوا وفى سنة ١٧٦٤م عصى أمراء جبل نابلس الحكومة فاستنجد والى الشام عثمان باشا الكرجى بالأمير يوسف الشهابى فأمدَّه بجيش كثيف من أهالى لبنان وحاصروا عاصمتهم (قلعة صانور) فلم يستطيعوا فتحها فقال شاعر جرار:

عرب ودروز أجونا صايلينا من العرقوب أجونا صايلينا

وقال شاعر اللبنانيين:

جينا بلاد جدى ما وصلها عرب ودورز والدولة تصلها

عربستان يا رب نصلها بحق البيت أو ما زاره صحابة

٧٢ - خروج الأمير على المصرى والشيخ ظاهر العمر

فى أثناء الحرب الروسية العثمانية أرسلت روسيا أسطولاً إلى البحر المتوسط وأثارت الشيخ ظاهر العمر وعلى بك المصرى الملقب بشيخ البلد فخرجا عَلَى الدولة وحشد على بك الجنود وأرسلها مع محمد بك المكنى (بأبى الذهب) إلى الحجاز فاحتل جدة وطرد الشريف من مكة ودعى له عَلَى المنابر وضرب السكة باسمه. أما الشيخ ظاهر العمر فإن أصله من الحجاز جاء أجداده الزيادنة فى الفتح الإسلامى الصلاحى وكانت اقطاعاتهم خمس قرى وهى: بيت اكشا والنبى صموئيل والجيب وبين نابالا وبيت جنينا فسكنوا فى القرية الأولى ثم رحل جده زيدان ونزل فى شفا عمرو فأكرمهُ محافظ القلعة وظل يتقدم إلى أن تعين ولده عمر على عكا ثم خلفه ابنهُ ظاهر المشهور فاتفق مع المتاولة حكام صور وبلاد بشارة

(١) ناحية مؤلفة من ٣٥ قرية تابعة إلى جنين.

وخالف الدولة فسير إليه والى دمشق جندًا فاستصرخ زميله على بك المصرى وزين له الخروج عَلَى سورية والاستيلاء عليها فجهز إليه عشرة آلاف مقاتل مع القائد إسماعيل بك وأمره بطاعة الظاهر فساروا إلى فلسطين وقابلهم أبناء الظاهر فى يافا باحتفاء وأتوا بهم إلى عكا فحاول ظاهر العمر أن يوجههم إلى طريق الحج ليوقعوا بوالى دمشق فأبوا وعاد بهم قائدهم إلى يافا فاشخص على بك المصرى عسكرًا آخر بقيادة أبى الذهب وانضم إليه عسكر ظاهر فكانوا ستين ألف مقاتل وحاربوا والى الشام فلم يثبت أمامهم وولى هاربًا فاستولى أبو الذهب عَلَى دمشق واعتزم عَلَى أن يمتلك بقية البلاد غير أن القائد الأول إسماعيل حول عزمه وأفسد إخلاصه فرجع إلى مصر مواليًا للدولة مغاضبًا على بك ومزاحمه فغلبه عَلَى أمره وألجأه أن يفر إلى ظاهر العمر فى عكا ومن هناك استنجد الأسطول الروسى فساعدهما من البحر وامتلكا صور وصيدا وطردا الوالى درويش باشا[1].

ثم اتفقا عَلَى محاربة أبى الذهب ودلفا إلى مصر فقابلهم قرب غزة وحاربهم فكسرهم وجرح على بك فى وجهه وأخذ أسيرًا فلاطفهُ أبو الذهب ولكنهُ مات من جرحه. ولما رجع الظاهر إلى عكا مخذولاً عفا عنهُ السلطان وولاه آيلة صيدا وعكا فلم يخلص نيتهِ فخرج إليه أبو الذهب من مصر بعسكر كثيف وخيم حول غزة وحاصر كريم بن ظاهر العمر فى يافا ٦٠ يومًا ففتح المدينة عنوة ونهب أموالها وقتل من كان فيها وأقبل عَلَى عكا ففر ظاهر منهُ ملتجئًا إلى عرب عنزة.

ولما مات أبو الذهب رجع الشيخ ظاهر إلى عكا واحتلها فسير إليه السلطان العثمانى الأميرال حسن باشا فهدد ظاهرًا بالحرب إن لم يؤد ما عليه من الأموال فلم يلتفت إلى طلبه بل رده ردًا قاسيًا فحاصره وضيق عَلَى المدينة وضبطها وأسره واجتز رأسه وأرسله إلى السلطان ومن آثار ظاهر العمر سور عكا وسراية شفا عمرو وبعض مساجد وعمارات أخرى.

---

(١) من أجداد آل رضوان فى غزة الذين تحدر منهم أكثر من عشرة باشاوات وصدور عظام.

إن من استقصى حوادث هذا المختصر وجد أن البلاد كانت مضطربة فتارة فـي حالة سلم وهدوء وطـورًا تـهيج فيـها نـار الحـرب والثـورة وتكـثر فيـها الخـوارج وما السبب إلا تنافر الأمة والحكومة فإذا تفاهما ساد السكون وأمن الناس وإن سـاء ظن الأمة بحكومتها اختل الأمن وثارت الفتن ونشأ عن ذلك ما لا يحمد عقباه من سفك الدماء وقتل النفوس البريئة.

كانت حكومة سورية في القرن الثامن عشـر حكومـة لا مركزيـة أي القطاعـات أو حكومة أمراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكـم منطقتـه فكـان مشـايخ أبـو غـوش أو البراغثة يحكمون بني مالك وبني حسن وبني زيد وبني مـرة وبنـي سـالم فـإذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ «العدلية» ويقبلون حكمه لا محالـة. ومـن خالف عادات البلاد أو أخل بتقاليدهم يسجن في سجنهم وكان الشـيخ أو الأمـير يجبـي الضرائـب ويقـدم المقطـوع عليـهِ للـوالي ويـأخذ الزيـادة وإذا حدثـت فتنـة أو خيف من وقوعها كان يطلب الوالي المعاونة من أمراء منطقته فيخرجون بأنفسهم ومن ورائهم رجالهم وفرسانهم. فالشيخ أو الأمير يحكم مقاطعته كما يحكم الأمـير ايالته وكثيرًا ما كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضـاة الأمـراء والـولاة فادّى هذا النظام إلى انتشار الفوضى واختلال الأمن وسبب للحكومة خسرانًا كبيرًا في الأموال والرجال. وقـد تنبـهت الحكومـة لهـذه الأضـرار الناجمـة فعمـدت إلى إضعاف قوة المشايخ والأمراء وأيدت الجزار في عكا وأشارت إليهِ بإبادة المنتقديـن ونصر ولاتها المخلصين لكنها لم توفـق إلى إنجـاز هـذا العمـل إلا سـنة ١٢٨٧ هـ وسنة ١٨٧٣ م حيث ألغـت الإمـارات ومنـاطق النفـوذ وأدارت البـلاد بموظفيـها. وهذا الأسلوب يشبهُ ما فعله لويس الحادي عشر في فرنسـا فإنـهُ مـازال بـالأمراء والنبلاء حتى قضى على سلطتهم وخلص من نفوذهم الذي كان حاجزًا بينهُ وبـين الشعب.

٧٣ - أحمد باشا الجزار

هو رجل بشناقي الأصـل مـن بـلاد البوسـنة كـانت نفسـه نزوعـة إلى الأعمـال الجليلة وتذليل الصعاب فبعثت بهِ الحكومـة إلى مصـر ليسـتأصل شـوكة المـاليك

الذين كانوا شجًا فى حلقها فاتبع سياسة إلقاء بذور الفساد والفتن بين المشايخ والأمراء وفاز بأمنيتهِ وكان طائش السيف ظالمًا بطاشًا استحل الموبقات وولغ فى النفوس فسخط عليهِ عامة الشعب والحكام ففر ملتجئًا إلى الأمير يوسف الشهابى ليتبع أمراء سورية بمماليك مصر.

وفى سنة ١٧٧٠ م أنيطت بهِ المحافظة عَلَى مدينة بيروت فحصنها ومنع أهل الجبل من دخولها وأزمع عَلَى العصيان فغطن لذلك الأمير يوسف وباغتهُ وهمّ أن يبطش بهِ فقابله الجزار بالخضوع والطاعة واستمهله ٤٠ يومًا ثم جاهر بالكفران فغلب عَلَى أمره ولم يفلح. وحدثت بينه وبين على بن ظاهر العمر وقعات خذل فيها على وفرَّ من البلاد فقتل وزالت إمارة أهله واستحوذ الجزار عَلَى ما كانوا يملكون من المقاطعات واتخذ عكا عاصمة له وبنى عليها سورًا ثانيًا وجامعًا كبيرًا هو خير حسناته وآثاره.

وما فتئ الجزار يقتل ويذبح ويثير بعض المشايخ عَلَى بعض حتى أصبح من أكبر ولاة وأبطال سورية فزادت ثقة الدولة بهِ واعتمدت عليه فى تنفيذ غاياتها وتكثير وارداتها فازداد بطشه وصنع وتدًا «خازوقًا» كان يُجْلِسُ عليهِ من خالفهُ أو عانده فارهب الناس وأخاف أهالى البلاد لأنهُ كان لا يثبت على حال مع صديق أو عدو فبينا نراه اليوم يحسن إلى رجل ويعطف عليهِ إذا بهِ غدًا قد أصبح فريسة لسيفهِ وهدفًا لسهام انتقامه. فيروى أنهُ ذهب لأداء فريضة الحج فبلغهُ ما جعله يرتاب فى أهل بيتهِ فلما رجع شواهن فى النار ومات الجزار سنة ١٨٠٤م بعد أن بلغ من العمر ٨٤ حجة ودفن فى عكا فى الجامع الذى بناه.

مرّ عَلَى فلسطين قرنان ونصف وهى نائمة لم يحدث فيها شىء سوى ما انتابها من الحوادث الداخلية البسيطة فأغفلها التاريخ وجاءت عرضًا فى أخبار غيرها وهيهات أن تكون فلسطين الصغيرة عضوًا فى جسم مملكة واسعة الحدود ولها نصيب فى صفحات التاريخ لاسيما إذا خلت من الحروب أو الانقلابات السياسية وتجردت من النهضات الأدبية كظهور نوابغ وعظماء فى العلم والشعر والأدب.

الفصل الرابع عشر

فلسطين فى القرن التاسع عشر

٧٤ - بونابرت فى فلسطين

ظلت فلسطين منذ فجر التاريخ والأرياح الآسيوية تقذف إليها أمواج القبائل المتلاطمة غير أن تلك الريح تبدلت وهب عليها من الغرب ريح عاصف فرماها بالإسكندر وبومبى وغودفرى وقلب الأسد ونابليون بونابرت أكبر القواد وأشهر نوابغ الحرب الذى ترقى من ضابط بسيط إلى قائد «جنرال» وإمبراطور عظيم فحارب إيطاليا والنمسا وروسيا وأسبانيا وزلزل عروش ملوكهم واستولى عَلَى كثير من بلادهم وممالكهم ولم يبق أمام دولة فرنسا إلا إنكلترا التى ظلت تناصبها العداء وتحرك عليها الدول فأثارت غضب الفرنسيين وأخذوا يفكرون فى القضاء عليها فلمعت بارقة أمل إلى نابليون وخطر له أن ينشئ حكومة شرقية يزاحم بها إنكلترا فكتم ما فى نفسه وطلب لزملائه أن يجهزوا له جيشًا ليحتل بهِ مصر مجرى تنفس الإنكليز ويسد عليهم طريق الهند ويجز ناصيتهم فجهزوا له جيشًا وأسطولاً واستصحب معه ١٢٢ رجلاً من المتخصصين فى جميع العلوم لدرس القطر المصرى وتسلل خلسة وهبط مصر فأخذها ونظم إدارتها فاستشاط الإنكليز غضبًا وشجعوا الدولة العثمانية على محاربة الفرنساويين واسترجاع مصر ووعدوهم بالمناصرة فأمر العثمانيون الجزار والى عكا بأن يتقدم إلى مصر فذهب وامتلك العريش فاغتاظ نابليون من ذلك وجعل يعد حملة ليفتح بها فلسطين وسورية وينقض عَلَى الهند فاسترفق بعضًا من علماء الدين الإسلامى ليستعين بمركزهم الدينى عَلَى تنفيذ مآربه السياسية وفى سنة ١٧٩٩ سار الجنرال كليبر Kleber إلى فلسطين فقابل قائد جيوش الجزار قاسم بك خارج العريش وحار بهُ وشتت جمعه

وأخذ ذخائره ولحقهُ نابليون باثنى عشر ألف مقاتل فاحتل العريش وأمَّن أهلها ثم سار إلى غزة[1] مفتاح فلسطين الجنوبى فتسلمها بلا حرب وأتى بعد ذلك إلى الرملة[2] فأرسل فرقة من جيشهِ لمهاجمة يافا الغاصة بجنود الجزار المؤلفين من عرب وأتراك ومغاربة وأرنؤوط وأكراد وجركس فحصروا المدينة مدة ثم فتحوها فانسحبت الحامية إلى بعض الخانات وأبوا التسليم قبل أن يؤمنهم عَلَى حياتهم فأجابهم إلى طلبهم القائد الأفرنسى فاستأمن له أربعة آلاف شخص فساقهم إلى المعسكر ولما رآهم نابليون سأل قائده عن هذه الجموع المحتشدة فأخبره أنها حامية المدينة التى سلمت إليه أمانًا وقبلهم حقنًا للدماء فبهت وحار فى أمره وقال ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد؟ أعندكم زاد يكفيهم ألكم مراكب تنقلهم لمصر أو فرنسا؟ ومن يتولى خفارتهم إذا أرسلناهم؟ يجب أن تعطوا الأمان إلى الأطفال والنساء والشيوخ لا للرجال الأشداء المقاتلين ثم استشار ضباطه فى قتلهم فخالفوه ولكنهُ أصر عَلَى رأيهِ وأمر بهم فقتلوا رميًا بالرصاص فى ١٠ آذار سنة ١٧٩٩ م.

وأمر بقتل مرضى جنده وجرحاهم ولم يوار سوآتهم ولعمرى إن هذا لمن أفظع الفظائع التى تنسينا همجية الآشوريين وقساوتهم مع أسراهم وتذكرنا ببربرية جنكيز خان وهولاكو وتيمور لنك واثيلا الذين كتبوا تاريخهم بمداد أحمر وسطروا صفحات أيامهم بأسوأ الذكرى وأوحشها ومهما اعتذر عنهُ التاريخ وسرد له حججًا قاطعة تبيح له قتلهم ليتخلص من مؤونتهم أو لأنهُ أسر بعضهم فى غزة والعريش وأطلقهم بشرط ألاّ يحاربوه ثانية فإن كل هذه الأعذار لا تبرر عمله.

١ – لأنهُ عاش فى القرن التاسع عشر عصر المدنية كما يقال لا فى أيام الهمجية.

٢ – ولأنهُ جاء من فرنسا مهد المدنية وأم الحرية ذات العواطف البشرية الرقيقة.

---

(١) ومكث مدة فى بناية آل رضوان «مأوى الدرك» اليوم.

(٢) كان مركز أركان حربه دير اللاتين وقد دخلنا غرفته فوجدناها بسيطة.

٣ – ولأنهُ ظهر فى الثورة الفرنسية وكـان غصنًا مـن دوحـة دعاتـها الذيـن كـان شعارهم الحرية والمساواة والعدالة والأخوة.

ولكن ليس من السهل أن نقسو فى الحكم عَلَى نابليون فقط فإنا لو وضعنـا فـى مركزه لودندورف وجوفر وفوش واللنبى ولم يجدوا من يسوق الأسرى إلى مصـر ولم يكن لديهم طعام يكفيهم لجوَّزوا لأنفسهم قتلهم وإعدامهم وما قتل ٤٠٠٠ شـخص فى حكم الطبيعة إلا كجمل دب عَلَى سرب نمل فداسهُ وحطمهُ وأباده.

٧٥ – نابليون والقدس

عجب رجال الدين من نابليون كيف أهمل القدس ولم يبال بها مع أنـها البلـد التى يجلها المسلمون والمسيحيون وغـاب عنـهم أن نـابليون مـا كـان ينظـر إليـها إلا من الوجهة العسكرية ولذلك لم يجوز لنفسهِ أن يركب بجيشهِ الأهوال قبـل أن يمهد السبل ويقضى عَلَى الجزار عدوه العنيد فطلب مـن حاميـة القـدس تسـليمها فأجابته بأن مدينة القدس تابعة لعكا فمتى فتحتها تسـلم إليـك، فتركـهم وشـأنهم وانصرف لحصار عكا عاصمة فلسطين وحصنها المنيع وبعث بمنشور إلى أهل مصر نرويه بالحرف الواحد كما ذكره زيدان ونلفت أنظار القارئ إلى أسـلوب بونـابرت الذى اتخذه لإرضاء المصريين والمسلمين وهيهات أن ينجح ساسة الغـرب بتملقـهم بعد أن أدرك الشرقيون نياتهم ومقاصدهم.

٧٦ – منشور نابليون(*)

بسم الله الرحمن الرحيم سبحان مالك الملك يفعل فى ملكه ما يريد هذه صـورة تمليك الله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساويين لبندر يافا من الأقطار الشامية.

نعـرّف أهـل مصـر وأقاليمـها أن العسـاكر الفرنسـاوية انتقلـوا مـن غـزة ثـالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة فى ٢٥ منه فى أمن واطمئنان وشاهدوا عسكر أحمد باشا الجزار هاربين بسرعة قائلين الفرار الفرار ووجـدوا فـى الرملـة ومدينـة اللد مقدارًا كبيرًا من مخازن البقسماط «الكعك» والشعير ووجدوا أيضًا ١٥٠٠ قربة

(*) تاريخ مصر الحديث.

مجهزة جهزها الجزار ليسير بها إلى إقليم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومراده التوجه إليها مع العربان الأشرار من سفح الجبل ولكن تقادير الله تفسد المكر والحيل وما كان قصده سوى سفك الدماء مثل عادته فى أهل الشام وناهيكم ما هو مشهور عنهُ من التجبر والظلم والجور فإنهُ تربية المماليك الظلمة المصريين وفاتهُ أن الأمر لله وكل شيء بقضائه وتدبيره.

وفى السادس والعشرين حلت طلائع الفرنسيين بندر يافا من الأراضى الشامية وأحاطوا بها وحصروها من الجهة الشرقية والغربية وأرسلوا إلى حاكمها وكيل الجزار أن يسلمهم القلعة قبل أن يحل بهم وبعسكرهم الدمار لكنه لخشونة عقله وفساد رأيه وسوء تدبيره لم يرد. وفى ذلك اليوم أى ٢٦ من شهر رمضان تكامل العسكر الفرنساوى عَلَى محاصرة يافا وانقسم ثلاث فرق توجهت فرقة منهن عَلَى طريق عكا عَلَى مسافة أربع ساعات من يافا وفى سبعة وعشرين منه أمر حضرة سارى عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور لعمل متاريس متينة واستحكامات حصينة إذ عرف أن سور يافا ملآن بالمدافع الكثيرة ومشحون بعساكر الجزار الوفيرة.

وفى ٢٩ منهُ ناهز حفر الخنادق النهاية وصار على مسافة ١٥٠ خطوة من السور فأمر سارى عسكر أن تنصب المدافع عَلَى المتاريس وأن توضع أهوان القنابر بإحكام وأمر بنصب مدافع أخرى بجانب البحر لمنع الصلة بين عسكر البر والمراكب التى أعدها عسكر الجزار فى المينا للهزيمة والفرار ولما رأى عسكر الجزار المحاصرون فى القلعة أن عديد الفرنساويين قليل أغراهم الطمع فخرجوا إليه من القلعة مسرعين ظنًا منهم أنهم يتغلبون على الفرنساويين فهجم عليهم الفرنسيون وقتلوا منهم كثيرين وأجبروهم عَلَى الدخول إلى القلعة ثانية وفى يوم الخميس غاية شهر رمضان أشفق حضرة سارى عسكر وخاف عَلَى أهل يافا إذا دخلت عساكره بالقهر والقوة فأرسل إليهم مع رسول خطابًا هذا مضمونه.

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له بسم الله الرحمن الرحيم»

من حضرة سارى عسكر برتبة كتخدا العسكر الفرنساوى إلى حضرة حاكم يافا نخبركم أن حضرة سارى عسكر الكبير بونابرته أمرنا أن نعرفكم فى هذا الكتاب أن سبب مجيئه إلى هذا الطرف هو إخراج عسكر الجزار فقط من هذا البلد لأنهُ تعدى بإرسال عسكره إلى العريش ومرابطته فيها والحال أنها إقليم مصر التى أنعم الله بها علينا فلا تجوز له الإقامة بالعريش لأنها ليست من أرضه فقد تعدى على ملك غيره.

ونعرفكم يا أهل يافا أننا حصرنا بلدكم من جميع أطرافه وجهاته وضيقنا عليه بآلات الحرب والحصار والمدافع الكثيرة والكلل والقنابر وفى برهة ساعتين يخرب سوركم وتبطل آلات حربكم ونخبركم أن حضرة سارى عسكر لمزيد رحمته وحنوّه خاف عليكم من سطوة عساكره المحاربين فإنهم إذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر أهلكوكم جميعًا ولذلك أمرنا أن نرسل إليكم هذا الخطاب تأمينًا لأهل البلد ولاسيما الضعفاء والفقراء والغرباء وأن نؤخر ضرب المدافع وإطلاق القنابر ساعة واحدة وإنى لكم لمن الناصحين وهذا آخر خطاب بيننا».

فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين بذلك الشريعة المطهرة المحمدية والقوانين الحربية فتميز سارى عسكر من الغيظ وهاج واشتد غضبه وأمر بإطلاق المدافع والقنابر ولم يمض إلا اليسير حتى خرست مدافع يافا وانقلب عسكر الجزار فى وبال وخسران وعند الظهر انخرق سور المدينة وارتج له القوم ونقب من الجهة التى ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء الله ولا مُدافع وفى الحال أمر حضرة سارى عسكر بالهجوم وفى أقل من ساعة ملكت العساكر الفرنساوية البندر والأبراج ودار السيف فى المحاربين وحمى الوطيس وكَثُر القتل وفى يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة سارى عسكر الكبير ورق قلبه لاسيما عَلَى من كان فى يافا من أهل مصر فأعطاهم الأمان وأمرهم بالعودة إلى الأوطان وكذلك أمر أهل دمشق وحلب بالرجوع إلى بلادهم ليعرفوا مقدار رحمته ومزيد رأفته وقتل فى هذه الوقعة أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزار بالسيف أما الفرنساويون فلم يقتل منهم إلا القليل وسبب ذلك أن سلوكهم إلى القلعة كان

فى طريق أمينة خافية عن العيون وأخذوا ذخائر كثيرة وأموالاً غزيرة واستولوا عَلَى المراكب التى فى الميناء ووجدوا فى القلعة نيفًا وثمانين مركبًا وقد فات الجزار وعساكره أن آلات الحرب لا تدفع مقادير الله فاستقيموا عباد الله وارضوا بقضاء الله ولا تعترضوا عَلَى أحكام الله وعليكم بتقوى الله واعلموا أن الملك لله يؤتيه من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله.

وبعد أن أتم بونابرت أعماله وخططه الحربية سار إلى عكا فوصلها فى ٢١ أذار وحصرها خمسين يومًا وكان الجزار يتعهد الدفاع البرى والاميرال الإنكليزى سدنى سميث يتولى الدفاع البحرى فلم يستفد الفرنساويون شيئًا لأن الجنود العثمانية كانت تفد بكثرة عَلَى الجزار حتى غصت بهم عكا واستماتوا فى الدفاع بعد أن سمعوا ما فعله الفرنساويون بحامية يافا فخاب أمل نابليون وجرب أن يستميل إليه الأمير بشير الشهابى أو يؤلف جيشًا من الدروز فلم يظفر بموالاة أحد لأنهم كانوا يخافون بطش الجزار وشدته.

وفى أثناء حصار عكا أرسل نابليون فرقًا إلى الناصرة وصفد وامتلكها وحدثت معركة بين الفرنسيين وجنود الأتراك حول جبل طابور «الطور» فشهد نابليون المعركة بنفسه مع كليبر وهزم العثمانيين هزيمة منكرة.

ذكر المطران الدبس أنه أتى قوم من المتاولة إلى نابليون فولاهم قسمًا من هذه البلاد وولى الشيخ صالح بن ظاهر العمر مدينة صفد.

ولكن ثبات الجزار وعناده وشجاعته الفائقة غرست الخيبة فى نفس نابليون فقذف آخر سهم من كنانته وجمع جنوده وخطب فيهم خارج أسوار عكا كما خطب فيهم تحت ظل الأهرام وعلى ثلوج جبال الألب فقال:

«هذه المدينة هى مفتاح الشرق فاعلموا حرج مركزكم ووطدوا عزائمكم عَلَى امتلاكها لأن بامتلاكها تسلمون لدولتكم مفتاح الشرق فندخل القسطنطينية عاصمة قياصرة الروم ونملك شرق أوروبا وشماليها فاعلموا ذلك واخلصوا نياتكم» فالهب حماسهم ونشاطهم وهجموا مستميتين فاقتحموا الخنادق وثغروا الأسوار وهزموا

الحامية ودخلوا البلدة حتى بلغوا سبيل الجامع الكبير وانتزعوا طاسة من طاساته وهى موجودة فى متحف باريس فظهر الجزار بنفسهِ وأخذ يحرض جنوده عَلَى الثبات وكان يفتك بكل من يعمد إلى الفرار فاستبسلوا وكافحوا نابليون وجنده وردوهم خائبين بعد ما لمع لهم النجاح وكادوا يظفرون بامنيتهم. وفى ٢٣ آيار سنة ١٧٩٩م فك نابليون الحصار عن عكا وقفل راجعًا إلى مصر بعد أن اعتذر إلى جيشه بأنه قهر العدو عند جبل طابور وشتت شمل الأتراك وأخذ كل مدافعهم ومؤونتهم ولا يرى من ضرورة لإطالة البقاء فى سورية فعاد خائبًا مخذولاً وقد فتكت الأمراض والطاعون بعسكره المغلوب وطفق العربان وبعض الأهالى يتخطفونهم ويطاردونهم ويقلقون راحتهم وقد أظهر نابليون من الشفقة والعطف ما جعلنا نذكر تلك الشيمة السامية فإنه أركب بعض جنوده حصانهُ الخاص ومشى عَلَى قدميه. وقد وصل مصر ولم يمكث بها طويلاً وبرحها إلى فرنسا وترك القائد كليبر وكيلاً عنه فظلت الجنود الفرنسية تكر وتفر حتى أوائل سنة ١٨٠١ م وجلت عن البلاد.

٧٧ - ثورة نابلس :

كانت مناطق فلسطين الإدارية منذ ابتداء القرن التاسع عشر كما يأتى:

القدس وملحقاتها تابعة لإيالة عكا، ونابلس وبلادها ملحقة بالشام فاتفق أن فرض والى الشام ضريبة جسيمة عَلَى أهل نابلس فرفضوا دفعها بجرأة وقوة فلم يأبه الوالى لهم بل شرع فى تحصيل الأموال غصبًا فثار أهالى جبل نابلس سنة ١٨٢٩ م وقاوموا سلطة الوالى وامتنعوا عن دفع الأموال فطلبت الدولة إلى والى عكا عبد الله باشا أن يمدَّ واليها فصدع بالأمر ولقى النابلسيين شمالى فلسطين مستعدين وقد تحصنوا فى قلعة صفد فحاربهم عبد الله باشا وعجز عن اخضاعهم فاستنجد بالأمير بشير الشهابى اللبنانى فأتى برجاله وانضم إليه وحاربوا النابلسيين وردوهم عَلَى أعقابهم فاعتصموا بقلعة صانور الواقعة بين جنين ونابلس وحاصرهم عبد الله باشا وضيق عليهم فكانت النساء تغمس اللحف بالزيت

وتشعلها وتقذف بها ليلاً خارج السور كى يبصر رجالهن العدو ويرمونهُ بالرصاص.

وفى أثناء ذلك هجمت طائفة من عرب الصقر على عسكر عبد الله باشا لتمنعهم الاستقاء فطاردهم الأمير بشير وهزمهم إلى قرية عجة شمالى صانور وأحرق كثيرًا من القرى وأخيرًا ضعف المحصورون وذاقوا من العناء والتعب ما زهدهم فى القتال فسلموا. وليس من المعقول أن شرذمة قليلة غير منتظمة ولا مدربة تقدر أن تعصى وتقاوم ولاية عكا التى كانت تمدها وتساعدها الدولة العلية بكل قوتها ولا غرو فإن قسمًا كبيرًا من أهالى البلاد انضم إلى عبد الله باشا وحارب رؤساء الثورة – أسرة جرّار الذين لم يكن معهم سوى حزبهم وحسب. ولم يبرح عبد الله باشا البلدة حتى خرب القلعة وقسمًا كبيرًا من السور ليأمن ويطمئن أنه إذا حدثت ثورة أخرى لا يجد الثوار حصنًا يلتجئون إليها.

٧٨ - إبراهيم باشا فى فلسطين :

ولد محمد على باشا فى قوَلة بلد الإسكندر المكدونى من عائلة ارنؤودية وانخرط فى سلك الجندية وجاء مع حملة عثمانية سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م لإخراج الفرنسيين من مصر كما جاء صلاح الدين مع أسد الدين شيركوه فترقى وساعدته الظروف كما ساعدت ظاهر العمر والجزار وغيرهما فعينهُ خسرو باشا برتبة «سر جشمة» قائد فرقة وتقدم إلى أن رسخت قدمه فى وادى النيل ونفذت كلمته فانتخب واليًا «حاكما» عَلَى مصر سنة ١٢٢٠ هـ وسنة ١٨٠٥ م فاجهز عَلَى المماليك فى وقعة القلعة الشهيرة سنة ١٢٢٦ هـ وسنة ١٧١١ م وتاقت نفسه إلى توسيع سلطته والاستيلاء على سورية وفلسطين وتأسيس مملكة مستقلة فتخوفت منهُ الحكومة وعزلته وولت سواه فأبى عليها واستمال رجال الباب العالى وأغدق عليهم نعمه فأقروه فى منصبه ولكنهُ عرف أن الأخطار محدقة به وعزم عَلَى محو أعدائهِ الداخليين وسعى فى إبادة المماليك ففروا من وجهه إلى الصعيد والعريش وخان يونس وتبعهم الفقراء الذين أثقل كاهلهم بالضرائب والأعشار والسخرة

«العونة» فطلب إلى والى عكا عبد الله باشا أن يرد المصريين ولا يقبلهم فى بلاده لئلا يفسدوا عليهِ عمله فأغلظ عبد الله باشا عليه الجواب فساءه هذا الأمر البسيط وعده جرمًا كبيرًا وجناية عظمى وجهز جيشًا بقيادة ابنهِ إبراهيم باشا سنة ١٨٣١م فأبحر فى عمارة بحرية ونزل بيافا وكان قد سبقهُ جنده برًا ففتحوا العريش وامتلكوا غزة والرملة ويافا وذهب بعضهم لفتح القدس فقاتلهم جماعة أبى غوش ومن معهم من الرجال وصدوهم فاتجهوا نحو طريق وادى الشعير ونابلس فذللوا العقبات التى اعترضتهم وعبدوها وفتحوا نابلس والقدس ثم سار إبراهيم باشا بجنده إلى حيفا وجعلها مركزًا لأركان حربه ومستودعًا للذخائر والمعدات وشدد فى حصار عكا وأعانهُ الأمير بشير الشهابى فخافته الدولة وبعثت جيشًا لمحاربته فهب إبراهيم باشا لمناجزتهِ فالتقى بهِ قرب حمص وبدد شمله فقال الشاعر العربى «الجندى».

من مبلغ الأتراك أن جموعهم هزمت وأن حسينهم ولى إلى

فذاع صيتهِ وفتح عكا وامتدت فتوحاتهُ إلى ما وراء قونية وأخذ رشدي باشا قائد الجيوش التركية أسيرًا سنة ١٢٤٨ هـ وسنة ١٨٣٢م وتقدم إلى ضواحى مدينة بروصة ولولا تدخل الدول و تهديدها ووعيدها لدك عرش العثمانيين واستولى عَلَى مملكتهم. وفى سنة ١٨١٧م قدمت عصابة من الوهابيين إلى حوران وهددوا دمشق فأعدت لهم الدولة القوة وردتهم من حيث أتوا.

٧٩ - ثورة أمراء فلسطين ومشايها :

قدم إبراهيم باشا البلاد وهو يظهر أن عبد الله باشا خرج على الخليفة وقد أرسله السلطان ليؤدبه ويجازيه عَلَى عصيانهِ فصدقهُ البعض وأذعنوا إليه حتى انجلت لهم نيته ووضح مقصده وكلفهم بجنود وأموال لا قبل لهم بها فندم أمراء الإقطاعات عَلَى سكوتهم واجتمعوا فى قرية بيت وزن «غربى نابلس» واتفقوا عَلَى محاربتهِ ومقارعته فنكث جماعة منهم. ومالوا مع إبراهيم باشا فساعدوه ودلوه عَلَى الطريق والمياه فعاجل المخالفين قبل أن ينظموا حركتهم وفتح طول كرم ثم نابلس وعطف عَلَى القدس فاحتلها وقد تهافت الأهالى على قتاله من كل جانب

فهاجمهم وكسر جمهور القبائل الشمالية عند شعفاط ولكن أهالى الخليل هزموه عند برك سليمان وحصروه فى القدس فاستعاد نشاطه وقارعهم ثانية فظفر بهم ودوخ البلاد وقتل من قتل وشنق من شنق وتزلف إليه البعض وهابه السكان فأصبحوا خاضعين لدولته وأوامره يقدمون الجنود ويدفعون الضرائب بلا ممانعة فبنى قشلاق باب الخليل واتخذ القدس له عاصمة ومكث يحكم فى البلاد ١٠ سنوات وفى سنة ١٨٤٠ م سنة ١٢٥٦ هـ خذلتهُ فرنسا وضغطت عليهِ دول التحالف فاضطرتهُ للتخلى عن جميع فتوحاته وسمحت له بمصر ولاية ممتازة يتعاقب عليها نسله من بعده بشرط أن تظل خاضعة للآستانة فقبل مكرهًا وتقدم أحفاده إلى أن صاروا ملوكًا.

٨٠ - حرب القرم :

طارت شرارة من فلسطين فأذكت حربًا ضروسًا بين الدول الكبرى وسلمت هى منها كقنبلة انبعثت من فوهة مدفع فلم تضره وانفجرت فى شرق أوروبا وقفقاسية فخربتهما. وأسباب هذه الحرب كثيرة منها، التنافس المستمر بين قسس الارثوذكس واللاتين وتسابقهم إلى حيازة الأماكن المقدسة فى فلسطين ومن خلفهم روسيا تؤيد الارثوذكس وفرنسا تعضد اللاتين لا لشفقة إنسانية أو عاطفة دينية ولكن لبسط نفوذهما فى الشرق وللتدخل فى شؤون الدولة العثمانية فرجحت كفة فرنسا سنة ١٧٤٩م وفازت بعقد معاهدة مع الدولة العثمانية نصت عَلَى أن لفرنسا الحق بحماية مسيحيى الشرق فاشتد أزر الكاثوليك واستولوا عَلَى الكنائس وتصرفوا بها تصرف المالك المستقل فاستاء الارثوذكس وغضبت حاميتهم روسيا وأخذت تسعى بنشاط لإلغاء هذه المعاهدة ومحق هذا النفوذ. فلما شغلت فرنسا بحروب الثورة الأهلية دفعت روسيا قسس الارثوذكس وكهنتهم إلى التحرش بالكاثوليك فتعدوا عَلَى حقوقهم وسلوبهم إياها فامتعضت فرنسا وصبرت كارهة إلى أن تعين نابليون الثالث وفاوض الدولة العثمانية وكاشفها برد حقوق أهل ملته المغصوبة فألف الباب العالى لجنة من أشخاص مختلفى المذهب وأناط بهم فصل هذا الخلاف بمقتضى المعاهدات الدولية القديمة فاجتمع الأعضاء وتذاكروا مرات ثم قرروا فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٦٨ هـ و ٤ شباط سنة ١٨٥٢ م أن

للكاثوليك الحق فى امتلاك بعض الأماكن المقدسة دون غيرهم فعارضت روسيا وحالت دون إنفاذ هذه الاتفاقية وهددت الباب العالى بالحرب إذا هو لم يعدل عن رأيه. وأصرت فرنسا على التمسك بحقوقها فترددت الدولة حينًا ثم جزمت ونفذت مضمون قرار اللجنة الأخيرة. فاتخذت روسيا هذا العمل ذريعة لتطبيق وصية بطرس الأكبر «الاستيلاء على استانبول والمضايق» وأرسلت البرنس منشيكوف سفيرًا غير اعتيادى إلى الأستانة ليخابر المابين فى شأن الأماكن المقدسة فذهب وباشر مناوراته السياسية وطلب بإلحاح شديد احترام معاهدة خونكار القاضية بان يكون لروسيا الحق بحماية جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية فماطله الباب العالى ثم خاشنه فقطع علاقته من حكومة الاستانة وهددها باحتلال إمارتى الأفلاق والبغدان «رومانيا» فتوترت السياسة وتحزبت إنكلترا لفرنسا وعضدتا الدولة العثمانية فأعلنت روسيا الحرب واجتاز عساكرها نهر البروث واحتلت الولايتين فعلاً فحشدت الدولة العثمانية جنودها وجمعت جمعًا كبيرًا من البلاد العربية(*) وبعثت بهم إلى حدود روسيا واشترك معهم جنود الإنكليز والفرنسيين واحتدم القتال فنال الفريقان ما ينال المحارب ولكن روسيا خذلت وتركت حصونها ومعاقلها.

وفى سنة ١٣٣٤هـ وسنة ١٩٠٦م اختلفت الحكومة العثمانية والدولة الإنكليزية عَلَى تعيين حدود مصر وفلسطين ثم اتفقتا عَلَى أن يختار كل منهما لجنة تنوب عنها فى فض الخلاف فاجتمع الأعضاء وخططوا الأرض وضبطوا الحدود وأصلحوا ذات البين.

٨١ - نقود وموازين ومكاييل فلسطين :

ما عرفنا حكومة كانت معرضًا تجاريًا لبلع بضائع دول أوروبا مثل البلاد العثمانية فإنها كانت مقيدة بسلاسل الامتيازات الأجنبية مغلولة بأغلال المذاهب الدينية حتى لعبت بها الأهواء وطوحتها المنازع وقذفت بها من عل إلى درك

(*) كان أهل المدينة أو القرية يذهبون بعيدًا وراء الجنود المجندة فيودعونهم بالبكاء والنحيب وحينما يعودون من غيبتهم يعملون لهم الافراح والولائم والمهرجانات

الاستعمار. ومن الدلائل الواضحة عَلَى فوضى الحكومة العثمانية واستعمار أوروبا الاقتصادى لها أنها كانت عاجزة عن نشر نقودها فى مملكتها ضعيفة عن توحيدها وترويجها بسعرها القانونى فلذا أخذ يتداولها كل بلد كما يريد وتفاوتت الأسعار وتعددت النقود وتباينت الموازين واختلفت المكاييل وهذا جدول يدلنا عَلَى النقدين الليرة الافرنسية والريال المجيدى «التركى» فى أسواق فلسطين.

المدينة	الليرة الافرنسية	الريال العثمانى «المجيدى»	البشلك
القدس	١٠٩	٢٣	٣
نابلس	١١٨	٢٥	١٣، ٣
يافا	١٢٤	٢٦	٣
غزة	٢٢٢	٤٧	٦
لواء عكا	١٠٨	١٢، ٢٣	١٦، ٣
الناصرة	١٣٠	٢٧	٣

وزد على ذلك أنهُ كان فى بعض القرى أسعار خصوصية للنقود غير داخلة فى ما ذكرناه مما يدل عَلَى أن الحكومة فى واد والناس فى وادٍ آخر لا يأتمرون بأمرها ولا يسيرون سيرها حتى إن الليرة الأفرنسية راجت أكثر من الليرة العثمانية فكان إذا باع أحد دابته أو ساوم على سلعته بليرات انصرف الذهن إلى الليرات الافرنسية ومن أراد غيرها لزم عليه التعيين، وحسبنا شاهدًا المتليك الأسود وما أحدثه من الشغب فى القدس فإن بعض التجار امتنع عن قبضهِ فسرى ذلك إلى الجميع ورفضوا استعماله والتداول به فنقصت قيمته ٧٠ فى المائة فأدركت الحكومة هذا الخطر الاقتصادى وخشيت تفشيه فى البلاد الأخرى فتلافتهُ. وضرب اليهود لهم نقدًا «تنكة ببارتين ونصف» فراجت بين أهالى القدس وشاعت بين الجميع.

أما المكاييل فليست بأحسن من النقود فإنها مختلفة الحجم متعددة النوع وهى: ثمنية، سدسيه، ربعيه، صاع، طبة، كيل، كيلة، مد، مسحة فبعض

البلاد تستعمل بعض هذه الأنواع وبعضها لا يعرفها وقد اتخذت عيارات أخرى والبلاد التى تشترك فى مكيال واحد تختلف فى كبره وصغره فطبة نابلس ثلاثة عشر رطلاً وثلث رطل، وطبة القدس ثمانية أرطال وصاع بنى صعب ثلاثة أرطال وصاع بنى زيد ستة ونصف، ثم لكل بلد اصطلاحات واعتبارات أخرى من حيث الكيل فبعضها يهز الصاع ويلبدها ويتفننون فى سمله وطنطرته وبعضها يستعمل كيل المرسل(*) وكذلك الموازين فإنها متباينة جد التباين فالرطل المشهور فى أكثر المدن ١٢ أوقية ولكنهُ فى عكا وبلادها اقتان فقط وامتاز بعض البلدان بأرطال خصوصية لبعض أنواع المبيعات فرطل الدخان ١٦ أوقية والعسل ١٨ واللحم ١٦ أو ١٨ أو ٢١ وغير ذلك وجرة الزيت متفاوتة أيضًا فهى فى نابلس غيرها فى القدس وفى يافا غيرها فى حيفا وعكا وللقرى عيارات خاصة فجرة الزيت تتراوح بين سبعة أرطال إلى تسعة و ١٠ و ١١ و ١٦ و ١٨ وهلم جرا فالمسافر الذى يطوف فلسطين يفتقر إلى درس طويل واختبار كبير لمعرفة النقد وأسعاره وفهم الموزونات والمكيلات فكيف به إذا ساح فى جميع الأقطار العثمانية.

٨٢ - بعض أسواق فلسطين :

كان للعرب منذ جاهليتهم أسواق ينتجعونها ويرتادونها فيستبضعون منها ما يحتاجون ويعرضون ما كانوا مستغنين عنهُ وهناك كانوا يتطارحون الأشعار ويتناشدونها فإذا ما انقضى زمن الموسم انصرف بعضهم إلى البوادى والمنازل واستأنف البعض الآخر السير حيث المواسم الأخرى وقد أخذ سكان فلسطين أسواقهم عن تلك المواسم الكبيرة وقصروها عَلَى عرض المبيع فقط «أسواق تجارية» فترى الأقوام يتوافدون إليها من الصباح زرافات زرافات إلى أن تغص بالجماهير الطالبة والعارضة فيجول الشارى ويتردد بين البائعين وينتقى منهم ما يعجبه ويروق له فيسومه ويشتريه ثم ينصرفون قبيل العصر وأشهر هذه الأسواق: سوق اللد وتقام يوم الاثنين من كل أسبوع. أسواق الناصرة والرملة وبئر السبع وتقام يوم الأربعاء وسوق بنى صعب وتقام يوم السبت أما أسواق القدس وغزة ومجدل

(*) بلا هز ولبد بل كما يسع الصاع.

عسقلان ويافا والخليل ونابلس فكلها تقام يوم الجمعة من كل أسبوع فلو اعتنت الحكومة بهذه الأسواق الطبيعية ووسعتها ونشطتها وحولتها إلى معارض تجارية وأدبية لاستفادت منها كثيرًا.

٨٣ - أقسام فلسطين الإدارية :

مر بفلسطين أطوار شتى كانت تنفرد بنفسها أو تقتسمها مصر أو سورية ثم لا تلبث أن تنضوى تحت جناح أحدهما أو تنضم سورية ومصر إلى العراق وتصير جميعها كتلة واحدة وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم أما فى القرن التاسع عشر فقد انتاش فلسطين تقلبات إدارية كثيرة نلخصها كما يأتى:

كانت عكا حاضرة فلسطين الإدارية الوحيدة ثم قطعت صيدا قسمًا منها وبعد حين أخذت الشام نابلس وبلادها وظلت البقية تابعة لعكا ثم التحقت جميعها بالشام مركز الحاكم العام «باشا الدورة» أما النظار والمتسلمون «حكام البلاد» فكانوا وطنيين من فلسطين يحكمون مقاطعاتهم ويجبون الضرائب ويجمعون الجنود ويطوف عليهم «باشا الدورة» فيأخذ منهم ما تعهدوا به. فلما اعتزم السلطان محمود عَلَى الإصلاح ألغى فرق الانكشارية(*) وأبادها ومحا الطوائف الأخرى كالسلاحدارية والعلوفجية واستبدل بها فرقًا منظمة وغير العمامة بالطربوش الرومى وتزيى بالزى الأوروبى وأمر باتخاذه زيًا رسميًا وعسكريًا.ثم جاء من بعده من الملوك فأدركوا أنهم غرباء فى البلاد العربية وتهجموا عَلَى فلسطين فنفوا بعض النظار «أمراء الإقطاع» إلى طرابزون وحولوا النظارات والمتسلميات إلى مديريات عَلَى رأسها وطنيون ثم الغيت المديريات وتجرد المشايخ من الوظائف المحلية الإقطاعية واستولى الأتراك عَلَى البلاد فعلاً فأمروا بتحرير النفوس وطوّبوا الأرضين ونظموا إدارة الأمن العام «البوليس والجندرمة» وأسسوا العدلية فكانت محاكم فلسطين تستأنف الحكم إلى عدلية الشام ثم تحولت إلى عدلية بيروت

(*) لهم بقية فى فلسطين عائلة أبى جعفر فى الرملة ويوجد عائلات أخرى فى القدس ونابلس وعكا وغيرها

وامتازت القدس فصارت متصرفية مستقلة تخابر الآستانة مباشرة في الأمور الإدارية وفى ابتداء القرن العشرين تأسس فيها محكمة استئناف فانضم إليها لواء نابلس وظل لواء عكا ملحقا ببيروت.

ومن ثم حكم العثمانيون البلاد بلا واسطة فأرسلوا مأموريهم الأتراك وقبضوا دفة الإدارة واتصلوا بالشعب ولكنهم تقربوا من أصحاب النفوذ وراعوا امتيازاتهم القديمة لاستمالتهم فتمادوا فى غطرستهم واستعانوا بقوة الحكومة واتخذوها آلة لتنفذ مآربهم فتسابقوا إلى تقديم الطاعة وترويج أوامر الحكومة ابتغاء الحظوة عند المأمورين وكان يعد سعيدًا من كسب ثقتهم وظفر بودهم لأنه يستفيد من صحبتهم بغض أبصارهم عن أعماله مهما كانت فيبطش ويستبد بالضعاف والفقراء ويغتصب أملاكهم ويمتص دماءهم ويبتز أموالهم ويعلو علوًا كبيرًا.

٨٤ - قيس ويمن وشيء عن الإقطاع :

هذا بحث جليل وددنا لو أن فى الكتاب متسعًا فنفيه حقه ونأتى على تاريخه بالتفصيل ولكن صدر السطور ضيق والموضوع محصور فى فلسطين فلذلك نجمل ما خرج عنها وندمجه فى أخبارها لئلا ينبتر البحث وتضيع الفائدة.

إن هذا الانقسام ظهر بين العرب قبل الإسلام وظل إلى يومنا هذا مصطبغًا بصبغات عديدة وأسماء مترادفة منها: العدنانية والقحطانية والحجازية واليمنية فى الجزيرة والقيسية واليمانية فى جميع الممالك الإسلامية خلا الأناضول وغربها. اليزبكية والجنبلاطية فى لبنان والفقارية والقاسمية فى مصر.

أما أسباب هذا الانقسام، فإن أهل اليمن كانوا يدعون أنهم أشرف وأفضل من سكان الحجاز والحجازيون ينكرون ذلك ويدلون بأفضليتهم عليهم فتمادوا فى المناظرة والمفاخرة حتى أدى ذلك إلى المشاحنة فوشجت النعرة العصبية وتحزب كل قبيل إلى أهله فاشتعلت الحرب الأهلية وتنبهت قرائح الشعراء ففتحوا بابًا خاصًا لمديح قومهم وذم خصومهم فجاء الإسلام وهم أحزاب متطاحنة فأنساهم تلك الأحقاد وجبّ ما قبله وجمع كلمتهم وأشغلهم عما مضى فانطوت الحزازات

والأحقاد ولبوا دعـوة الجـهاد وطفقـوا يفتحـون البلـدان ويقتسـمون الغنـائم إلى أن تمهدت الأمور وتبدلت الخلافة بملك فرجعوا إلى شنشنتهم الأولى ونبضت العصبية القيسية واليمانية فى مرج راهط فاستفزها بنو أمية وعملوا عَلَى إحيائـها فصـاهروا اليمانيين وتعصبوا لهم وكانوا يغزون بهم فى البر ويغزون بقيس فى البحر فشمخ اليمانيون ونقم القيسيون فاضطر معاوية أن ينصف بينهم ويغـزو بـهؤلاء سـنة فـى البحر وبأولئك سنة فانتصف القيسية ولكنهم لم يشكروا بنى أميـة وجـافوهم ولم يوالوهم فأطال شعراؤهم ألسنتهم عليهم وفاخروا ببنى هاشم وانبرى إليهم مناظرهم فكانوا يخرجون إلى أسواق البصـرة والكوفـة ويتفـاخرون ويتـهاجون فأشـعلوا نـار العصبية وأججوها فى أواخـر القرن الأول للـهجرة فتغلغلـت فـى قصـور الأمـراء وتخللت دواوين الحكام الذين انحازوا إلى قومهم فأعلوا شـأنهم وحطـوا مـن شـأن عدوهم فشجر آنـذاك الخـلاف ونتـج نـزاع مسـتمر أسـفر عنـه ضعـف بنـى أميـة وانقراضها. وقد سـرت هـذه الـروح فـى الدولـة العباسـية ومـا بعدهـا مـن الـدول فاستعلى الأعاجم وتقدموا والعرب لاهون فى قيسيتهم ويمانيتهم التى تمشـت فـى نفوس بنيهم وورثها أحفادهم فكان إذا حدث أو دب فى النفس ما يحركـها تثـور فيصطدم الحزبان ثم تنطفئ وقد زمت الجوانح عَلَى فساد.

فلما قدم السلطان سليم العثمانى إلى البلاد العربية وفتح مصـر–كـانت النفـوس قد سئمت والعزائم كلت وكاد الناس يتناسون التحزبات–فرغب فى مشاهدة حلبة سباق عربية وأمر بتشكيل فرقتين «صابيتين» وترأسهما قاسم وذو الفقار أبناء أحد المماليك وشرعا يلعبان بهزل كما نشاهد سباق الخيل فـى عصرنـا هـذا فانتعشـت النفوس وجاشت الهمم واختلط المزح بالجد ونشبت بينـهم ملحمـة كـبرى نفضـت جميع ما تراكم على هذه النعرة العصبيـة ورجـع النـاس إلى شـيمتهم وتحزبـوا إلى اللون الأحمر شعار القيسية واللون الأبيض شعار اليمانيـة ونـهض رؤسـاء القبـائل القيسية واليمنية فنشطوا وأحيـوا أحزابـهم حتـى أصبحـوا–أنـى وجـدوا وحيـث اجتمعوا–لو تعارضت مصالحهم عمدوا إلى القتال وعادوا للعراك وقد ورد فى بعض الفتاوى أن شهادة القيسى عَلَى اليمنى غير جائزة وشـهادة اليمنـى عَلَـى القيسـى

غير مقبولة مما يدل عَلَى أن العداء السياسى مستأصل فى نفوسهم. وآخر محارباتهم لم يكن عهدها عنا ببعيد.

كانت فلسطين منقسمة إلى مقاطعات وفى كل مقاطعة أمراء ومشايخ يرأسون من ينتسب إليهم من سكان تلك البلاد فكانت العزة والسيطرة والسيادة فى جميع بلاد الساحل والسهل إلى البدو سكان الوبر فبلاد السبع وغزة كانت منقسمة بين العزازمة والحناجرة والترابين والتياها والجبارات. فالعزازمة يمانيون ومشايخهم أجداد ابن سعيد وأمراء الترابين عائلة أبى ست وأمراء التياها الهزّيل إلا أن أنساب هذه القبائل غير صريحة فإنها مزيجة من عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسى واليمنى.

أما بلاد الخليل فأكثر سكانها قيسية وأمراؤهم دار عمرو. مركزهم فى دورة وعائلة العزى فى بيت جبرين وأما دار اللحام فإنهم يمنيون. وأمراء اليمنية فى مقاطعة القدس هم دار أبو غوش فى بنى مالك ومركزهم قرية العنب ودار على شيخه فى بنى حسن ومركزهم المالحة ودار عريقات فى الوادية ومركزهم أبو ديس والقرعان فى البيرة والزيادنة «دار الخطيب» فى بيت أكسا والدباونة فى دير دبوان والبيتونى فى بيتونية ودار عقل فى بنى حمار «حمير» ومركزهم نعلين أما أمراء القيسية فدار سمحان من بنى حارث ومركزهم رأس كوكو والعويسات فى بنى عمير ووادى الصرار ومركزهم رأس كوكر والعويسات فى بنى عمير ووادى الصرار ومركزهم البرج والبراغثة فى بنى زيد وبنى مرة وبنى سالم ومركزهم دير غسانه ودار الطويل فى البيرة. ثم كان فى المقاطعات الأخرى أمراء ينضمون إلى هذه الأحزاب سياسة ففى ساحل يافا عرب الجرامنة ومقابلهم أبو كشك وفى بنى صعب الجيوسى ومركزهم كور ويقابله البرقاوى فى الشعراويات ومركزه شوفة أما قاسم وريان فكانا يقتسمان بلاد جماعين وجورة عمرة ومركز الأول بيت وزن ومركز الثانى مجدل يابا وفى مشاريق البيتاوى دار الحاج محمد ومركزهم بيت فوريك ويقابلهم بنو شمس فى بيتا أماغور الفارعة فكانت تقتسمه عرب المسعودى والفاعور وكان أمير نصف بلاد جنين «مشاريق الجرار» جرَّار وهو قيسى ومركزه صانور ومناظره الأمير الحارتى فى بلاد حارثة وقبره فى جنين فلما انقرضت ذريته خلفهُ دار طوقان ونازعوا جرار السيادة وبعد أن جاءَ إبراهيم باشا استعلى

دار عبد الهادى «قيسية» وشطروا البلاد فانضم اليهم حزب كبير. وهم وجرار من فصيلة واحدة. وكان أمراء غور بيسان عرب الغزاوية والصقر وفى ساحل حيفا دار ماضى وبجانبهم أهالى صبارين ودار الشبلى فى طيرة حيفا أما فى بلاد عكا فكانوا عرب الحواسى «الهنادى» ومركزهم غاية شفا عمرو ولم يكن لغيرهم هناك عصبيات قوية مجتمعة ولا عائلات كبيرة بل كلما عظم شأن رجل انساق إليه حزب وسيطر على ما جاوره.

هكذا كانت تقسم البلاد وهؤلاء هم زعماء الأحزاب فكان إذا شجر خلاف داخلى فى منطقة واحدة انضم أبناء الحزب إلى بعضهم بعضًا وقاوموا الحزب الآخر ومن أحسَّ فى نفسهِ الضعف استمد من الحزب المجاور له واستنصر بنى قومه عَلَى عدوه وقد تفاقم الخطب فى القرن التاسع عشر وتنازع الحزبان فما كان أحدهم يجرؤ عَلَى المرور ببلاد الآخر معلنًا شعار قومه. فكان إذا خطب اليمانية عروسًا قيسية لا يذهبون إلى جلبها إلا «بفاردة» جمع كبير مسلح ولا يجوز لهم أن يرفعوا أعلامًا بيضاء أو يلبسوا العروس (هدمًا) بيضاء «شعار اليمنيين» حتى إنهم لو أخذوا عروسًا يمنية من بلاد يمانية فلا يسمح لهم أن تجتاز البلاد القيسية وهى لابسة البياض وإن امتنع أصحاب العرس عن ذلك يعلن الحرب ويستطير الشر وكذلك القيسية فإنهم كانوا مجبورين على اتباع هذا العرف ولا ينكرون عَلَى البلاد سيادتها وعاداتها فإن من يرفع شعاره فى بلاد جاز له أن يتصرف بها.

وآخر حرب نشبت بين قيس ويمن الحرب التى وقعت فى قرية خربثة. وقد أخذت هذه العادة فى الخفاء والانمحاء فلا يمضى عليها فترة من الدهر إلا وتنسى ولا يدرى الرجل أهو قيسى أم يمانى.

٨٥ - الحرية فى فلسطين :

تكونت الدولة العثمانية بقوة السلاح وبنيت عَلَى الحروب وأغفلت كل شىء فتقدمهم من كان متأخرًا عنهم وعلاهم من كان دونهم.فحاول السلطان محمود الإصلاح فلم يتوفق تمامًا ولكنهُ أزاح عن أعين المفكرين نقابًا وجاء من بعده

السلطان عبد المجيد فنشر خط كلخانة سنة ١٢٥٥ هـ وسنة ١٨٣٩م ونظم القوانين والمحاكم والإدارة الملكية وغيره ذلك مما تتطلبهُ الحضارة ويلائم حالة الأمة إلا أن إرادة السلطان كانت فوق كل قانون فجاء مدحت باشا بطل الحرية وأبو الدستور ورئيس أحرار العثمانيين وتعهد للسلطان عبد الحميد قبل أن يجلس عَلَى العرش أن يمهد له السبل ليكون سلطانًا بشرط أن يمنح الدستور للأمة ويمتع البلاد العثمانية بالحرية فوعده بتنفيذ ذلك ولما بويع عبد الحميد بالسلطنة أعلن الحرية ونشر القانون الأساسى وأمر بانتخاب نواب عن جميع البلاد فذهب عن القدس العلامة الكبير يوسف ضيا باشا الخالدى وفتح المجلس سنة ١٢٩٤هـ ولكن لم يطب لعبد الحميد هذا العمل وشعر أنهُ مقيد ففضه وأغلقه سنة ١٢٩٥هـ وشرد الأحرار وطردهم ونفاهم وبطش بالمتنورين وساس البلاد بالاستبداد والإرهاب فأكبر ذلك الشبيبة العثمانية الراقية وأبوا أن يخضعوا لسلطة رجل غشوم فعملوا سرًا وعلنًا وفازوا بأمنيتهم فأعلنوا الحرية مرة ثانية فى عهد هذا السلطان وضبطوا الأمور حذرين من خداع المستبدين واستمالوا الجيش العسكرى واحتلوا المراكز المهمة فأذاعوا الحرية فى طول البلاد وعرضها وكتمت فى القدس حتى جهر بها الحاج راغب أفندى الخالدى والمرحوم حسين أفندى سليم الحسينى وكان شعار الناس قاطبة حرية عدالة مساواة فكثر الفساد وعم التعدى وضعفت الإدارة الملكية وسادت الفوضى وَضَئُولَتْ هيبة الحكومة وطمح الناس إلى احتقار الحكام وجهلوا معنى الحرية فظنوها الاشتراكية أو الفوضوية فكان الرجل ينهب مال غيره ويستبد بالضعيف وإذا عنفته أو زجرته قال حرية مساواة.

ثم أمر بانتخاب نواب من البلاد فذهب عن لواء القدس المرحوم روحى بك الخالدى(*) وسعيد أفندى الحسينى وحافظ بك السعيد (يافا) وعن لواء نابلس الشيخ أحمد أفندى الخماش وعن لواء عكا الشيخ أسعد أفندى شقير وفتح المجلس وبعد حين باغتهم السلطان عبد الحميد وفتك بالأحرار وأعلن ثورة ضدهم

(*) كان من علماء الأمة العربية وفضلائها تقلد فى مناصب عالية،وله مؤلفات جليلة بعضها طبع والبعض الآخر جاهز للطبع.

باسم الدين وحـاول القضـاء عَلَـى الـروح الجديـدة فداهمـهُ محمـود شـوكت باشـا الفاروقى واحتل الاستانة فاجتمع النواب وقـرروا خلـع السـلطان سـنة ١٣٢٥ هـ وسنة ١٩٠٨م وأمنوا شر الطاغيـة الكـبرى وجعلـوا مكانـه محمـد رشـاد الخـامس وهنالك تكـبر الاتحـاديون وتولـوا إدارة البـلاد فقـال بعضـهم باسـتتراك العنـاصر الأخرى أو إبادتهم ولعبت الأيـدى الأجنبيـة فـهبّ رجـال العـرب وانضـم إليـهم معتدلو الأتراك فأسسوا حزب الائتلاف وزاحموا الاتحاديين وحـاولوا أن يكـثروهم فى المجلس فطافوا البلاد وخطبوا فلم ينجحوا وذهب عن القدس ثانية روحى بك الخالدى وعثمان أفندى النشاشيبى وأحمد عـارف الحسـينى (غـزة) وعـن نـابلس حيدر بك طوقان وعن عكا الشيخ الشقيرى فلم تطل مدتهم وحـل المجلـس وأعيـد الانتخاب ثالثة فحاز الأكثرية عن القدس راغـب بـك النشاشـيبى وسـعيد أفنـدى أفندى الحسينى وفيضى أفندى العلمى وعن نابلس توفيق أفندى حماد وأمين بـك عبد الهادى وعن عكا عبد الفتاح أفنـدى السـعدى. فتنبـه العـرب وأدركـوا أنـهم مغلوبون عَلَى أمرهم والأتراك مسيطرون عليـهم فلـم يطمئنـوا ولم يرضـوا عـن هـذا الجور فهب أهالى سورية مطالبين بالإصلاح علـى قـاعدة اللامركزيـة أى اسـتقلال داخلى إلى جميع بلاد العـرب وجـهر بعـض النـواب والوجـهاء بأمنيتـهم ونـادى طلاب مدارس الآستانة بهذه الدعوة وعقدوا الاجتماعات وأسسوا النوادى والجرائد والمجلات ليدافعوا عن قضيتهم ثم عقـدوا مؤتمـرًا عامًـا فـى بـاريس تداولـوا فيـه أبحاثًا هامة وقرروا قرارات خطيرة وبثوا دعاتهم فى سائر الأقطار والأمصـار فكـان داعيتهم فى القدس أبو حسين النشاشيبى فأشبع روح الشـباب بتعاليمـه الوطنيـة حتى عالنوا الحكومة بأمانيهم وجاهروا ونقموا سياسة الأتراك ووجهوا نظرهم نحو الجزيرة وعلقوا آمالهم بمنقذ العرب السلطان حسين الهـاشمى فاستوحشـت منـهم الحكومة العثمانية وترضتهم وهادنتهم واعتزمت على أن تحدث تغييرًا فى قوانين وشكل إدارة البلاد العربية وقد نال بعـض رجـال العـرب منـاصب عاليـة وأمـرت الحكومة أن تكون اللغة العربية رسمية فى البلاد التى يكون أكثرها عربًـا. وبينمـا هم يستخلصون حقوقهم تدريجيًا فاجأتهم الحرب العامة فأخمدت الجذوة العربية المتقدة فى الصدور والأنوف الحمية.

٨٦ - ثورة حوران والكرك :

أشرقت الحرية فى البلاد العثمانية فشملت السكان نشوة طيش وتـاقت نفـوس الاتحاديين إلى تجديد دولتهم فى سنة واحدة ليضارعوا دول أوروبا العظمى وكادوا يدركون غايتهم لو سـلموا مـن الدسـائس الأجنبيـة وحكمـوا العقـل قليـلا ولكنـهم تهوروا وكلفوا البلاد فوق طاقتـها فطـالبوا البـدو بتقييـد نفوسـهم وإجبـارهم علـى التجنيد وأكرهوهم على دفع الضرائب تمامًا فاستاء لذلـك دروز حـوران وشمخـوا وتعـالوا ونبـذوا الأوامـر وعصـوا الأحكـام فـانقض عليـهم سـامى باشـا الفـاروقى كالصاعقة أدبهم وأخضعهم ونفى زعيمهم وطرد قادتهم وشيوخهم فاذعنوا مسلمين وسلموا طائعين. وبلغـه أن أهـالى الكـرك قـد امتنعـوا عـن تعـداد النفـوس وفتكـوا بالمأمورين بتحريض عائلة المجالى فزحف إليـهم واجتـاز شـرقى الأردن وأدخلـهم فى الطاعة وكتب نفوسهم وعد أغنامهم ونفى زعيمهم توفيق بـك المجـالى وجعـل أرضهم بلادًا عثمانية فعلاً وقسا عليهم ونكل بمن تعدى عَلَـى المـأمورين واسـتهان بأوامر الحكومة الرسمية ثم عاد راجعًا. وقد حدث فـى هـذه الفـترة أن اكتسـحت النمسا بلاد البوسنة والهرسك وانقضت إيطاليـا عَلَـى طرابلـس الغـرب فاعترضـها السنوسى وانضم إليه زمرة من أبطال الاتحاديين فأتعبوها وأشجوها.

واجتمعت دول البلقان وحـاربوا الدولـة العثمانيـة فـهزموها واغتصبـوا بلادهـا المأهولة بالأتراك والعناصر الأخرى وهوت الدولة التركية من شامخ مجدها.

obeikandl.com

الفصل الخامس عشر

٨٧ - الحرب العظمى فى فلسطين :

هبت عاصفة عَلَى العالم فهزمت الشرق والغرب وخطفت العقول والنهى وسلبت الألباب والحجى فأصبح المفكرون خاضعين للعاطفة الحيوانية قَرمين لسفك الدماء فأعلنت دول أوروبا الكبرى الحرب العظمى والتزمت الدولة التركية الحياد إلا أنها نظمت دوائر الرديف وحولتها إلى شعب عسكر ووزعت عَلَى جميع القرى مغلقات كبيرة مغلقة وأمرت المخاتير ألاَّ يفضوها إلا متى آذنتهم وفى ٢٨ تموز سنة ١٩١٤م استطار الشر فى الغرب وأعلنت النمسا الحرب عَلَى الصرب ودخلت ألمانيا لوكسمبورج وأنذرت البلجيك فى ٢ آب سنة ١٩١٤م وفى ٤ منهُ أنذرت إنكلترا ألمانيا ثم أعلنت عليها الحرب وفى ٦ منه أعلنت النمسا الحرب عَلَى روسيا وفى ١٠ منهُ أعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا وفى ١٢ منه أعلنت إنكلترا الحرب عَلَى النمسا وفى ١٣ منه أعلنته فرنسا على النمسا وفى ٢٠ منه احتل الألمان بروكسل عاصمة البليجك وفى ٦ أيلول سنة ١٩١٤م اجتازوا المارن.

وهناك أمرت الحكومة العثمانية بالنفير العام «سفر برلك» وجمعت كافة جنودها المعلمين وساقتهم إلى البلاد ذوات المياه وسلمتهم سلاحًا وأخذت تُمَرِّنهم عَلَى الأصول العسكرى الألمانى وشكلت لجانًا لجمع التكاليف الحربية والمبايعات وأمرتها بمصادرة جميع ما يلزم الحكومة ويوجد عند الأهالى من لباس ومأكل وحيوان ركوب أو عربة نقل فأخفى الأهلون سلعهم وقطعت عن البلاد الواردات الخارجية فتصاعدت الأسعار ودخل السكان فى أزمة لم يكونوا يتوقعونها من قبل فكنا نرى الحالة حالة حرب لكن الحكومة العثمانية كانت متحايدة حتى أتاها نبأ من السر ادورد غرى وزير خارجية إنكلترا أنهُ أخذ البارجة «السلطان عثمان»

التى تعمل لحسابهم فى مصانع ارمسترنغ الإنكليزية فأكدت له تركيا أنها تنوى المحافظة عَلَى الحياد التام وما غرضهم من تعبئة الجيش إلا ليكونوا مستعدين للمفاجآت والطوارئ(*)، فأجاب غرى أنهم مضطرون لإبقاء جميع البوارج فى مياههم وسيعوضون الأتراك ما لحقهم من الخسارة. وفى ١٠ منه دخل الطرادان الألمانيان غوين وبرسلو الدردنيل فقبلتهما الحكومة العثمانية وأعلنت فى اليوم التالى أنها ابتاعتهما. وفى ١٦ منه أبلغت دول الاتفاق الحكومة أنهن يحافظن عَلَى استقلالها وسلامة أملاكها من طمع كل عدو إذا بقيت معتصمة بالحياد مدة الحرب وفى ٩ أيلول و ١٨ شوال سنة ١٣٣٢هـ ألغت الدولة العثمانية الامتيازات الأجنبية فاستنكر هذا العمل جميع الدول حتى ألمانيا والنمسا وتحول الدردنيل والآستانة والبسفور بسرعة إلى منطقة ألمانية يسيطر عليها الألمان الذين خلقوا الأسلوب الفنى لجر الحكومة العثمانية إلى الحرب وأوعزوا إلى النسافات التركية فسطت ثلاث منها فى ٢٧ تشرين الأول على ميناء أوديسا وأغرقت سفينة وعطلت باخرة أفرنسية فغضب السفراء وقطعوا علائقهم من الآستانة وطلبوا جوازات السفر حالاً ففاز بعض الاتحاديين بأمنيتهم لاسيما أن جيشهم المدرب قد بلغ مجموعه نصف مليون جندى مسلح وربع مليون فى معسكرات التدريب فأعلنوا الجهاد العام وضربوا الطبل وامتشقوا الحسام. وانقسمت ساحات الحرب فى البلاد إلى أربعة مواضع(١) الدردنيل (٢) القفقاس (٣) العراق (٤) الحجاز وفلسطين. وإنا نترك الأقسام الثلاثة لبعدها عن موضوعنا ونتكلم عن فلسطين والثورة العربية الفتية.

تعين أحمد جمال باشا ناظر حربية الأتراك قائدًا عامًا إلى البلاد العربية وكان تحت إمرته الفيلق الرابع والجيش الثامن وهو مؤلف من ٤٠ ألف مقاتل فتأخر جمال باشا برهة وجاء البيكباشى ممتاز بك(١) «قائد ألف» فحشد من قبائل بدو

(*) كان الصدر الأعظم العثمانى مصرًا على التزام الحياد ويؤكد كل يوم لسفراء الدول أنه لا يغرر بأمته أما وزير الحربية أنور باشا وحزبه فكان همهم حمل قومهم على الانضمام إلى المانيا.

(١) ياور أنور باشا اقتداء بموسى بن نصير لما أرسل مولاه طارق بن زياد إلى الأندلس وفتحها.

السبع آلفين ما بين فرسان وركبان ومشاة واخترق الصحراء الجرداء الخالية من البشر لأن الإنكليز تراجعوا إلى ما وراء القنال ثم ورد أشرف بك[1] ومعه لفيف من الأفغان والجركس والمغاربة ومتهوسى الوطنية وكان مستشارة الألمانى هلد نغورف وبيده أمر من أنور باشا بإعطائه ما يريد ثم التحق بممتاز وأوقعوا بطلائع الإنكليز وناوشوهم مرات فلم يحلوا منهم بطائل.

وكانت الأوامر صادرة بتأسيس مداخر الأرزاق «أنابر» وبناء المؤسسات العسكرية وحفر الآبار وجر المياه وتعمير الطرقات وتشكيل «أقوال» قوافل الجمال وغير ذلك نخص كلاً من هذه المواضيع بكلمة عَلَى حدة.

٨٨ - التموين «مداخر الأرزاق» :

قبل أن تقدم الدولة العثمانية عَلَى الحرب أخبرت الأمة بإعلان النفير العام وكانت تتوقع العصيان فأطاعها الأهلون ولبوا نداءها فسرت وعينت قومسيونات «لجانًا» لجمع الذخيرة فصاروا يطوفون الحوانيت ويأخذون منها ما أرادوا ويجمعون الحيوانات والدواب والأرزاق ويقدرون الأثمان ويعطون لأصحاب السلع سندات بقيمتها حتى كثرت لديهم الأرزاق فأمروا بتأسيس مداخر لها فى كل محل وجعلوا المدخر العام فى بئر السبع فكان لا يخلو مركز عسكرى أو ملكى من أنبار ثم توسعوا فانشأوها فى الصحراء ونشروها من شمال البلاد إلى قرب قنال السويس.

٨٩ - وسائط النقل «النقليات» :

تكدّست الأرزاق فى مخازن الدولة فاحتاجت إلى ما ينقلها ويوصلها إلى الصحراء حيث الجبهة الحربية وأنى يتم لها ذلك ولا طرق عربات ولا خطط حديدية تشتبك بها البلاد وتتصل بها الصحراء فاحتاطت لتدارك هذا النقص وجمعت ما يربو عَلَى ٤٠ ألف جمل غير عجلات النقل وطابور الحمير والبغال

---

(١) جركسى الأصل ورئيس عصابة فى البلقان ومن أبطال الثورة الأنورية والإنقلاب العثمانى وكان مدرس عصابته الجلد.

والحمالة(*) وقسمتها إلى شعب وطوابير وأقوال مرتبطة ببعضها البعض وربطتها بمفتش ورقيب ألماني فكانت تسير هذه القوافل من أقصى بلدان فلسطين إلى جوف الصحراء محملة بالأرزاق والآلات فلم تف بالحاجة واضطرت الحكومة إلى مقاولة المتعهدين لإتمام هذا النقص فقصرت همتها عن إيصال المنقولات فى حينها إلى محتاجيها وقد نكبت بموت كثير من جمالها لإهمال الضباط وقلة اعتناء الأفراد بها فكنا نرى أشلاء الجيف ورممها مطروحة عَلَى جوانب الطرق متعاطفة عَلَى بعضها بعضًا. هنالك أمرت بمد الطرق الحديدية وتمهيد سكك العربات وحصرت مهمة الجمال فى توزيع الأرزاق عَلَى الجنود داخل الصحراء وورد عليها «أوتوموبيلات» ألمانية ونمساوية ولكن بعد فوات الوقت.

٩٠ - تعبيد الطرق «العمليات» :

عجزت الحكومة بواسطة الجمال أن توصل الأرزاق والمعدات الحربية إلى الجند فى وقت الحاجة إليها فأمرت بإنشاء الطرق وجمعت ضعفاءَ الجنود والعجزة الذين لم يتمرنوا ولم يتدربوا عَلَى حمل السلاح «سلاحسز» وأطلقت سجناء القدس وشكلت منهم طوابير «فرق عمال» وجهزتهم بما يلزم من الأدوات والآلات وأمّرت عليهم الضباط المتقاعدين وجعلت بعضهم لتعبيد طرق العربات وبعضهم لمد السكك الحديدية «والده قويل» وإنشاء المؤسسات فمدوا طريق القطار من العفولة إلى بيرين جنوبى الحفير يقطعها الراكب فى ثمانية أيام. وأوصلوا طرق العربات بكل مركز عسكرى أو نقطة حربية وداومت عملها حتى سئم الجنود وفروا فأجبرت الحكومة أهل القرى عَلَى تقديم عمال إليها وكانت تراقبهم بضباطها فنظمت جميع ذلك وهى عَلَى وشك الوداع.

٩١ - المؤسسات «الإنشاءات» :

لما كانت ساحة فلسطين الحربية منحصرة فى الصحراء الخالية من الموارد الطبيعية كالغذاء والمياه والبناء عزمت الحكومة العثمانية على إيجاد هذه الأشياء

(*) أشخاص يحملون الأرزاق والأشياء من القدس إلى الخليل والسبع.

فحفرت الآبار وجرت ا لمياه فى القساطل «الأنابيب» إلى مسافات بعيدة وبنت أحواضًا لسقى الحيوانات وصنابير «حنفيات» للشرب وبنوا المستشفيات ومستودعات الأرزاق ومحطات للسكك الحديدية وللبريد والبرق(*) ومحلات للضباط. واستغنوا عن كل هذا فى المدن فتبسطت واستولت عَلَى جميع المؤسسات الأجنبية وامتلكتها واستعملتها لما يلزمها فأخذت نوتردام والمسكوبية والدومنيكان ومدارس الفرير والمطران والصلاحية. وأسسوا دار الصناعة والإصلاح «معامل» فكان إذا ما تخرب شيء يعمر حالاً أو يعطى عوضه وقد اكتسب الأتراك من الألمان جرأة فعبثوا بأوروبا وافتضوا هيبتها واحتقروا عهودها وداسوا معاهداتها وعاملوا دولها معاملة النظير للنظير.

٩٢ - البعثة الألمانية العسكرية :

تسلل بعض ضباط الألمان وتجند من كان فى سورية وانخرطوا فى الجيش العثمانى فرابنا أمرهم وانتظرنا العقبى وسرعان ما رأيناهم قد انضموا إلى قائد الحدود فون كريس Kress von Kresstein فأعطى كلاً منهم العمل الذى يصلح له وفتح الخواجه «فاست» مطاعم ومنازل خصوصية لهم يأوون إليها. فلما اتصل الألمان بالأتراك أرسلوا حملات نمساوية وألمانية مؤلفة من طوابير «قطع عسكرية» وفيهم الطيارون والمدفعيون والمشاة وسائقو «الأتوموبيلات» فاستقبلهم القائد العام «فون كريس» وحاشيته بحفاوة وخطب فيهم عَلَى محطة بئر السبع فقال:

أيها الأبطال! أنتم أبناء من احتلوا باريس وشهدوا موقعة سيدان أنتم بأنفسكم قد اخترقتم قلاع البلجيك ودككتم حصونها وتغلغلتم فى أقاليم فرنسا ومزقتم جيش روسيا أنتم الذين جرعتم جميع أعدائكم الهوان وها أنا قد أتيت بكم لأنفذ بعزمكم الألمانى فى شريان إنكلترا عدوة الإنسانية ولتنتزعوا من يدها القنال وتشفرا البشرية المتألمة من ظلم واستعمال إنكلترا.. إلخ.

(*) كثرت فى هذه الحرب أسلاك البرق والتلفون والتلغراف اللاسلكى.

ثم ساروا وقد أعد لهم مخيمًا فاخرًا فكانوا ينـامون عَلَـى سـرر ويـأكلون طيـب الطعام وأعذب الشراب وكانوا أنى ذهبوا يصحبهم الرخاء وأنى ساروا يوفر إليـهم خير المآكل فطمعوا واستطالوا على الأتراك واحتقروهم فحدثت نفرة بـين الفريقـين كادت تفضى إلى سوء العقبى فأسس الأتراك جمعية فى بئر السبع غايتها مقاومـة النفـوذ الألمـانى فكبحـوا جماحـهم وخففـوا مـن غلوائـهم وظلـت الفـرق الألمانيـة والنمساوية تصحب الجيش التركى حتى الانهزام الأخير.

٩٣ - الجراد :

لم يكف الناس ما حل بهم من البلايا حتى فـاض عليـهم طوفـان مـن الجـراد فأكل الزرع والأثمار ورعى العشب وقشرَ الأشجار ثم غرس فى الأرض وباض وفرّخ فاستعد السكان لدفعهِ وقاوموه ولكن حاولوا عبثًا فانتشر ثانية زاحفـا عَلَـى الأرض وطائرًا فى الفضاء لا يأتى على شىء إلا ذهب بهِ ففزعت الحكومة وعينت جنـودًا ومأمورين ملكيين لتلافى ضرره وكلفوا أهل البلاد بإتلافهِ فعجـزوا عـن رد غائلتـه وفى الحقيقة أن من كان يـراه سـابحًا عَلَـى الأرض يتوهـم أنـها مـادت بـه أو أن هنالك بحرًا رجراجًا فتضعضعت الحالة الاقتصادية وساءت الحركة التجارية فزاد الغلاء واشتد الفقر وقحطت الأرض وقاسى الفقير الويل والعذاب.

٩٤ - الحركة الاقتصادية :

أعلن النفير العام فانقطعت الـواردات الخارجيـة وغلـت أيـدى أهـالى فلسـطين ودخلـوا فـى الجنديـة فـأهملت الأرض وقلـت الحـاصلات لاسـيما أن الحكومـة أخذت تجبى ضرائبها عينًا فتأخذ من الغـلال حصتـها وتشـترى ثلاثـة أضعافـها وزاد على ذلك ظلم المأمورين وتقديرهم الكمية بأكثر مما هى ولم تقـف أيضًـا عنـد هذا الحد بل صادرت جميع الحـاصلات وعينـت لكـل فـرد مـن الأهـالى مؤونتـه وبذاره فقط واحتكرت البقية فسئم الزارع ومل الصانع وفرغ حانوت التاجر فعمـت الطامة وجلت المصيبة وارتفعت الأسعار أربعـة أضعافـها وتعـددت حوانيـت بيـع الأثاث المستعمل Second hand فصار كل محتـاج يعـرض مـا لديـهِ ليبيعـه بثمـن بخس يشترى به قوتًا لعائلتهِ الجائعة وعظمت الرزايا بهبوط أسعار الورق النقـدى

فإن الليرة العثمانية نزلت إلى ١٨ قرشًا ومع دناءة سعرها ورخصه فإنها كانت فى جبهة الأسد «وبها تقضى الحاجات».

٩٥ - الصحة العمومية :

قلما تحدث حرب إلا ويصحبها الوباء والعلة فيقل الغذاء ويفسد الجو والصعيد فتنتشر الميكروبات وتكون الأجسام قد ضعفت عن مقاومتها فتتفشى الأمراض وتفتك الأدواء كما شاهدناه أثناء الحرب. فقد احتاطت الحكومة لمنع وقوع هذا العارض وأسست طوابير تنظيفات «كناسة» وأكثرت من الأطباء والصيادلة وأناطت بهم مراقبة الأمور الصحية فهجمت الحميات والأمراض السارية وانتشرت الدسنطاريا والكوليرا والتيفوس والتيفوئيد فحصدت النفوس ونهبت الأعمار وكنا لا نرى غير وجوه شاحبة وأجسام ضعيفة منهوكة القوى.

٩٦ - الأخلاق العمومية :

فى خلال هذا الحرب رأينا من فساد أخلاق بعض الشرقيين ما زَهَّدنا فى الحياة فإنهم نحروا الفضيلة وأقاموا الرذيلة وتبذلوا مفتخرين بالعيوب والمساوئ فسخط الفضلاء ظانين أن هذا المرض سرى بين بنى قومهم فلم يتعدهم ولم يتجاوز سواهم. فلما أتت الجنود الألمانية والنمساوية وجدناهم أحط منا وأجرؤ على ارتكاب الموبقات فحوقلنا ومقتنا أعمالهم وأخلاقهم المنحطة وسلوكهم الحيوانى وتوهمنا أن المرض التركى تمشى فى مفاصلهم وتسرب إلى آدابهم فلما قدمت الجيوش الإنكليزية المزيجة من عناصر الأرض وجدناها أدنى وأحط فلا عيب تتوقاه ولا حرام تأباه فعلمنا أن الحرب مفسدة الأخلاق وأى حرب أعظم من هذا لاسيما أن سكان المدن ومن جاوروا معسكرات الجنود كانوا أكثر فسادًا من سكان القرى البعيدة عنهم.

٩٧ - الديوان العرفى :

أعلنت الحكومة العثمانية الحرب وأمرت بتطبيق الأحكام العرفية فى جميع أقطار مملكتها فكان الديوان مؤلفًا من مجلسين: هيئة تحقيقية «اتهام» ومحكمة

عرفية فاتخذوا مركزه فى القدس بيت القسيس سايكس قبالة الكنيسة العربية. فكان جحيم المحاكم وبلية البشر. أعضاؤه ضباط عسكريون تربوا عَلَى سفح الدماء فهان عليهم القتل وسهل لديهم احتقار البشرية وآلامها. فى حكمه القضاء المبرم والموت العاجل فإذا سيق المتهم إلى الهيئة التحقيقية استنطقه الضرب بالسوط والكى بالنار والتعذيب الشديد فيعترف بالجرم المنسوب إليه وإن لم يكن فاعلاً لأن الموت العاجل أخف من العذاب المتطاول فيكتبون إقراره رسميًا ويعتبرونهُ شرعيًا ويحولونهُ بأوراقهِ إلى المحكمة العرفية فإن خالف قوله الأول نزلوا عليهِ بالسياط وإن قبله تحكم عليهِ بأقصى درجات العقاب وتحول قرار الحكم إلى الحاكم المطلق جمال باشا السفاح[1] الذى يفعل ما يشاء ويختار ما يريد فيبرمهُ بلا تردد وكم من ذنوب ارتكبوها وخطايا اقترفوها ابتغاء مرضاة السياسة فإنهم اغتنموا هذه الفرصة وأخذوا يطبقون سياسة العسف والقسر فأبعدوا الفرق العربية والجنود السورية عن بلادهم ونقلوها إلى غاليسيا والدردنيل والعراق واستبدلوهم بأتراك وألمان ونمساويين وتمردوا وجاروا فأمر جمال بمحاكمة أعضاء مؤتمر باريس ومن اشتبه بهم من فتيان العرب الناهضين وشبابهم المتنورين فنفى البعض وساق البعض إلى عالية وحاكموهم وحكموا عَلَى كثير منهم بالإعدام فتشفع فيهم جلالة الملك حسين وطلب العفو عنهم فردت شفاعتهُ ونفذ فيهم الحكم فاحتقدها وثأر لهم قائلاً:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دمًا

٩٨ - الثورة العربية:

كتم جلالة الملك حسين غضبه وغيظه واستدعى الفرقة المتطوعة[2] التى قدمها لجمال باشا بحجة أن يستبدلها بغيرها ودعا إليه ابنه فيصلاً وقطع علاقته مع الأتراك وأصغى إلى مفاوضة الحلفاء الذين قطعوا له عهودًا ومواثيق باستقلال

(١) فى سنة ١٩١٧م ضيقت سلطته وصار جرم الإعدام لا ينفذ ما لم يصدق عليه الخليفة.

(٢) كانوا يلبسون البسة بيضاء وكفافى حمرًا وهم أربعة آلاف شخص صادموا الجيش الإنكليزى وكانوا ينشدون أهازيجهم العربية ولا يتقيدون بنظام فى الحروب.

جميع البلاد العربية فـأعلن الثـورة وعضـده قسـاورة الحجـاز وعـرب الحويطـات فما كاد يبلغ هذا الخبر مسامع العرب حتى انسحبوا من صفوف الأتراك والتحقوا بهم ولم يبق منهم إلا من سدت فى وجهه الطرق فانثلمت الثغور وتعطلـت الإدارة والتحق قسم كبير من الضباط والأفراد بجيش الأمـير فيصـل وقـاتلوا وقتلـوا وظلـوا يتكاثرون إلى أن ضخم الجيش وسرت الشعلة إلى كل الجهات فاعترف أكبر قـائد فى فلسطين بقوله إن أهالى البلاد العربية أشد عداوة لنا من الإنكليز.

٩٩ - الحملات الحربية :

كان يجب أن نقدم هذا البحث عَلَى غيره لما له من الأهميـة ولكنـا فضلنـا أن نمهده بمعداته الأولية ليتنبه القارئ أن النصـر لا يكـون بكـثرة الجنـود فقـط بـل بما يلـزم لهـا مـن الذخـائر والوسـائط النقليـة والتغذيـة والاعتنـاء الصحـى والفـن العسكرى

أعلن الأتراك النفير العام وهـم بـين عـاملين الـتزام الحيـاد أو دخـول الحـرب فمازال بهم أنور باشا وحزبه حتى حملهم عَلى اقتحامها فعضدوا الألمان آملـين أن يكون لهم النصر فيسترجعوا أمبراطوريتهم العظمى فاستسلموا لهم وولوهم الأعمـال وإدارة الأمور فسيطروا عليهم حتى إن جمال باشا بعظمته كان يخشى فون كريس ولم يستطع أن يرد له طلبًا فلما اجتمع القواد للمذاكرة أصر علـى مهاجمـة القنـال بقوة كبيرة لاعتقاده أنهُ يدخل مصر بسهولة بناء عَلى استكشافاته أن قوة الإنكليز كانت ضعيفة فخالفهُ سعد الله بك رئيس اركان حرب جمال باشا وكـان رأيـه أن يرسـل بضعـة طوابـير لمشـاغلة الإنكليز ومسـاجلتهم فقـط لأنـهُ يـرى أن اخـتراق الصحراء بجيش كبير لا يرجى منهُ نفع فاستشاط فون كريس غضبا وأرغم جمـال باشا على اتباع رأيه ونبذ سعد الله وقوله وفصله من القيادة العامة ثم زحف بقـوة مؤلفة من ثلاثين ألف جندى مسلح وكان وراءهم فرقة أزمير الممتازة فوصلوا القنال وكسفوه وبعد معركة قليلة فشل العثمانيون وعادوا أدراجهم ولكـن «فـون كريـس» بقى مخلصا فى الامر يتردد على جميـع مراكـز الصحـراء ويشـير علـى الإنكليز

ويشاغلهم بأربعة طوابير فقط وقد استدرج الإنكليز مرة وأوقع بهم فى قطية وأسر منهم أميرالاى وضباطًا وجنودًا ولكنهُ لم يعق سيرهم فتقدموا بطريقهم الحديدية ومياههم النيلية إلى أن بلغوا العريش واحتلوها وأخرجوا الأتراك من الصحراء وانقضوا عَلَى غزة فكادوا يمتلكونها ثم خسروا الموقعة واستطال العراك فلم يظفروا بحاميتها وثبتت أمامهم فالتفوا حول جناح الأتراك الأيسر «السبع» وعطفوا عليه فانسحب إلى الوراء وتراجعت القوات إلى الشلالة ثم وادى الصرار وهناك انشطرت إلى شقين أحدهما ارتد لحماية القدس والآخر ساح فى سهول طولكرم فتعقب الإنكليز الشق الأول وأوقعوا به فى بيت عور والنبى صمويل وحصروا القدس ودخلوها فى ٩ كانون أول سنة ١٩١٧م وظلوا يدحرون فلول الجيش إلى أن رسخ عَلَى خط متعرج فخندق الإنكليز أمامهم من السلط إلى سنجل ودير غسانه ومجدل يابا وحرم على بن عليم وطال بالمقاتلين المقام وهم فى سجال حتى اخترق فرسان الإنكليز خط طولكرم واكتسحوا الجيس التركى وأسروا أكثره وقابلهم الجيش العربى فى ذرعاه فاشترك معهم وهجموا على سورية يطاردون الأتراك فاخرجوهم من البلاد العربية وتولى الإدارة فى سورية جلالة الملك فيصل وفى الساحل فرنسا وفى فلسطين إنكلترا.

انحسر الأتراك عن بلادنا ولم يتركوا لنا شيئًا من المدنية. حكمونا ٤٠٠ سنة فأين ثكناتهم العسكرية؟ وأين طرقهم العمرانية؟ أين مدارسهم ومعاهدهم العملية؟ أين آثارهم الفنية وإصلاحاتهم المدنية؟ لا شىء من هذا.

سلم الأتراك للحلفاء مطاليبهم فعقدوا المؤتمرات وحكموا عليهم فى مؤتمر سيفرونان ربمو وفرسای بنزع جميع أملاكهم فى أوروبا وإعطائها لليونان وتكون الأستانة والمضايق تحت مراقبة الحلفاء ومنطقة أزمير لليونان وأضاليا لإيطاليا وكليكيا لفرنسا وسلخت عنها جميع جزر الأرخبيل وسائر البلاد العربية والكردية والارمنية وأجبرت تركيا على التنازل عن جميع حقوقها فى كل بلادها المحتلة من إنكلترا وفرنسا وايتاليا وقبلوا ذلك إلا أن البطل التركى مصطفى كمال باشا

أبى أن يقر الذل فى أمتهِ وانسحب إلى الأناضول والتف حوله خيرة قومه وأصبح جيشه عَلَى قوة مدهشة وساعدته السياسة عَلَى ذلك فاخرج إيطاليا من أضاليا وفرنسا من كليكيا وحارب اليونان وقذف بهم فى اليم واحتل الآستانة وحصن عدويتها وقبل الحلفاء مندوبيه فى مؤتمر لوزان بعد أن رفضوا وألغى المعاهدات الأولى.

١٠٠ - الهجرة :

ما قرب الجيش الإنكليزى من بلاد مستحكمة إلا وظن الأتراك أن أهلها يضمرون لهم سوءًا فيفرغونها من السكان ويأمرونهم بالمهاجرة إلى بلاد قاصية فقد هاجروا غزة ويافا وأكثر القرى التى كانت تقع عَلَى خط النار أو بين الخطين خشية اتصال الجواسيس أو نقل الأخبار فلما أتى الإنكليز وجدناهم يعقبون عين تلك السياسة ونفس هذه الإدارة فإنهم ما دخلوا قرية إلا أخرجوا أهلها منها واعتقلوا كثيرين فضاع أثاث الأهالى وفقدت سلعهم وكم بناء هدم فى سبيل الحرب.

١٠١ - لمحة اجتماعية :

لم نحلم بما كان مخبئًا لنا فى لوح الغيب فقد جاءت الحرب وجاء معها الشقاء ففقد من البلاد الكبريت والكاز والسكر والقهوة والأرز وغير ذلك من الواردات الخارجية فتبرم الناس من ذلك ثم ألفوه واستعاضوا عنهُ بغيره ولكن قلت الضيافات والزيارات وعذر بعضهم بعضًا وقصر اللسان عن اللوم فبرزت المخدرات إلى العمل وتسابقن فى جلب المعاش وإحراز القوت [إلا أن الفلاح صاحب الحاصلات ظل حاله مستورًا] وقد كنا نرى النعل مرقعة واللباس مرفوًا والطربوش مقلوبًا حتى إن المسافر يخلع نعله توفيرًا.. ولكن اجتماع الجنود والأهالى بعضهم البعض أكسبهم فائدة الاقتباس وشاهدوا الألمان واحتكوا بهم فنقلوا عنهم كثيرًا وساروا خطوة واسعة إلى الأمام فالقروى الساذج الذى

عاشر المدني قبس عادته وما حسن لديهِ وأبناء المدن الصغيرة سرت لهم العدوى لما عاشروا أبناءَ بيروت ودمشق وحلب واجتذبوا منهم الحسن ودبت فيهم ريح الحركة من الألمان وكذلك الإنكليز ثم أبصروا مساوئ غيرهم فعلموا أنهم بشر ليسوا بخير منهم فلم يفضلوهم على أنفسهم وطمحوا إلى مساواتهم.

obeikandl.com

الفصل السادس عشر

الاحتلال البريطانى

١٠٢ - الإدارة العسكرية :

فى وأخر سنة ١٩١٧م اكتسح الجيش البريطانى جنوبى فلسطين واخترق منطقة طولكرم فى ١٩ أيلول سنة ١٩١٨م فقضى عَلَى الجيش التركى وجلت الحكومة العثمانية عن البلاد وقامت عَلَى أثرها حكومة إنكليزية عسكرية دعيت «إدارة بلاد العدو المحتلة» وتعين الجنرال كلايتن Clayton مديرًا عامًا لها ثم خلفهُ الجنرال مونى Money فالجنرال وطسن Watson فالجنرال بولز Bols وقد تغيرت هذه الإدارة فى ابتداء تموز سنة ١٩٢٠م بإدارة ملكية عَلَى رأسها السرهربرت صمويل مندوبًا ساميًا لجلالة الملك جورج وعهد إليهِ تنفيذ وعد بلفور بجعل فلسطين وطنًا قوميًا لليهود كما قرر مؤتمر سان ريمو فى ٢٠ نيسان من سنة ١٩٢٠م فقدم المندوب السامى وتلا أمر «فرمان» جلالة الملك فى الطور يوم الأربعاء فى ٧ تموز وهذا نصهُ:

إنى مأمور من فخامة جلالة الملك جورج الخامس أن أبلغكم الرسالة الآتية:

إلى أهالى فلسطين

إن الدول المتحالفة التى نالت الفوز الباهر فى هذه الحرب قد أودعت بلادى أمر الوصاية عَلَى فلسطين لكى تسهر عَلَى صوالحها وتكفل لبلادكم العمران السلمى الذى طالما كنتم تنشدونهُ. إنى أذكر بافتخار العمل المجيد الذى قامت بهِ جنودى تحت قيادة الفيلد مارشال اللورد اللنبى بتحرير بلادكم من النير التركى وسأتهلل حقيقة إذا وُفّقت أنا وشعبى أيضًا إلى أن نكون وسيلة لكم لتنالوا السعادة بوجود إدارة حازمة وصادقة. إنى أرغب أن أوكد لكم أن الدولة ذات

الوصاية ستنفذ ما عليها من الواجبات بدون محاباة مطلقًا كما وإن فى عزم حكومتى أن تحترم حقوق العناصر والمذاهب عَلَى اختلافها فى المدة التى يلزم انقضاؤها إلى أن يصادق مجلس عصبة الأمم نهائيًا على أمر الوصاية وفى المستقبل عندما تكون قد صارت الوصاية أمرًا واقعًا.

لا يخفا كم أن الدول المتحالفة والمشتركة قد قررت أن تتخذ التدابير لتضمن تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين بالتدريج وهذه التدابير لن تؤثر قطعيًا على حقوق الأهالى الدينية أو المدنية ولن تنقص من الرقى المنوىّ لعموم طبقات الشعب الفلسطينى. إنى واثق أن المندوب السامى الذى انتدبتهُ لإنفاذ هذه المبادئ سيفعل ذلك بعزم ثابت ونية صادقة وسيسعى لاستعمال كل الوسائل التى تؤول إلى خير واتحاد طبقات الشعب على اختلاف مذاهبهِ. إنى أدرك جيدًا خطورة الائتمان المحدقة بحكومةِ البلاد التى يقدسها المسيحى والمسلم واليهودى عَلَى السواء وساحافظ بكل اهتمام وعاطفة حارة فى المستقبل عَلَى رقى وعمران البلاد التى ينظر العالم إلى تاريخها باهتمام عظيم.

ثم تلاه مرة ثانية على جبل الكرمل فى حيفا وشرع بتطبيق قرار الحلفاء فجعل لغات البلاد الرسمية ثلاثًا العربية والإنكليزية والعبرية واعترف بوجود القومسيون الصهيونى ووظائفه وحاول أن يقنع العرب بأن الصهيونية نافعة ومفيدة فاخفق فى سعيهِ وخسرت سياسته وهنا نقول كلمة عن تاريخ الصهيونية.

١٠٣ - الصهيونية :

تنتسب الصهيونية إلى صهيون أحد التلال القائمة عليهِ بيت المقدس والذى كان علمًا للمدينة ثم أصبح مرادفًا إلى فلسطين.

فالصهيونية حركة يهودية غرضها الأجلُّ الرجوع إلى فلسطين لجمع شتات شعبهم المبذور بين جميع الأجناس والطوائف وفى كل بقاع الأرض وهى منطوية عَلَى مبادئ اقتصادية وسياسية ودينية لا محل هنا لاستيفائها.

إن أكبر محرك لإحياء هذه الروح فى نفس اليهود هو توالى اضطهادات الأوروبيين لهم ونفورهم منهم لأنهم يميلون إلى الربا الفاحش، ولأنهم مستهلكون غير محدثين ولرغبتهم فى احتكار التجارة ولتعصبهم الدينى وهذه نبذة من صلاتهم اليومية:

«لم يخلقنا الله مثل بقية الشعوب ولم يجعل مقامنا مثل مقام الأمم الأخرى».

وإن رجال الغرب مهما تظاهروا بالتسامح المدنى مع اليهود فإنهم غير راضين عنهم اجتماعيًا فقد استوحش منهم الروس وأفحشوا فيهم سنة ١٨٨١م فقام نفر منهم ونادى يجمع اليهود فى بقعة واحدة فاستحسن هذه الفكرة كثير منهم ولكنهم اختلفوا فى تعيين المحل الذى يتخذونهُ وطنًا لهم فاقترح البارون هرش أن يكون فى جمهورية الأرجنتين وذهب زنكويل باستيطان شرقى أفريقيا أو أوغندا وحبذ بعضهم الرجوع إلى العراق ومنهم من فضل طرابلس الغرب أو شبه جزيرة سينا أو نيكاراغوا فى أمريكا الوسطى وظلوا مختلفى الرأى حتى سنة ١٨٩٧م إذ نجم من فينا هرزل مؤسس الصهيونية المعروفة الآن وجمع عددًا من كبار مفكرى اليهود وعقدوا مؤتمرًا فى بازل «سويسره» واجمعوا عَلَى اتخاذ فلسطين مهجرًا ووطنًا فذهب هرزل إلى الاستانة وباشر مفاوضة الباب العالى فلم ينجح إلا بأخذ رخصة بتأسيس مدرسة نيتر الزراعية وشرع بإنشاء بعض مستعمرات «قرى» يهودية وكان كلما اعترضهُ شىء من العقبات والمشاكل اقتحمها. وقد انضم إليهِ نفر كثير من اليهود بعد حادثة الضابط اليهودى دريفوس فنشط وثابر عَلَى جمع الأموال وبث الدعوة «البروبوغاندا» وأسسوا الشركات المالية ونشروا الروح الصهيونية بين اليهود فاستعد فريق منهم لقبولها وفى أثناء الحرب العظمى نجح الزعيم الصهيونى وايزمن واقنع وزارة لويد جورج بجعل فلسطين وطنا قوميا لليهود فنطق بتصريحهِ المشهور وهو:

«تنظر حكومة جلالة الملك البريطانية بعين الرضى إلى إنشاء وطن قومى فى فلسطين وتبذل الجهد فى سبيل ذلك علَى ألاّ يجرى ما يضر بحقوق غير اليهود فى فلسطين الدينية والمدنية او ما يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسى فى ما سواها من الممالك».

وإنا ذاكرون هنا الأعمال الكبيرة التى تمت على عهد المندوب السامى وهى: تعيين مجلس استشارى مؤلف من العرب واليهود وفتح أبواب فلسطين لمهاجرى اليهود وتأسيس مجلس إسلامى أعلى يدير الأوقاف والمحاكم الشرعية الدينية مؤلف من رئيس وأربعة أعضاء.

وأنكر العرب السياسة الصهيونية فأسسوا الجمعيات الإسلامية المسيحية فى جميع البلاد واحتجوا عليها وتظاهروا وطلبوا إلى الحكومة تعديل خطتها ثم أرسلوا وفودًا إلى لندن والحجاز وانقره ولوزان ولندن «ثانية» وقد وجدوا من موردات الإنكليز وأشرافهم مناصرة وعطفًا.

وقد بذل المندوب السامى وسعه للتوفيق بين العرب واليهود فلم يفلح وهو المشهور باللطف وحصافة العقل. وحدثت فتنتان بين المتنازعين الأولى فى القدس والأخرى فى يافا قتل فيهما عدد ليس بقليل فهدأتهما الحكومة بالقوة.

فهذا تاريخ فلسطين وجل ما وقع فيها من الحوادث قد طويناها بعد التنقيح بين دفتى هذا السفر الصغير والله ولى التوفيق.

جدول

أسماء خلفاء وملوك الدول الإسلامية العظمى

هـ	م	اسم الخليفة
الخلفاء الراشدون		
١١هـ	٦٣٢م	أبو بكر الصديق
١٣هـ	٦٣٤م	عمر بن الخطاب
٢٣هـ	٦٤٤م	عثمان بن عفان
٣٥هـ	٦٥٥م	على بن أبى طالب
ستة	أشهر	ابنه الحسن
خلفاء الدولة الأموية		
٤١هـ	٦٦١م	معاوية بن أبى سفيان
٦٠هـ	٦٨١م	ابنه يزيد الأول
٦٠هـ	يومًا	معاوية الثانى
٦٤هـ	٦٨٤م	مروان بن الحكم
٦٥هـ	٦٨٤م	عبد الملك بن مروان
٨٦هـ	٧٠٥م	الوليد بن عبد الملك
٩٩هـ	٧١٤م	سليمان بن عبد الملك
٩٩هـ	٧١٧م	عمر بن عبد العزيز
١٠١هـ	٧٢٠م	يزيد الثانى بن عبد الملك
١٠٥هـ	٧٢٤م	هشام بن عبد الملك
١٢٥هـ	٧٤٣م	الوليد الثانى بن يزيد
١٢٦هـ	٧٤٤م	يزيد الثالث بن الوليد
١٢٦هـ	٧٤٤م	إبراهيم بن الوليد
١٢٧هـ	٧٤٤م	مروان الثانى بن محمد
خلفاء بنى العباس		
١٣٢هـ	٧٥٠م	أبو العباس السفاح
١٣٦هـ	٧٥٤م	المنصور
١٥٨هـ	٧٧٥م	المهدى
١٦٩هـ	٧٨٥م	الهادى
١٧٠هـ	٧٨٦م	هارون الرشيد
١٩٣هـ	٨٠٩م	الأمين
١٩٨هـ	٨١٣م	المأمون
٢١٨هـ	٨٣٣م	المعتصم
٢٢٨هـ	٨٤٢م	الواثق
٢٣٢هـ	٨٤٧م	المتوكل
٢٤٧هـ	٨٦١م	المنتصر

٢٤٨هـ	٨٦٢م	المتسعين
٢٥٢هـ	٨٦٦م	المعتز
٢٥٥هـ	٨٦٨م	المهتدى
٢٥٦هـ	٨٦٩م	المعتمد
٢٧٩هـ	٨٩٢م	المعتضد
٢٨٩هـ	٩٠٢م	المكتفى
٢٩٥هـ	٩٠٨م	المقتدر
٣٢٠هـ	٩٣٢م	القاهر
٣٢٢هـ	٩٣٤م	الراضى
٣٢٩هـ	٩٤٠م	المتقى
٣٣٣هـ	٩٤٤م	المستكفى
٣٣٤هـ	٩٤٥م	المطيع
٣٦٣هـ	٩٧٣م	الطائع
٣٨١هـ	٩٩١م	القادر
٤٢٢هـ	١٠٣١م	القائم
٤٦٧هـ	١٠٧٤م	المقتدى
٤٨٧هـ	١٠٩٤م	المستظهر
٥١٢هـ	١١١٨م	المسترشد
٥٢٩هـ	١١٣٤م	الراشد
٥٣٠هـ	١١٣٥م	المقتفى
٥٥٥هـ	١١٦٠م	المستنجد
٥٦٦هـ	١١٧٠م	المستضىء
٥٧٥هـ	١١٧٩م	الناصر
٦٢٢هـ	١٢٢٥م	الظاهر
٦٢٣هـ	١٢٢٦م	المستنصر
٦٤١هـ	١٢٤٣م	المستعصم

الخلفاء الفاطميون

٢٩٧هـ	٩٠٩م	عبيد الله المهدى
٣٢٢هـ	٩٣٣م	القائم بأمر الله
٣٣٤هـ	٩٤٥م	المنصور
٣٤١هـ	٩٥٢م	المعز لدين الله
٣٦٥هـ	٩٧٥م	العزيز
٣٨٦هـ	٩٩٦م	الحاكم بأمر الله
٤١١هـ	١٠٢٠م	الظاهر
٤٢٧هـ	١٠٣٥م	المستنصر
٤٨٧هـ	١٠٩٤م	المستعلى
٤٩٥هـ	١١٠١م	الآمر
٥٢٤هـ	١١٣٠م	الحافظ
٥٤٤هـ	١١٤٩م	الظافر
٥٤٩هـ	١١٥٤م	الفائز
٥٥٥هـ	١١٦٠م	العاضد

ملوك الدولة الأيوبية

٥٦٧هـ	١١٧١م	صلاح الدين
٥٨٩هـ	١١٩٣م	العزيز

obeikandl.com

٥٩٥هـ	١١٩٨م	المنصور
٥٩٦هـ	١٢٠٠م	العادل
٦١٥هـ	١٢١٨م	الكامل
٦٣٥هـ	١٢٣٨م	ابنه العادل
٦٣٧هـ	١٢٤٠م	الصالح أيوب
٦٤٧هـ	١٢٤٩م	المعظم توران
٦٤٨هـ	١٢٥٠م	شجرة الدر
٦٤٨هـ	١٢٥٠م	الأشراف

ملوك آل عثمان بعد فتح فلسطين

٩١٨هـ	١٥١٢م	سليم الأول
٩٢٦هـ	١٥٢٠م	سليمان الأول
٩٧٤هـ	١٥٦٦م	سليم الثانى
٩٨٢هـ	١٥٧٤م	مراد الثالث
١٠٠٣هـ	١٥٩٥م	محمد الثالث
١٠١٢هـ	١٦٠٣م	أحمد الأول
١٠٢٦هـ	١٦١٧م	مصطفى الأول
١٠٢٧هـ	١٦١٨م	عثمان الثانى
١٠٣١هـ	١٦٢٢م	مصطفى الأول ثانية
١٠٣٢هـ	١٦٢٣م	مراد الرابع
١٠٤٩هـ	١٦٤٠م	إبراهيم الأول
١٠٥٨هـ	١٦٤٨م	محمد الرابع
١٠٩٩هـ	١٦٨٧م	سليمان الثانى
١١٠٢هـ	١٦٩١م	أحمد الثانى
١١٠٦هـ	١٦٩٥م	مصطفى الثانى
١١١٥هـ	١٧٠٣م	أحمد الثالث
١١٤٣هـ	١٧٣٠م	محمود الأول
١١٦٨هـ	١٧٤٥م	عثمان الثالث
١١٧١هـ	١٧٥٧م	مصطفى الثالث
١١٨٧هـ	١٧٧٤م	عبد الحميد الأول
١٢٠٣هـ	١٧٨٩م	سليم الثالث
١٢٢٢هـ	١٨٠٧م	مصطفى الرابع
١٢٢٣هـ	١٨٠٨م	محمود الثانى
١٢٥٥هـ	١٨٣٩م	عبد المجيد بن محمود
١٢٧٧هـ	١٨٦١م	أخوه عبد العزيز
١٢٩٣هـ	١٨٧٦م	مراد بن عبد المجيد
١٢٩٣هـ	١٨٧٦م	عبد الحميد الثانى
١٣٢٥هـ	١٩٠٨م	محمد رشاد الخامس
١٣٣٦هـ	١٩١٧م	حيدر الدين
١٣٤١هـ	١٩٢٢م	عبد المجيد

obeikandl.com

الكشاف العام

obeikandl.com

١ ـ الأعلام

(أ)

إبرام ٩

إبراهيم «عليه السلام» ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٣٤، ٤٥

إبراهيم الخليجى ١٣٤

إبراهيم بن محمد «الإمام» ١٢٨

إبراهيم «باشا» بن محمد على ٣٦، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١١، ٢١٢

إبراهيم بن الوليد ١٢١، ١٢٢

ابيمالك ٧، ١٠

الأبيوردى ١٥٤

اتسز ١٤٨، ١٤٩

ابن الأثير ٩٥، ١٤٧، ١٦٣، ١٦٤

آحاز ٥٩

أحمد «الإمام» ١٨٢

أحمد «باشا» الجزار ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢

أحمد «الشيخ» الخماس ٢١٣

أحمد جمال باشا ٢١٨

أحمد بن طولون ١٣٣، ١٣٤

أحمد بن عارف ٢١٣

أحمد بن كيغلغ ١٣٤، ١٣٥

أحمد بن اليغمورى ١٨٣

إخشيد ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦

آدم «عليه السلام» ٣، ٧٣

أدوم ٤٢

إدموند دى روتشيلد ٤٢

ادورد غرى ٢١٧

أدوميا ٧١

أدونى صادق ٣٩

أرجوان ١٤٤، ١٤٥

أرستوبولس ٤٣، ٦٩، ٧١، ٧٢، ٨٨

أرسطو ٦٦

أرسلان ٩٧

أرطغرل بن سليمان ١٨٨، ١٨٩

الأرقم المخزومى ٨٩

ارمسترنغ ٢١٨

obeikandl.com

أرميا ٦٢
أرنا «أرناط» رينـو ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٧
أرواد ٤٠
أسامة بن زيد ٩١، ٩٣
إسحق «عليه السلام» ٣، ٤، ٥، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١
إسحاق بن مسلم ١٢٢
أسد الدين شيركوه ١٥٧، ١٥٨، ٢٠٢
أسدود ٤١
أسرحذون ٥٧
أسعد ٢١٣
أسعد أفندى ...
الإسكندر الأكبر ٣٦، ٦٤، ٦٥، ٨٤، ٨٨، ١٩٥، ٢٠٢
إسكندر أرستوبولس ٧٢
اسكندر عزيز ٣
إسماعيل «عليه السلام» ٤، ٥، ٨، ٩، ١٠، ١١، ٤٥، ٦٠
إسماعيل بك ١٩٢
إسماعيل شاه ١٨٩
إسماعيل «الملك الصالح» ١٥٩، ١٧١، ١٧٢
أبو الأسود الدؤلى ١٠٦
آسيا ١٣٨
الأشرف «الملك» ١٧٠، ١٧١، ١٧٧
أشرف بك ٢١٩
الأشعرى «أبو موسى» ١٠٥، ١٠٦
أشعياء ٦٢
أبو الأعور ٩٧، ١٠١
أفتكين التركى ١٤٣
أفتيميوس ١٧٦
أفرايم ٤٩
الأفضل ١١٦، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦
الأفضل بن صلاح الدين ١٦٠، ١٦٩، ١٧٠
أفلاطون ٦٦
أقسز ١٤٨، ١٤٩
الأكليروس ٨٢
ألب بن أرسلان ١٤٨
ابن اللحناء ١٢٦
ابن اللاوى ٤١
اللنبى ٣٦، ٩٦، ١٩٧، ٢٢٩، ٢٣٠
أماجور ١٣١، ٢١١
أمورى ١٥٦

obeikandl.com

مين عبد الهادى ٢١٤
نتيباس ٧١، ٧٣
نجليكانى ١٩
نسطاس الكرملى ٥٧
نطونيا ٧٣، ٧٨
نطونيوس ٧١، ٧٣
نوجور «أبو القاسم» ١٣٥، ١٣٦
نور باشا ٢١٩، ٢٢٥
نوشتكين ١٤٦، ١٤٧
هود ٤٢
وربانوس ١٥١
ورخان ١٨٩، ١٩٠
أوريا الحثى ٣٨، ٦١
أوغطسوس «أوغسطس» ٣٦، ٧٢/ ٧٣
أونياس ٦٧، ٦٨
إياس الطائى ١١٠
إيبك «عز الدين» ١٧٧، ١٨٠
ايثبعل ٥٦
إيزابل ٣٩، ٥٦، ٦١
إيشبوشت ١٩
إيلياس ٦١
غيليا كابيتولينا ٨١
أبو أيوب ٩٧
أيوب «المالكى» ٩٧

(ب)

باراق اليهودى ٤٩
باربا روس «خير الدين» ١٩٠
باكباك ١٣٣
باركوكب ٨٢
باليان ١٦٢
بايزيد ١٨٤
بختيار «عز الدولة» البويهى ١٤٢، ١٤٣
بدر الجمالى ١٤٨، ١٤٩، ١٥٣
بدر الخرشنى ١٣٥
بربروسا ١٦٤
برقوق ١٨٣، ١٨٤
البرنس منشيكوف ٢٠٥
البروبو غاندا ٢٣١
بزرجمهر ١٣٧
بشير الشهابى ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣
بشير بن كعب الحميرى ٩٦
بطرا ٤٣
بطرس الأكبر ٢٠٥

obeikandi.com

بطرس «الناسك» ١٥١، ١٥٢
بطليموس ٦٦، ٦٧
ابن بطوطة ١٧٥
بكتاش بن تتش ١٥٥
أبـو بكـر «الصديـق» ٢٢، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ١٠٢، ١٠٦، ١١٠، ١١٢، ١١٦، ١٢٥
أبو بكر بن المستعصم ١٨٠، ١٨١
بلدوين ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧
بلفور ١٣، ١٦، ٢٠، ٢٢، ٢٦، ٦٣
بلقيس ٥٣
بنيامين ٧، ٤٢، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ١١٢
(ت)
تاستس ٧٩
تبع ١٣٤
تتش «تاج الدولة» ١٤٨، ١٤٩
تراجان ٤٣
تروما ن ١٦، ١٧
تغلتفلصر ٥٩، ٦٠، ٨٨
تكين «أبو منصور» ١٣٥
تنكير «سيف الدين» ١٧٥
ابن بهرام القرمطى ١٣٤
بورثر ٦٥
بورى ١٤٩، ١٥٥
بولس ٨٨
بومبى ٣٦، ٦٣، ٧١، ٧٢، ١٩٥
بونـابرت ٣٦، ٦٥، ٦٦، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٤
بيبرس ١١، ١٦٨، ١٧٧، ١٨١، ١٨٢
بيبرس الجاشنكيرى ١٨٢، ١٨٣
بيلاطس النبطى ٧٥، ٧٧
ابن تهامة ١٢٦
توران شاه ١٥٩، ١٧٧
توفيق أفندى ٢١٤
توفيق المجالى ٢١٥
تيطيس ٣٦، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٨
تيمور لنك ١٨٤، ١٨٥، ١٦٩
تيودور هيرتزل ١٣، ٢٥

(ث)

ثابت بن نعيم ١٢٢
ثرموبيلى ٦٣
الثورى ١٧

(ج)

جازر «أبو شوشة» ٣٦، ٣٧، ٥٣
جاك دارك ٤٩
جالوت ١٧٠، ١٨١
جان بردى الغزالى ١٩٠
جبعون ٣٨
جبون ٨٨، ٩٤
جثيسمانى ٧٥
جدعون ٤٣، ٤٧، ٤٨، ٥٣
جدليا ٥٧
جربون ١٠
جركس ١٧٠، ١٩٦
جعفر بن حنظلة ١٣٨
جعفر الطيار ٩١
جعفر بن فلاح الكتامى ١٤١، ١٤٢
أبو جعفر «المنصور» ١١٩
جفرى بطرس غالى ١٢
جلبات «طالوت» ٥٢، ٦٠
جمال باشا ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦
جميلة ٤٤
جنكيز خان ١٧١، ١٨٤، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٦
جهاركس ١٩٦
الجواد «الملك» ١٧١
جورج «الملك» ٢٢٩، ٢٣٠
جورج آدم سميث ٤٢
جورج زيدان ٨٨، ١٩٧
جورديك ١٦٦
جوفر ١٩٧
جومبوس ٢٩
جوهر ١٣٦، ١٤١، ١٤٣
جيش بن الصمصامة ١٤٥

(ح)

الحارث ٤٣، ٦٩، ٨٨
الحارث بن عبد الرحمن ١٢٣

obeikandl.com

حارثة «الملك» الغسانى ١٠٨
حاصور ٦
حافظ بك السعيد ٢١٣
الحاكم بأمر الله ١١٩، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٥١
الحبشى ١٧
الحجاج بن يوسف ١٠٦، ١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦
حذيفة بن اليمانى ١٠٦
أبو حرب المبرقع ١٣٠
الحزم ٧٨
حسان بن الجراح الطائى ١٤٢، ١٤٦
حسان بن مالك بن بحدل ١١٧
حسان بن المفرج ١٤٥
حسن إبراهيم حسن ١١٣
حسن باشا ١٩٢
الحسن بن عبيد الله بن طغج ١٤١
الحسن بن على بن أبى طالب ١٠٥، ١١٥، ١٤٧
الحسن بن عمار ١٤٤، ١٤٥
حسن مجدل يابا ١٦٢
الحسينى «أحمد بن عارف» ٢١٣
الحسينى «سعيد» ١٨٩
الحسينى «سليم» ٢١٣، ٢١٤
«الملك» حسين ٢٢٤
حسين بن حمدان ١٣٤
الحسين بن على ١٠٥، ١١٦، ١٨٢
حفصة ١٠٦
حفنى ناصف ١٠٦، ١٠٧
الحفير ٣٣، ١١٠
الحكم بن ضبعان ١٢٢
حماد «توفيق أفندى» ٢١٤
حمورابى ٤٦، ٨٩
«القدسية» حنه ١٦٣
حيدر بك ٢١٤
حيرام ٣٩

(خ)

خالد بن سعيد بن العاصى ٩٣
خالد بن الوليد ٦٥، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٢، ١٠٩، ١١٠
خالد بن يزيد ١١٧
الخالدى «راغب» ٢١٣
الخالدى «روحى بك» ٢١٣

الخالدى «سعيد أفندى» ٢١٣
الخالدى «ضياء باشا» ٢١٣
الخانكى ١٦٣
خديجة ٨٩
خسرو ٢٠٢
ابن خلدون ١٤٧
خليل طوطح ٢٩
خمارويه ١٣٣، ١٣٤
الخماش «الشيخ أحمد» ٢١٣
خونكار ٢٠٥
خير الدين ١٨٩

(د)

داجون ٤١
داريوس ٦٤، ٦٥
الدامون ١٦٤
داود «عليه السلام» ٣٩، ٤١، ٤٢، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٦١
داود «لناصر» ١٧١
الدبس «المطران» ٩٥، ٢٠٠، ٢٠١
دبورة ٤٩
دبيس بن صدقة ١٥٥
درهم بن الجعد ١٠٧
درويش ١٩٢
دريفوس ١٢، ٢٣١
دقاق ١٤٩
الدماعص بن عبد العزيز الكنانى ١٢٢
ابن دواس ١٤٦
الدوره باشا ٢٠٨، ٢٠٩
ديبر ٦
ديمتريوس ٤٣

(ذ)

ذو الفقار ٢١٠

(ر)

ابن رائق ١٣٥
الراضى ١٣٥، ١٨٢
راغب ٢١٣
رامين ٥٩
رجاء بن أيوب الحضارى ١٣٠
رحبغام ٥٥، ٥٨
رشدى باشا ٢٠٣
رضوان «بيعة» ١٠٨

obeikandl.com

رعمسيس ٣٨، ٤٠
رنكويل ٢٣١
رنو «أرناط» ١٥٩
روبين ١٣٣، ١٤٣، ١٥٩، ١٦٨
روتر ١٨
روتشيلد ١٣
روح بن زنباع ١١٧، ١١٩، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦
روحى بك ٢١٣
ريان ١٤٣، ٢١١
ريبال ٤٤
ريكاردوس «أنظر قلب الأسد» ريتشارد ٣٦، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩

(ز)

الزبير ١٠٤
ابن الزبير ١١٨
زركسيس ٦٤
زغبة ١٤٧
أم زمل ١٠٩
زنكى ١٥٩
زنوبيا ٤٩
زياد بن أبيه ١٠٦
زيد بن حارثة ٩٠، ١٠٩
زيدان «جورج» ٨٨، ١٩١، ١٩٧
زيراء ١٧٥، ١٨١

(س)

سابق الخوارزمى ١٢٨
سارة ٥، ٨، ٣٨، ٤٥
سالون ١٦٤
سامى باشا الفاروقى ٢١٥
ست الملك ١٤٦
ستى الثانى ٣٨
سرجون ٨٧
سعد الدولة ١٥٥
سعد الله بك ٢٢٥، ٢٢٦
ابن سعود ١٤٦
ابن سعيد ٢١١
سعيد أفندى ٢١٣
سعيد بن روح بن زنباع ١٢١
سعيد بن عبد الملك ١٢١

obeikandl.com

سعيد بن المسيب ١١٩، ١٢٠
السفاح «أبو العباس» ١٢٨، ١٣٧، ١٣٨
سفروس ٨٢
أبو سفيان بن حرب ٩٥، ١١٥
سقراط ٦٦
السلجوقى ٧٢، ١٤٨
أبو سلمة الخلال ١٣٩
سليط بن العباس ١٣٨
سليم «السلطان» ٣٦، ٨٧، ١٣٤، ١٣٥، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٧٧، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ٢١٠، ٢١١
سليمان «عليه السلام» ٣٩، ٤٢، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٢٠٤
سليمان «السلطان» ١١٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٨، ٢٠٠
سليمان بن عبد الملك ١١٦، ١١٨، ١٢٠، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٧
سليمان بن كثير ١٣٨، ١٣٩
سليمان بن هشام ١٢٠، ١٢٢
سمعان ١٧٩
سميث «جورج أدم» ٤٢
سنان بن عليان ١٤٦
سنحاريب ٥٩، ٦٢
سنقر ١٦٩
السنوسى ٢١٥
سيسرا ٤٩
سيف الدولة ١٣٥
سيمون فسيقا ٨٠

(ش)

شارلمان ١٢٩
شاور ١٥٧، ١٥٨
شاول ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٥، ٩٤، ٩٥
شبيب ٥٠
شجرة الدر ١٧٧
شرتوك ١٠
شرحبيل ٩٤، ٩٥، ٩٧، ١٠٠
شرف الدولة ١٤٥، ١٥٥
ابن شعبان ١٨٣
ابن الشعلان ١٢٤
شعيب ٤٧

obeikandl.com

شقير «الشيخ أسعد» ٢١٣
الشقيرى «الشيخ» ٢١٤
شكيم ٥٦
شلمناصر ٥٧
شمر بن ذى جوش ١١٦
شمس الدولة ١٥٨
شمشون ٤١، ٤٨
شوشة «أبو» ٣٦، ٣٧
شيركوه ١٥٧، ٢٠٢
شيشق ٥٥

(ص)

صالح «عليه السلام» ١٨٤، ١٨٥
صالح بن ظاهر ٥٠، ٢٠٠
صالح بن مرداس ١٤٦، ١٤٧
صانور ١٩١
صحوتميس ٣٦، ٣٨، ٦٦
صدقيا ٥٩، ٦٠
صفرونيوس ٩٩
صلاح الدين الأيوبى ٣٦، ٦٥، ١١٩، ١٤٩، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ٢٠٢
صلاح الدين خليل ١٨٢، ١٨٣
صموئيل «عليه السلام» ١٩١، ٢٢٦
صموئيل ٢٠، ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٤١، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٦٠، ٦١، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢

(ض)

الضحاك بن قيس ١١٧
ضرار ١٥٧
ضرغام ١٥٧
ضيعان بن روح بن زنباع ١٢١
ضياء باشا ٢١٣

(ط)

الطائع ١٤٣
طارق بن زياد ١٢٧
طالوت ٤١، ٥٢
الطبرى ٩٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤
طتميس ٣٦
طغتكين ١٤٩، ١٥٥

obeikandl.com

طغج بن جف ١٣٤
طغرل بك ١٤٨
طلحة ١٠٤
طليحة الأسدى ١٠٩
طوقان «حيدر بك» ٢١٤
طومان باى ١٨٩
طيباريوس ٧٣

(ظ)

الظاهر «بيبرس» ١٦٩
الظاهر لدين الله ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨
ظاهر العمر ١٩١، ١٩٢، ٢٠٢
الظاهر الفاطمى ١١٩

(ع)

عائشة ٤٩، ١٠٤
العادل ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢
العازار ٧٩، ٨٠
العاضد ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠
عامر بن عبد الله ١١١
عاموس ٦٢
عبادة ٤٤
العباس بن الحسن ١٣٤
أبو العباس الشيعى ١٤١
العباس بن عبد المطلب ١٢٩
العباس بن الوليد ١٢٠، ١٢١
عبد الحميد «السلطان» ٧٦، ١١٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥
عبد الرحمن عزام ١٨
عبد الرحمن بن عوف ١٧٢
عبد الرحمن الغافقى ١٢٧
عبد الرحمن الناصر ١٤٢
عبد العزيز ١١٧، ١١٨
عبد الفتاح السعدى ٢١٤
عبد الله باشا ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣
عبد الله بن الزبير ٥٥، ١١٢، ١١٣، ١١٦
عبد الله بن سبأ ١٠٤، ١٠٥
عبد الله بن على ١٢٢، ١٢٩، ١٣٨، ١٣٩
عبد الله بن عمرو بن العاص ١٠٨
عبدالله بن محمد ١١٩
عبد الله بن محمد بن الحنفية ١٢٧
عبد الله بن يزيد ١١٧

obeikandl.com

عبد الله بن يزيد بن روح ٧٢
عبد المطلب ٨٩
عبد الملك بن مروان ٥٥، ١٠١، ١٠٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٥، ١٢٦
عبد الهادى «أمين بك» ٢١٢
عبيد الله بن زياد ١١٧
أبو عبيدة ٣٦، ١٧٥
عثمان ١٠١، ١٠٤، ١٠٦، ١١٣
عثمان بن أرطغرل ١٨٩
عثمان أفندى ٢١٤
عثمان الغازى ١٨٨، ١٨٩
عثمان الكرخى ١٩١
عروة بن مهلهل ٩٨
عز الدين أيبك ١٧٧
ابو العزم ٤١
العزيز الفاطمى ١٤٣، ١٤٤
العزيز «الملك» ١٦٩، ١٧٠
عشتاروث ٤٠، ٥٦
عفرة ٤٨
عكرمة ١٠٩، ١١٠، ١٦٥
علاء الدين ١٨٩
علقمة بن حكيم ٢٠٠
علقمة بن محزز ٩٧
العلوى ١٢٧
على بن أبى طالب ٤٩، ١٠٤، ١٠٥، ١١٣
على بك الكبير ١٩١، ١٩٢
على بك المصرى ٢٢٩
على بن جعفر ١٤٥
على بن ظاهر العمر ١٩٤
على بن عريف ١٦٤
على بن عليم ١٦٤، ١٦٨، ٢٢٦
على « فيضى أفندى» ٢٣٠
علياء ٩٤
عمر بن الخطاب ٧١، ٨١، ٨٧، ٩٠، ٩٤، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٦، ١١٨، ١٢٥، ١٢٩، ١٥٤
عمر الصالح البرغوثى ٢٩
عمر بن عبد العزيز ١٢٠
عمر بن عمرو ١٩١
عمرو بن سعيد ١١٧
عمرو بن العاص ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥، ١١٠
عمرى ٩٠

obeikandl.com

أبى العون ١٦٧، ١٦٨
عون بن النعمان ٩٧
أبو العويش ١٨٥
عياض بن غنم ١١٠
عيسى «عليه السلام» ٣، ٧، ٩، ١٠، ١١، ٤٠، ٤٢، ٥٢، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٨٢، ٨٨، ١٠٤، ١٥١، ١٥٤، ١٥٥
عيسى ابن الشيخ سليل الشيبانى ١٣١
عيسى بن معقل ١٣٧
عيسى بن نسطورس ١٤٤
عيشون بن إسحاق ٨، ٤٢

(غ)

غاى ١٦١
غرانيكوس ٦٤
غزالة ٥٠
غودفرى ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٣، ١٩٥
أبو غوش ٢١١
غياث بن السلجوقى ١٨٩

(ف)

فاست ٢٢١
فاطمة الزهراء ١٤١
أبو الفتوح ١٤٥
فخر الدين ١٩١
فرج بن برقوق ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥
فرحات باشا ١٩٠، ١٩١
فرحشاه ١٥٩، ١٦٠
فرعون ٣٨، ٥٣
فريدريك ١٧٠، ١٧١، ١٨٩، ١٩٠
الفزارى ١٠٨
فسياسيانوس ٥٧، ٧٨
فهد بن إبراهيم ١٤٥
أبو الفوارس الإخشيدى ١٣٦
فون ساندرس ٣٦
فون كريس ٢٢١، ٢٢٥
فيصل ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧
فيليب أوغسطس ١٦٤
فيليبس ٦٤، ٦٨، ٨٨

(ق)

قاسم ٢١١
قاسم بك ١٩٥، ٢١٠

obeikandl.com

القاسم العباسى ١٤٧
أبو القاسم المغربى ١٤٥
قانصوه الغورى ١٨٩
القاهر ١٣٥، ١٤١، ١٥٨
قايتباى ١٨٤
قباث بن اشيم ٩٥
قسطنطين ٨٢
قطر الندى ١٣٤
قطز ١٨٠، ١٨١، ١٨٢
القعقاع بن عمرو ٩٥
قلاوون ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤
قلب الأسد ٣٦، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧
قيصر ٧١، ١٢٥، ١٣٤

(ك)

كافور ١٣٥، ١٣٦
الكامل «الملك» ١٧٠، ١٧١
كتبغا ١٨١
كدر لعومر ٤٢
كريم بن ظاهر العمر ١٩٢
كسرى ٣٦، ١٢٥، ١٣٤
كعبل ٥٦
كلاتين ١٨٢، ٢٢٩، ٢٣٠
كليبر ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢
كليوبتره ٧٣
كمال بك ١١٩
كمبوس مرتيوس ٨٠
كمبيز ٦٤
كورش ٦٣، ٦٤
كورنثوس ٨٨
ابن كوكب ٨٢، ١٦٣، ١٧٠
كونثوس ٨٨

(ل)

اللخمى التنوخى ١٤٤
لودندورف ١٩٧
لوط ٣، ٨، ٩، ٤٢
لؤلؤ ١٣٤، ١٦٠، ١٦٢، ١٧٢
لويد جورج ٢٦، ٦٣، ٢٣١
لويس ١٧٢، ١٧٣، ١٩٣
ليمان فون ٣٦

obeikandl.com

(م)

ماريو حنا ١٧٦، ١٧٧
المـــأمون ١٠٧، ١١٩، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣
ماهان ١٨٨
متاتياس ٦٨
المتنبى ١٣٦، ١٤٦
المتوكل ١٣١
مجدل الصادق ١٦٢
المجاهد ١٧١
مجد الدين النابلسى ١٧٥
محمـد ﷺ ٣، ٤، ٩، ٣٥، ٥٢، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٥، ١١٨، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٦
محمد بن إسماعيل ١٤٦
محمد بك أبو الذهب ١٩١، ١٩٢
محمد رشاد الخامس ٢١٤، ٢١٥
محمد بن سليمان ١٣٤
محمد بن طفيح ١٣٥
محمد بن عبد الملك ١٢١
محمد على باشا ٢٠٢
محمد بن على العباسى ١٢٧
محمد بن قلاوون ١١٩
محمد المتوكل ١٩٠
محمد بن يزداد ١٣٥، ٢٠٨
السلطان محمود ٢١٢
محمود شوكت الفاروقى ٢١٤
الأمير محمود الفاعور ١٨٢
محيى الدين بن الجوزى ١٨١
مدحت باشا ٢١٣، ٢١٤
مرقس ٤٩، ٨٠
مـروان بـن الحكـم ١٠٤، ١١٧، ١٢١، ١٢٢
مروان بـن محمـد ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨، ١٣٧، ١٣٨
مريـــم ٧٣، ٧٤، ٩٩، ١٠٩، ١٠١، ١١١
مزاحم ١٣٥
مسادا ٨٠، ٨١
المستضئ ١٥٨
المستعصم ١٨٠
المستكفى ١٨٢
المستنصر العباسى ١٨٢

obeikandl.com

المستنصر الفاطمى ١٤٧
مسروق بن فلان ٩٧
ابن مسعود ١٠٦
المسعودى ١٢٤
أبو مسلم الخراسانى ١٢٨، ١٣٧، ١٣٨
مسلم بن قتيبة ١٣٨
المسيح «عليه السلام» ٤، ٧، ٩، ١٠، ١١، ٤٠، ٤٢، ٥٢، ٥٧، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٨٢، ٨٣، ٨٨، ١٠٤، ١٥١، ١٥٤، ١٥٥
مسيلمة ١٠٩
مصطفى كمال ٢٢٦
مصعب بن عمير ١١٧
مظفر الدين كوكبورى ١٦٢
معاذ بن جبل ١٠٠
معاوية بن ابى سفيان ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١٢٤، ١٢٥، ٢١٠
معاوية بن يزيد ١١٦
المعتصم ١٠٧، ١٣٠، ١٣١، ١٣٤
المعتضد ١٣٣، ١٣٤
المعتمد ١٣٢
المعز بن باديس ١٤٧، ١٤٨
المعز لدين الله ١٣٦
المعظم «الملك» ١٧٠
أبو المغراء ١٣١
المفرج بن دغفل ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥
المقتدر ١١٩
أم المقتدر ١١٩
المقوقس ١١٢
مكابيوس ٦٧
مكالستر ٣٦، ٤٢
المكتفى ١٣٤
ابن ملجم ١٠٥
ملكشاه ١٣٤، ١٤٨، ١٤٩
ملكى صادق ٣٩
ممتاز بك ٢١٨
منجوتكين ١٤٥
المنصور «أبو جعفر» ١١٩، ١٢٩، ١٣٨، ١٨٢
منطاش ١٨٢
منلاوس ٦٨
المهدى العباسى ١١٩
المهدى الفاطمى ١٤١
ابن مهيد ١٤٦
مودين ٦٨
موزيس ٢٥

obeikandl.com

موسى «عليه السلام» ٦، ١٠، ٦٢، ١٦٨
أبو موسى الأشعرى ١٠٥، ١٠٦
موسى بن نصير ١٢٤، ١٢٦
موسى بن يوسف ١٧٧
الموفق ١٣٣، ١٨٢
مولوك ٤٠
مؤنس بن يحيى المرداسى ١٤٧
مونى ٢٢٩، ٢٣٠
مؤيد الدين العلقمى ١٨٠
ميسون بنت بحدل ١١٦
ميمون القصرى ١٧٠

(ن)

نائل بن قيس ١١٧
نابالا ١٩١
نابليون الثالث ٦٥، ٢٠٤
الناصر بن الأشرف ١٧٧، ١٨١
الناصر العباسى ١٦٩، ١٨١، ١٨٢
نبوخذ نصر ٣٦، ٤٢، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣
نجم الدين بن جماعة ١٨٥
نرام سين بن سرجون ٨٧
النشاشيبى «أبو حسين» ٢١٤
الناشيبى «راغب بك» ٢١٤
الناشيبى «عثمان» ٢١٤
النشاشيبى «ناصر» ١٨٣
نصر بن سيار ٧٨، ١٢٨
نصر بن صالح ١٤٧
أبو نصر بن طغج ١٣٥
نصر بن عاصم ١٠٦
نوح ٣
نوح بن أسد ١٣٣
نور الدين زنكى ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٩
نيرون ٧٨

(هـ)

هاجر ٥، ٨، ٤٥
هارون الرشيد ١٢٩، ١٣٠
هاشم ٨١، ٩١
هاشم بن عمر ١٢٣
ابن هبيرة ١١٢
هتلر ١٦، ٢٠
هدريان ٨١
هرقل ٨٣، ١١١، ١١٢

obeikandl.com

هركانوس ٤٣، ٦٩، ٧١، ٧٢، ٨٨
هلد نغورف ٢١٩
هند ١٢٤
هنيبال ٦٥
هولاكو ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٦
هونين ١٧٤
أبو الهيذام ١٣٠
هيرتزل ١٣، ٢٥
هيرودس ٤٢، ٤٣، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٨، ٧٩
هيرودیا ٤٣
هيلانه ٨٢

(و)

وايتكين الحلبى ١٥٥
وايزمن ٢٣١
أبو الورد ١٢٢
وطسن ٢٢٩، ٢٣٠
الوليد بن عبد الملك ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٣
الوليد بن عقبة ٩٤
الوليد بن معاوية بن مروان ١٢٢، ١٢٨
الوليد بن يزيد «الثانى» ١٢٠
وهيب بن عبد الرحمن الأزدى ١٢٠

(ى)

اليازورى ١٤٧
ياسون ٦٨
ياقوت الحموى ٩٧
يبوسيون ٣٨، ٣٩، ٥٥
يربعام ٥٥، ٥٦
يرزعيل ٦٥
يزيد بن أبى سفيان ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠٠
يزيد بن سلام ١١٩
يزيد بن سليمان ١٢١
يزيد بن معاوية ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٨١، ١٨٢، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣
يزيد بن المهلب ١٢٠، ١٣١
يزيد بن الوليد ١٢٠، ١٢١

obeikandl.com

يشوع ٦، ١٠، ٣٨، ٤٧، ٦٨
يعقوب بن كلس ١٤٤، ١٤٥
يقطان ٩
يكتكين ١٤٤
يكيشهر ١٨٩
يـهوذا ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٦٧، ٦٨
يهوذا الأسخريوطى ٧٥
يهوشافاط ٤٢
يوحنا الجسخلى ٧٩، ٨٠
يوسف بن إبراهيم بن بغا ١٣٤
يوسف الشهابى ١٩١، ١٩٤
يوسف الصديق ٥
يوسف ضيا ٢١٣
يوسف النجار ٧٣، ٧٤
يوسيفوس ٤٧، ٦٥، ٧٥، ٧٩
يوليوس ٣٦، ٦٥، ٧١
يوناثان ٤١
يونس «عليه السلام» ١٧٥

٢ ـ الأماكن الجغرافية

(أ)

إبراهيم «وادى» ٤٥
الأبلة ١١٠
أجنادين ٩٧
الإحساء ١٤٣
أذرع ١٣٤
أذرعات ١٤٣
أربد ١١٦
أربل (اربيلا) ٦٥
الأرجتين ٢٣١، ٢٣٢
أحد ١٠٨
أرخبيل ٤٠، ٢٢٦
الاردن ٦، ٧، ٩، ١١، ٣١، ٣٣، ٣٨، ٤٣، ٤٧، ٦١، ٧٣، ٧٤، ٨٧، ٨٨، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ١٠٠، ١٠١، ١٠٥، ١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٤، ١٥٥، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٧، ٢١٥
أرسوف ١٥٥، ١٦٤، ١٦٦، ١٨١

obeikandl.com

أرفا ١٦٠
أرمينية ٢٢٦
أرنون «نهر» ٤٢
أرونه ٣٩
أريحا ٣٩، ٤٢، ٤٧، ٦٩، ٧٨، ٩٨، ١٠٠
أزمير ٢٢٦
اسبانيا ٤٠، ٨٤، ١٩٥
الآستانة٧٥، ١٥٢، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٢
استراليا ٣٦
إسكندرونة ٦٤، ٨٤
إسكندرية ٦٥، ٦٦، ٨٤، ٨٥، ١٥٧
إسوس ٦٤
آسيا ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٦٤، ٨٣، ٨٤، ١٥١، ١٨٧، ١٩٥
آسيا الصغرى ٣٨، ٦٣
أشقلون ٤٨
أضاليا ٢٢٦، ٢٢٧
الأطرون (قلعة) ١٦٥
الأعوج «نهر» ١٦٧
إفريقية٣٥، ٣٦، ٤٠، ٤٣، ٦٣، ١٠٤، ١٠٩، ١٢٦، ١٢٩، ١٤١، ١٤٣، ١٤٧، ١٥٧، ٢٣٠
الأفلاق ٢٠٥
الأقحوانة ١٤٧، ١٥٥، ١٦٠، ١٦١
الألب «جبال» ٢٠٠، ٢٠١
المانيا ١٣، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ١٥٢، ١٦٤، ١٧١، ٢١٧
اماعين «بئر» ١٨٥
أمريكا ١٢، ١٣، ١٥، ١٦، ١٧، ٢٤، ٢٦، ٣٦، ٤٣، ٢٣١
الأناضول٤٠، ٦٥، ١٤٨، ١٥١، ١٥٣، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ٢٠٩، ٢٢٧
الأنبار ١١١، ٢١٩
انجلترا ٣٣، ٣٥، ٤٠، ٨٦، ١٥١، ١٦٤، ١٦٦، ١٩٥، ٢٠٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١
الأندلس٤١، ٩٥، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٩، ١٤٢، ١٧٥

obeikandl.com

انطاكيـــة ٨٣، ٨٤، ٨٥، ١٠٠، ١٤٤، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٠، ١٦٤
انطرطوس ١٧٣
أنقرة ١٢٩، ٢٣٢
أواسط جزيرة العرب ٣٧
أوديسا ٢١٨
أور ٨٥
أورشليم ٧، ١١، ٤٢، ٥٧، ٥٩، ٦٢، ٦٥
أوروبـا ١٢، ١٥، ١٦، ١٧، ٢٤، ٢٧، ٢٩، ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٦٣، ٨٣، ٨٤، ١٠٣، ١٢٧، ١٤٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٤، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧
أوستريا ١٩٠
أوغندا ١٣، ٢٣١
إيران ١٠٤، ١٨٨، ١٨٩
إيرلندا ٧٧
إيطاليـــا ٢٣، ٢٤، ٢٧، ٢٨، ٧٨، ١٥٣، ١٩٥، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٧
إيلة ٤٣، ٩١، ٩٤، ١٦٠، ١٩٢
إيليـــا ٣٥، ٦١، ٩٧، ٩٨، ١٠٠

(ب)

باب الأردن ١٢١
باب أريحا ٩٨
باب جمح ١١٧
باب الخليل ٧٣، ٧٨، ١٩٠، ٢٠٤
باب الساهرة ١٥٣، ١٦٢
باب السيدة مريم ١٩٠
باب الصفا ١١٧
باب العمود ٥٤، ١٦٢، ١٦٣
باب الفراديس ١١٦
بـابل ٤٦، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٨٣، ٨٧
البادية ١٣٤، ١٦٥
بادية التية ٦٠
بادية الشام ٣٧
بادية العرب ٣٧
باريس ٢٠١، ٢٢١، ٢٢٤
بازل ٢٣١
بانياس ١٦٩، ١٧٤

obeikandl.com

البحر الأبيض المتوسط ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٤٢، ٦٣، ٨٣، ١٨٨
البحر الأحمر ١١٢، ١٦٠
البحر الأسود ١٢٩، ١٩٠
البحر الميت ٤٢، ٨٠
بحر عيذاب ١٦
بخارى ١٣٣
بدر ١٠٨، ١١١
البرازيل ٢٤
البرج ١٨٥، ٢١١
برج أنطونيا ٧٨، ٧٩، ٨٠
برج الجاموس ١٨٤
برج داود ١٧١
برج مجدل يابا «مجدل الصادق» ١٦٧
برك سليمان ٥٤، ٢٠٤
بركة التمساح ١١٢
بركة السلطان ١٧٦، ١٩٠
برمينة ٧٢
البروث «نهر» ٢٠٥
بروسيا ١٨٩
بروصة ٢٠٣
بروكسل ٢١٧
بريطانيا ١٣، ١٤، ١٩، ٢٦، ٢٧، ٨٢، ٨٣
البريك ١٧٠
البرية ١٢٠
بستان الجشيمانى ٧٥
البسفور ٢١٨
بشارة ١٩١، ١٩٢
البصرة ١٠٦، ١٠٨، ١٣٨، ٢١٠
بصرى ٤٣، ٨٨، ١٣٤، ١٥٥، ١٦٩، ١٧٥
بعل ٤٠
بعلبك ٨٤، ٨٥، ١٦٩
بغداد ٧٢، ١٠٣، ١٣٠، ١٣١، ١٤٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥
البغدان ٢٠٥
بلبيس ١١٢، ١٥٨
بلجيك ٢١٧
بلغاريا ٢٧
البلقاء ٩١، ٩٣، ٩٤، ١٠١، ١٠٦، ١٢٢، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٨٩، ١٩٠، ٢١٥
البلقان ١٨٨، ١٩٠، ٢١٧

obeikandi.com

بلى ٩١، ١٢٤
بنيش ٢٨
بهراء ١٢٤
بواتيه ١٢٧
بواديسيا ٤٩
البوسنة ١٩٣، ١٩٤، ٢١٥
بوغازكوى ٣٨
بولندا ٢٧، ٢٨، ٢٩
بولونيا ٢٨، ٧٧
بيت اكشا ١٩١، ٢١١
بيت آيل ٧، ٨، ٣٨، ٥٥
بيت جالا ١٧٤
بيت جبرين ٩٧، ١٦٢، ٢١١
بيت دجن ٤١
بيت عور ٦٨، ٢٢٦
بيت فورك ٢١١
بيت لحم ٥٢، ٥٤، ٦١، ٧٢، ٧٤، ٨٢، ١٠٧، ١٥٣، ١٦٢، ١٧٤، ١٧٥
بيت المقدس ٢٩، ٣٥، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٧، ١١٥، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١
بيت نوبة ١٦٥
بيت وزن ٢٠٣، ٢١١
بيتان ٢٨
بيتوينة ٢١١
البيربينة (جبال) ١٢٧
البيرة ١٥٣، ١٧٤، ٢١١
بيروت ٣٩، ١٠٠، ١٥٣، ١٧٣، ١٩٤، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٢٨
بيزنطه ٨٢
بيسان ٤١، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١١٠، ١١١، ١١٦، ١٢٢، ١٥٥، ١٦٠، ١٧٠، ١٨١
بينة ١٦٢

(ت)

تبالة ١٢٦
تبوك ٤٢، ٩١، ٩٤، ١٠٩
التبير «نهر» ٧٦
التتر «جبل» ١٨٧
تدمر ٤٩، ٨٨، ٩٥، ١١٠
تركستان ٣٨، ١٣٤، ١٤٨، ١٨٤، ١٨٧

obeikandl.com

تركيـــا ١٣، ٨٣، ١٩٠، ٢٠٦، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٧
تشيكوفاكيا ٢٧، ٢٨
تقوع ٦٢
تل العجول ١٧٠، ١٧٥، ١٨١
تل الفوال ٥١
تل القاضى ٣٣
تل كلخ ١٢٤
تل كيسان ١٦٤
التمر «عين» ١١٠
تيماء ٩٣، ١٦٠
تينين ١٧٥
التية ٣٨

(ث)

الثنى «نهر» ١١٠
ثنية العقاب ٩٥

(ج)

الجابية ٩٨، ١١٧
جامع الأزهر ١٤١
جامع الأموى ١٦٦، ١٨٢، ١٨٤
جامع ابن طولون ١٣٣
جامعة الدول العربية ١٨، ٣١
جامعة القاهرة ٢٩
جاوا ١١٩
الجبارات ٤٣
جبلة ٩٤، ١٠٨
جرزيم «جبل» ٥٧
جرش ٤٣، ٨٤
الجزيرة ٥، ٣٧، ٨٩، ١٢٢، ١٢٩
جسر بنات يعقوب ١٥٩
جلبوع ٤١
جماعين ٢١١
الجمل ٤٩، ١٠٤
الجمعية اليهودية الاستعمارية ٢٥
جنـــين ٤١، ٩٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٧٠، ١٨١، ١٨٢، ١٩١، ١٩٢، ٢٠١، ٢١١
جورة عمرة ٢١٠
الجوزاء «ساحل» ١٦٠
الجيب ١٩١

(ح)

حارة الجرامنة ١٦٧
حارة بنى زيد ١٦٧ .

obeikandi.com

حارة السعدية ١٦٧
حارة بنى مرة ١٦٧
حبرون ٦، ٤٥
الحجاز ٨٩، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٣٢
الحجر ٤٣، ٦٩، ٨٨
الحجر الأسود ٣١، ٣٣، ١٠٠، ١٠٤، ١١٧، ١٢٢، ١٣٥، ١٣٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٩١
حران ١٢٨
حصن عيسى بن معقل ١٣٧
حطين ٩٦، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧
الحفير ٣٣، ١١٠
حلب ١٠٠، ١١٠، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٦٣، ١٦٩، ١٨٤، ١٨٩، ٢٢٨
حماه ٣٤، ١٥٩، ١٨١، ١٨٢
حمص ٣٤، ٩٤، ٩٧، ١٠٠، ١٢١، ١٢٢، ١٣٠، ١٤٣، ١٥٩، ١٧١، ٢٠٣
الحميمة ١٢٧، ١٢٨، ١٣١
حوران ٤٣، ٨٨، ٩٤، ١٢٢، ١٥٦، ٢٠٣، ٢١٥
الحويطات ٤٣، ٢٢٥
الحيرة ١١٠
حيفا ٧٢، ١١٥، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٧، ١٧٥، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢١٢، ٢٣٠، ٢٣١

(خ)

خان خليل ١٨٢
خان زيت ١٦٧
خان يونس ٢٠٢
خراسان ١٢٣، ١٢٨، ١٣٧، ١٤٨، ١٤٩
خربثة ٢١٢
الخروبة ١٦٤
خليج العقبة ٨٨
الخليل ٣٨، ٤٥، ٤٨، ٥٢، ٦٢، ٦٨، ٧٤، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١١
الخندق ١٠٨
خوارزم ١٧١، ١٧٢

obeikandl.com

(د)

دار الحاج ٢١١
دار الخطيب ١٨٥، ٢١١
دار سمحان ٢١١
دار الشبلى ٢١١
دار طوقان ٢١١
دار الطويل ٢١١
دار عبد الهادى ٢١٢
دار عريقات ٢١١
دار عقل ٢١١
دار على شيخه ٢١١
دار اللحام ٢١١
دار ماضى ٢١٢
دان ٣٣
دجلة ٣٥، ٦٠، ٦٥، ١٤٢
درك ٢٠٥
الدرنيل ٢١٨، ٢٢٣
دمشق ٤٣، ٥٦، ٥٩، ٧١، ٨٨، ٩٦، ٩٧، ١٠٠، ١٠١، ١١٠، ١١١، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٨١، ١٨٢، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٣، ٢٢٨
دمياط ١٥٨
دوره «كفر» ١٧٠
دوطة ٥٣
دومة الجندل ١٠٩، ١١٠
دير أيوب ١٥٦
دير دبوان ٢١١
دير غسانه ٢١١، ٢٢٦
دير مارسابا ٨٢
دير ماريو حنا ١٧٦
دير نظام ١٨٤
أبو ديس ٢١١

(ذ)

ذات الردعة ٩٧
ذات السلاسل ١١٢
ذى قار ٨٩

(ر)

رأس الناقورة ٣٣
رأس كوكو ٢١١
رام الله ٤٨، ٦٨، ١٦٧
الرامة ٤٨، ٤٩، ٥٦
رفح ٣٣، ٣٤
رقادة ١٤١
الرقة ١٧١
الرملة ٣٧، ٤٨، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٣١، ١٣٣، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٤، ١٩٦، ١٩٧
الرها ١٦٠
رودس ٤٠، ١٧٦
روسيا ١٩١، ١٩٥، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٧، ٢٢٢
روما ٨٣، ٢٠٣، ٢٠٧
رومانيا ٨٣، ٢٠٥
رومية ٨٠، ٨٢، ٨٨

(ز)

الزاب ١٢٢، ١٣٨
زرعين ٥٦
الزرقاء ٤٢، ١١٦
زفس ٦٨
زفة البيارق ١٦٧
زمران ٩
الزيتون «جبل» ٧٨
زيلاندا ٣٦

(س)

سان ريمون ٢٢٩، ٢٣٠
سبسطية ٥٦، ٧٣، ٨٤، ٩٧، ١٦٠، ١٦٢
سبع «بئر» ٣٣، ٥٥، ٦١، ٢٠٧
سبيريا ١٨٣، ١٨٤
سرمن راى ١٣٠
سرية شفا عمرو ١٩٢
سعفاط ٢٠٤
سكوبس ٦٥، ٧٨
سلار ١٨٢

السلط ٢٢٦
سلوان ١١٦، ١٦٤
سمرقند ١٨٤
سنبلط ٥٧
سنجار ١٧١
سنجل ٢٢٦
سواري ١٠٩
السودان ٣٥، ١٥٨
سور عكا ١٩٢، ١٩٣
سورية ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٥٩، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ٧٠، ٨٣، ٨٨، ٩١، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٦، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٣، ١٦٩، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٧
سوق افتيميوس ١٧٦
سوق خان زيت ١٧٦
سوق الفخر ١٦٧
سوق القطانين ١٦٧
السويس ٢١٩
سويسرا ٢٣١، ٢٣٢
سيدان ٢٢١
سيفروسان ريمون ٢٢٦
سيمون «قرية» ١٦٤
سيناء ٢٣١، ٢٣٢

(ش)

الشام ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٨٨، ٨٩، ٩٨، ١٠٤، ١٠٦، ١١٦، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٣١، ١٣٤، ١٣٥، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٧٧، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٨، ٢٠٩
الشرق ١٨، ١٩، ٢١، ٣٦، ٤٣، ٤٨، ٥٨، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧١،

٧٣، ٨٣، ٨٤، ٩١، ١٢٩،
١٥٢، ١٦٤، ١٦٧، ١٧٣،
١٧٦، ١٩٧، ٢٠٤، ٢١٧
شفا عمرو ١٩١، ٢١٢
الشقيف ١٦٢، ١٧٠
شقيلة ٤٣
الشـــوبك ١٤٣، ١٥٥، ١٥٩، ١٦٣،
١٦٩، ١٧٤، ١٨١
شوفة ٢١١

(ص)

الصائفة ١٣٠
صانور «قلعة» ٢٠١، ٢٠٢، ٢١١
صبارين ٢١٢
الصبرة ١١٧
الصحراء ٣٣
الصخرة «أنظر قبة الصخرة»
صرخد ١٦٩
صرعا ٤٨
الصعيد ١٥٧، ٢٠٢
صفد ١٣٣، ١٥٦، ١٨١، ٢٠٠، ٢٠١
صفورية ١٦٠، ١٦٢
صفين ٩٠، ١٠٤، ١١٣، ١٢٥، ١٢٦
صقلية ١٦٥
صلخد ٤٣
صـــهيون ٣، ٩، ١٠، ١٣، ٣٨، ٣٩،
٤٠، ٤١، ٥٢، ٦٤، ٦٨،
١٤٩، ١٥٣، ١٦٣، ٢٣٠، ٢٣١
صور ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧
صيداء ٣٩، ١٠٠، ١٤٣، ١٥٣، ١٧٣،
١٩٢، ٢٠٨
أبوصير ١٢٢
الصين ١٢٩، ١٨٧

(ض)

(ط)

الطائف ١٢٥
طابور «جبل» ٢٠١
طبرستان ١٥٧
طبريـــــا ٧٣، ٧٤، ٧٨، ٩٦، ٩٧،
١٠٠، ١١٧، ١٢١، ١٢٢،
١٣٤، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٥،
١٥٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢

obeikandl.com

طرابلـــــس ٣٩، ١٠٠، ١٥٣، ١٦٠، ١٨٢، ٢١٥، ٢٣١
طرايزون ٢٠٨
طلورة ٥٦، ١١٦
الطواحين «معركة» ١٣٣، ١٤٣
الطور ٦٢، ٢٠٠
طورس ٣٤
طول كرم ٥٨، ٢٢٦
طيبة «بنى سالم» ٤٨
طيرة ٢١٢

(ظ)

الظاهرية «قرية» ٤٥

(ع)

عثليت ١٥٥، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥
عجلون ٦
عجة ٢٠٢
العراق ٣١، ٣٦، ٣٧، ٤٠، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٥، ٩١، ٩٥، ٩٦، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٩، ١١٠، ١١٦، ١٢٦، ١٣١، ١٥٧، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، ١٨١، ١٨٨، ١٨٩، ٢٠٨، ٢١٨، ٢٢٣، ٢٣١
العراقيين ٤٥، ١٢٢، ١٣٤
العرقوب ٤٨
عريـــــش ١٣٥، ١٧٧، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٢، ٢٠٣
عسقلان ٤١، ٤٨، ١٠٠، ١١٦، ١٢٥، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧، ٢٠٨
عطارة ٤٩
العقبة ٩٤، ١١٥، ١١٦
عقرون ٤١
عكا ٣٣، ٣٨، ٤١، ٤٨، ١٠٥، ١١٦، ١٢٥، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥
عل ٢٠٥
عمان ٤٢، ٨٤، ٦٠، ١٢٠، ١٣٥

obeikan.com

عمواس ٩٧
عمون ٦٠
عنانا ٦٢
العوجاء ٢٢، ١٩١
العويسات ٢١١
عين جدى ٨٠
عين شمس ١٤٢
عين كارم ١٥٣

(غ)

غاليسيا ٢١٣
الغرب ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٤٣، ٥٨، ٦٤، ٦٥، ٧١، ٧٣، ٨٣، ١٤٣، ١٩٧، ٢١٧، ٢٣١، ٢٣٢
غـــزة ٣٤، ٤٠، ٤١، ٤٨، ٦٥، ٨٨، ٩٧، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٥، ١٩٢، ١٩٦، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨
الغور ٤١، ٥٧، ١٧١، ١٨١، ١٨٩
غوربيسان ١٠٠، ١١١، ١٢٤، ٢١٢

(ف)

فـــارس ٦٣، ٦٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠
فارسوفيا ٢٨
الفارعة ٥
الفجار ٨٩
فحل ٩٣، ٩٦
الفرات ٧، ٩، ٤٥، ٥٣، ١٣٣
فرسای ٢٢٦
فرغانة ١٣٤
الفرما ١١٢
فرنســا ٢١، ٢٧، ٢٨، ٣٣، ٤٩، ٦٦، ٨٤، ١٥٢، ١٦٤، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨
الفسطاط ١١٢
أبى فطرس ١٢٢
فطم ٦٤
الفلت ٦٤
فلســـطين ٣، ٥، ٧، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٦، ١٧، ١٨،

obeikandl.com

١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤،
٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٤،
٣٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٢،
٤٣، ٤٥، ٤٧، ٥١، ٥٣، ٥٤،
٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٤، ٦٦،
٦٧، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦،
٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢،
٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٨٩،
٩٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨،
٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٧، ١١٢،
١١٥، ١١٧، ١١٨، ١١٩،
١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣،
١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧،
١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣،
١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧،
١٤٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩،
١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥،
١٥٦، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣،
١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠،
١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤،
١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨،
١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢،
١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٧،
١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١،
١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥،
١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩،
٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣،
٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧،
٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١،
٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٨،
٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢،
٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦،
٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠،
٢٣١، ٢٣٢

فندق مرقص ٨٠

فنيقية ٦٤

فوش ١٩٧

فينا ١٨٨، ٢٣١

(ق)

قازان ١٨٢

القاهرة ١١٦

قبرس ٤٠

قبة الصخـرة ٥٥، ١١٨، ١١٩، ١٢٣،
١٦٣، ١٧١، ١٧٥، ١٨١، ١٩٠

القدس ٢٩، ٣٥، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٨،
٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٧،
٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٥، ٧١،
٧٣، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠،
٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٨، ٩٧، ٩٨،
١٠٠، ١٠٧، ١٢٠، ١٢٩،
١٣٥، ١٣٦، ١٤٥، ١٤٧،

obeikan.com

١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٥،
١٥٩، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤،
١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩،
١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣،
١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧،
١٧٨، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤،
١٨٥، ١٩٠، ١٩١، ١٩١،
١٩٢، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩،
٢٠١، ٢١١، ٢١٤، ٢١٥،
٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧،
٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢

قرطجة ٤٠

القرم «حرب» ٢٠٤، ٢٠٥

قزوين ١٧١

قسطنطينية٣٥،٨٣،١٠١،١٢٥، ١٤١،
١٥١،١٨٦،١٨٨،٢٠٠،٢٠١

قفقاسية ٢٠٤، ٢١٨

قلعة صانور ١٩١

قنسرين ١١٠، ١٢٣، ١٣٤

قوص ١٨٢

قوفية ١٨٩

قوله ٢٠٢

قونية ٢٠٣

القيامة «كنيسة» ٨٢، ٨٣، ٩٩،
١٢٩، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٥، ١٧٦

القيروان ١٤٧

قيسارية ٧٢، ٧٦، ٨٣، ٨٤، ٩٧،
١٠٠، ١٢٥، ١٥٥، ١٦٣،
١٦٦، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٣، ١٨١

قيصرية ٧٢، ٧٣، ٧٦

(ك)

الكداد ١٢٨

الكدان ٨٧، ١٠٦

الكرك ١٢٤، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩،
١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٦،
١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤،
١٧٥، ١٧٦، ١٨١

الكرمل ٢٣٠

الكرنك ٣٨، ٢١٥

كريت ٤٠، ٦٢

الكعبة٥٤،٥٥،٨٩،١١٧،١١٨، ١٢٦

كليكيا ١٠١، ٢٢٦، ٢٢٧

كنيسة البيرة ١٧٤

كنيسة الدباغة ١٢٩

كنيسة الصلاحية ١٧٤

كنيسة العذراء ١٢٩

كنيسة اليهود ١٨٤

الكوفة ٥٧، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١٢٦، ١٢٨، ٢١٠
الكويت ٥٧

(ل)

اللاذقية ١١١
لبنان ٢٤، ٣٧، ٣٩، ٥٤، ١٩١، ٢٠٩
اللجون ٩٦، ١٣٥، ١٦٠، ١٩٧
لفتا ١٥٣
لفيدوت ٤٩
اللـــد ٦٨، ٧٧، ١٦٢، ١٦٥، ١٩٧، ٢٠٧
لندن ١٨، ٢٣٢
لوبيا ١٦١
لوزان ٢٢٧، ٢٣٢
لوكسمبورج ٢١٧
الليبس ١١٠
ليديا ٦٣

(م)

ما بين النهرين ٥
مادبا ٤٣
ماراثون ٦٣
مارسابا ٨٢
المارن ٢١٧
المالحة ٢١١
مالطة ١٧٦، ١٧٧
ماملا «بركة» ٥٩، ١٦٢
المبكى «حائط» ٥٤
مجدل ٢٠٧، ٢١١، ٢٢٦
مجدو ٩٦
المجر ٢٧، ٢٩، ١٩٠
مجلس عصبة الأمم ١٤، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٣٠
مجلس العموم البريطانى ٢٦
مدرسة الشافعية ١٦٣
مدرسة الصلاحية ١٦٣
مدرسة روضة المعارف ٧٣
مديان ٩، ٨٧
مدين ٤٧، ٨٧
المدينة ١٥٩، ١٦١
المدية ٦٨
المرج ٤١
مرج دابق ١٨٩

obeikandl.com

مرج راهط ١١٧، ١٢٣، ٢١٠
مرج ابن عامر ٤١، ٤٩، ٥١، ٥٨، ٩٦
مرج عكا ١٦
مرسيليا ٤٠
مرعشا ١١٠
مرمر ٦٤
مريمنه ٧٢
المسجد الأقصى ٥٤، ١١٩، ١٢٠، ١٤٨، ١٥٤، ٢١٦٣، ١٧١، ١٧٦، ١٧٧، ١٨١
المسكوبية ٧٨، ١٦٢
المشرق ٤٧، ٥٧
مشهد الحسين ١٨٢
مصر ٥، ٧، ٨، ٩، ١٩، ٣١، ٣٦، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٤٦، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧١، ٨٣، ٨٨، ٩١، ٩٥، ٩٦، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١١٢، ١١٣، ١١٧، ١١٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٤، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢٢٥، ٢٢٦
معان ٨٧، ٩١
المعرقة ٩٤
معرة النعمان ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥
معليا ١٦٢
مغارة سليمان ٥٤
المغرب ٦٣، ٩٥، ١٣٨، ١٤١، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٩، ١٩١، ١٩٤
مقان ٨٧
مقتا ٩١
المقطم «جبل» ١٤٦
المكتبة المركزية ٢٩
مكدوينا ٦٥، ١٨٩، ١٩٠
مكفيلة ١٨٩
مكة ٨٩، ٩١، ٩٤، ١٠٦، ١٣٣، ١٣٧، ١٤٥، ١٥٩، ١٦١، ١٩١، ١٩٢
المهد ٨٢
مواسم فلسطين «أنظر فلسطين»
المؤتمر الفلسطيني ٦٧
مؤتة ٩١، ١٠٠، ١٤٥

obeikandl.com

مودين ٦٨
موريا ٤٥
موسى «وادى» ٤٣، ٤٦، ٥٢
الموصل ١٥٧
ميافارقين ١٧٠
ميونيخ ٢٨

(ن)

نابلس ٣٨، ٤٣، ٥٦، ٥٧، ٩١، ٩٧، ١٠٧، ١٤٩، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٨٤، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٧، ٢٣٢
الناصرة ٥٧، ٧٤، ٩٦، ١٦٢، ١٧٠، ١٧٤، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨
الناقورة ٣٣
نبطية ٧٨
النقب ٢١١
النمسا ٢٧، ١٥٢، ١٨٨، ١٩٥، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨
نورمبرج ٢٧
نيكاراغوا ٢٣١
النيل ٣٥، ٦٠، ١١٢، ١١٣، ١٤٢، ١٨٠
نيويورك ٢٣، ٣٥

(هـ)

هجرة ١٢٢
الهرسك ٢١٥
الهند ١٢٤، ١٢٩، ١٨٤
هنغاريا ١٥٢
هولندا ٢٧، ٢٨
هيئة صهيونية ٢٥

(و)

وادى الشعير ٢٠٣
وادى الصرار ١٦٧، ٢١١
وادى القرى ٤٣
وادى النيل ٣٥، ٢٠٢
الوادية ٢١١
واسط ١٢٦
الولجة ١١٠

oberkandl.com

(ى)

يازور ١٤٧، ١٥٥
يافـــا ٢٥، ٣٤، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٧٢، ٩٧، ١٠٠، ١٢٥، ١٣٣، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٨١، ١٨٢، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤
ياوره ٥٢، ٢٠٣
الـــيرموك ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠٢، ١١٠، ١١١
اليمـــن ٥٣، ٨٩، ١٢٦، ١٣٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٧٧، ٢٠٩، ٢١٠
يوغسلافيا ٢٧
اليونان ٢٣، ٢٤، ٣٢، ٤٠، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧١، ٧٣، ٨٤، ٨٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨

٣ ـ البطون والطوائف

(أ)

الإباضية ١٠٥
الأتراك ٨٤، ٩٦، ١٣١، ١٤٨، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٨، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١
الأحباش ٨٩
الأخشـيدية ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢
آدوميون ٤٢، ٤٣، ٥١، ٧١
الأرثوذكس ٢٠٤
أرمن ٢٢
أرنوط ١٩٦
ارنؤودية ٢٠٢
أريانى ٣٦، ٤٠
الآيوسيون ٨٣

الآزد ١٢٤
الأسباط ٣٣، ٤٨، ٥٢، ٥٤
إسرائيل ٤، ٥، ٦، ٧، ٢٩، ٣٩، ٤١، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١
الإسرائيليون ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٤٧
الإسكندينافيون ٢٤
الإسماعيلية ١٠٥
الأشراف ٩٤، ١٥٧، ١٨١
آشور ١١، ٥٦، ٥٩، ٦٣، ٦٤، ٨٣
ألاشوريين ٦٥
اصطبله ٥٤
الأغريق ١٢٥
الافرنج «الفرنج» ٨٥، ٩٦، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٨١، ١٨٣
الأفغان ١٠٤، ٢١٩
الأقباط «القبط» ١٠١، ١٠٨
الأكاسيرة ١١
الأكراد ١٨٤، ١٩٦
أكيد «اهل» ٩١، ١٠٩
اللاتين ٦٦، ٨٤، ١٢٩، ٢٠٤
«بنو» القين ١٢٩
الألمان ٩، ١٥، ٢٦، ١٦٤، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧
الأمريكيون ١٥، ٢١
بنو أمية ١٠٤، ١٠٥، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٨٠، ١٨١، ٢١٠
أنباط ٤٢، ٤٣
الأنصار ٩٠، ١٠٩
الأنكشارية ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ٢٠٨
أورالكدانيين ٤٥
الأوروبيين ١٧، ١٩، ٢٠٨، ٢٣١، ٢٣٢
الأيرلنديون ٢٤
الايطاليون ٢٣، ٢٤، ٢٨، ٧١
الأيوبيين ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١

(ب)

البابليون ٦٢، ٦٣، ٨١
بدو ١٦٨، ٢١١، ٢١٥
البرابرة ١٨١، ١٨٢، ١٨٨
البراغثة ٢١١
البربر ١٢٦، ١٨١
البرقاوى ٢١١
برتستانتى ١٩
بريطـــــانيين ١٣، ٢١، ٢٤، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢
البطالسة ٦٦، ٦٧، ٨٥
بكر ١٢٤
البكطاشية ١٨٩
البلاونة ١٢٤
بلغاريين ٢٦
بلى ١٢٤
بهراء ٩٣
بولز ٩٣
البولنديين ١٧، ٢٢، ٢٣
البيتاوى ٢١١
البيتونى ٢١١

(ت)

تبع ١٣٤
التستر ٨٤، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١
الترابيين ٤٣، ٢١١
تغلب ١٧٣
بنو تميم ١٠٩
تنوخ ٩٣، ١٢٤
التياها ٤٣، ١٢٤، ٢١١

(ث)

ثقيف ١٢٥

(ج)

الجبارات ٢١١
جديس ٨٩
جرار ٢١١
الجرامنة ١٨٤، ٢١١
الجركس ٢١٩
جماعين ٢١١

obeikandl.com

بنو جمح ١١٧
الجنبلاطية ٢٠٩

(ح)

بنو حارث ١٦٧، ١٦٨، ٢١١
بنى حارثة ١٩١، ٢١١
الحثيون ١٤، ٣٨
الحجازيون ١١٦، ٢٠٩
بنو حسن ١٦٧، ١٦٨، ١٩٣، ٢١١

(خ)

خاقان ٦٨
خذام ١١٧
خزعل ١٤٦
خشقدم ١٨٤، ١٨٥

(د)

الداروم ٦٥، ١٦٨
الدارية ١٨٤
الدباونة ٢١١
الدرزية ١٠٥

(ذ)

(ر)

الرجعية ١٧
الـروم ١١، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠٩، ١١٢، ١١٨،

جور عمرة ٢١١

بنو حمار «حمير» ٢١١
الحناجرة ٢١١
الحواسى ٢١٢
الحويطات ٢٢٥

بنو خفاجة ١٤٧
الخوارج ١٠٥، ١٠٧
خورازمية ١٧١، ١٧٢، ١٧٩، ١٨٠

الدروز ٢١٥
الدمشقيين ١٧٧
الدواهدة ٥٢
دورة ٢١١

١٢٥، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٣،
١٤٣، ١٤٥، ١٨٠، ١٨١،
٢٠٠، ٢٠١

obeikandl.com

الروسان ١٢، ١٧، ٢٤، ٣٤، ٤٢، ٤٩، ٦١، ٦٦، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٩٦، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١١٠، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩
الروس ٢٣١

(ز)

الزراتينى ١٨٢
زنانة ١٤٨
الزنوج ١٣٣
الزياذنة ١٩١، ١٩٢، ٢١١
بنو زيد ١٦٧، ١٦٨، ١٨٤، ١٩٣، ٢٠٧، ٢١١
الزيدية ١٠٥

(س)

بنو سالم ٤٨، ١٦٧، ١٩٣، ٢١١
سامريين ٥٧، ٥٩
سامى ٣٦، ٣٧، ٤٥
السامرة «السمراء» ١١٧، ١٢١
أبو ست ٢١١
السردية ١٢٤
السريان ١٠٦
بنو سعد ١٦٧
السكاسك ١٢٤
السلاحدارية ٢٠٨
سلجوق ١٤٨
السلط ٤٢
السلوقيون ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧١
بنو سليم ٩٣، ١٤٧
السمرة ٥٧، ٧٣، ٧٦، ٧٧
السنة ١٤٨
بنو سهم ١١١

(ش)

الشرارات ١٢٤
الشراة ١٣٥
الشعراوية ١٦٧، ٢١١
الشمامرة ١١٦
بنو شمس ٢١١
الشيعة ١٠٥، ١٢٨، ١٤٨
الشيوعية ١٧

obeikandl.com

(ص)

بنو صالح ١٦٨

بنو صخر ٤٣، ١٢٤

الصرب ٢١٧

بنـو صعـب ١٢٤، ١٦٧، ١٦٨، ٢٠٧، ٢١١

الصقر (عرب) ٢٠٢، ٢١٢

صليبة (قبيلة) ١٧٤

الصليبيـــون ٨٣، ١٤٩، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥

الصهيونيـــة ٩، ١٢، ١٣، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢

الصيني ١٧

(ط)

الطاهرية ١٤٢

الطولونيين ١٣٣، ١٣٤، ١٤٢

بنوطن ١٠٩، ١٤٥، ١٧٣

(ظ)

(ع)

عباديد ٨٧

بنـو العبـاس ٧٢، ١٠٣، ١٠٥، ١١٩، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٢، ١٦٧، ٢١٠، ٢١١

العبرانيين٣٩، ٥١، ٥٤، ٦٦، ٦٧، ٨٤، ١٠٠، ١١١، ١١٦، ٢٣٠، ٢٣١

العثمـــانيون ٨٤، ١٠١، ١١٩، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨

العجارمة ١٧٥

بنو عبد مناف ١٢٥
بنو أبى عبيدة ١٦٧، ١٦٨
العجـــــم ١٠١، ١٢٤، ١٣١، ١٤٦، ١٨٩، ٢١٠
العدلية ١٩٣
العدنانية ٢٠٩
العدوان ٤٣
بنو عدى ١٠٧، ١٤٧
عـــرب ٩، ١١، ١٣، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٧، ٣١، ٣٣، ٣٧، ٣٩، ٤٢، ٤٧، ٥٤، ٧٧، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ٨٨، ٩١، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ١٣١، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥١، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢
العزارمة ٤٣، ١٢٤، ٢١١
العزى ٢١١
العطاونة ١٢٤
بنو عقبة ١٢٤
العلوفجية ٢٠٨
عماليق ٤٢، ٤٧، ٥١، ٨٩
عمونيون ٤٢، ٥١
بنو عمير ١٦٧، ٢١١
بنو عنبر ١٦٧، ٢١١

(غ)

غزالة ٥٠
الغزاوية ٢١٢
غساسنة ٨٨، ٩٤
غســـــان ٩٣، ٩٥، ١٢٤، ١٧٣، ١٧٤
أبو غوس ٢٠٣، ٢١١

(ف)

الفــاطميون ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٧، ١٨٢، ١٨٣
الفاعور ٢١١

obeikandl.com

الفحيلى ١٢٤
الفراعنة ١١، ٣٨
الفرس ٥٧، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٨٣، ٨٩، ١٠١، ١٠٣، ١١٠
فرسان ماريوحنا ١٧٦
فرسان الهيكل ١٦٤، ١٧٦
الفرنسيين ٢١، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٥
آل الفضل ١٨٣
الفقارية ٢٠٩
فلسطينيون ١٠، ١٣، ٢٤، ٢٥، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٧، ٤٨، ٥١، ٥٢، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥
فينقيون ٣٩، ٤٠، ٥٤، ٦٢، ٨٣

(ق)

قاسم ٢١١
القاسمية ٢٠٩
القبطى ١٩، ١١٢
القحطانية ٢٠٩
القرامطة ١٣٤، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٦
القرعان ٢١١
قريش ٥٤، ٨٩، ٩٠، ٩١، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٥
قضاعة ٩٣، ١٢٤
قيس ١١٧، ١٢٣، ١٢٤، ٢١٠
القيسية ١١٧، ١٢٨، ١٤٤، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤

(ك)

كاثوليكى ١٩، ٢٠٤، ٢٠٥
كتامة ١٤٤، ١٤٥
أبو كشك ٢١١
بنو كلاب ١٤٦، ١٤٧
كلب ٩٥، ١٢٤
كليب ١٢٥
كنعان ٥، ٨، ٩، ٣٤، ٣٧، ٤٥، ٤٦، ٥٢
كنعانيون ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٢، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٦٢، ٨٩
كوثيين ٥٦
كوفيين ٥٦

(ل)

لخم ٩١، ٩٣، ١١٧، ١٢٤، ١٣٠

اللخميين ٨٨

(م)

بنو مالك ١٠٠، ١٦٨، ١٩٣، ٢١١

المانيفستو الآرى ٢٨

متهوسى ٢١٩

المجربين ٢٦، ٩٥، ٩٧، ١٩٨

بنو مخزوم ١٠٩

مديانيون ٤٧، ٤٨، ٥١

المذجحون ١٢٣

بنو مرة ١٦٧، ١٩٣، ٢١١

بنو مروان ١٢٦

المساعيد ١٦٨

المسيحيون ١٣، ١٦، ٣٥، ٧٣، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ١٢٩، ١٤٤، ١٥١، ١٥٣، ١٦٧، ١٧٣، ١٧٤، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٣٠، ٢٣١

المسعودى ٢١١

المسلمون ٢٧، ٣٥، ٦٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٨٢، ٨٣، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٤٢، ١٥١، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٩١، ١٩٢، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١٥، ٢٣٠، ٢٣١

بنو مشجعة ٩٥

المصريون ٢١، ٣٨، ٤٢، ٥٩، ٦٢، ١٣٤، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٨، ١٧٢، ١٧٧، ٨٩، ٢٠٣

المضرية ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠

المغاربة ١٩٦، ٢١٩

المغول ٨٤، ١٠٥، ١٠٩، ١١٧، ١٧١، ١٧٢

المكابيون ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٢

المماليك البحرية ٩٦، ١٣٤، ١٧٩، ١٨٠، ٢٠٢، ٢١٠

المماليك الجراكسة ١١٩، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ٢٠٢، ٢١٠

مؤابيون ٤٢، ٥١

المؤرخون ٣١، ٩٧، ١٠١

obeikandi.com

(ن)

النابلسيين ٢٠١، ٢٠٢
النزازية ٢٣، ١٢٨
النصـــــارى ٩، ١٠، ١١، ١٣، ٧٤، ١٢٩، ١٤٥، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٣، ١٧٤
النكفورية ٧٨، ١٦٢
النمســـــويين ٢٦، ٦٧، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤

(هـ)

بنو هاشم ١٣٩، ٢١٠
هزيل ٢١١
بنو هلال ١٤٧
الهنادى ٢١٢
الهولانديين ٢٣، ٢٤
الهكسوس ٨٨

(و)

الوبر ٢١١، ٢١٢
وثنية ٣٧، ٤١، ٥٧
الوهابيون ٢٠٣، ٢٠٤

(ى)

اليزيكية ٢٠٩
اليمانيـــــة ١٣٠، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤
اليـهود ٣، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٧، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ١٤٤، ١٤٥، ١٨٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢
اليوغوسلافيين ١٧
اليونانيين ٢٣، ٢٤

obeikandl.com

٤ ـ الآيات القرآنية

إبراهيم ٥
الأعراف ١٠٢
آل عمران ٤، ٩٢
الأنبياء ٣، ١٣٨
الأنعام ١٥٨
الأنفال ٩٠، ٩٢
البقرة ٩٢
التوبة ١٠٤
الشورى ٩٢
ص ٦١
الصف ٧
العصر ٩٢
العنكبوت ٣
الكهف ٩٢
المنافقون ١٠٢
النحل ٩٠، ١٢٠
النساء ٧٣
هود ٤٧
يوسف ٥

٥ ـ الأحاديث النبوية

استوصوا بالنساء خيرًا ٩٢
من دخل دار أبى سفيان ١١٥

٦ ـ الكتب الواردة فى النص

الأناجيل ٦٦، ٧٤، ٨٤
انجيل ٤٠، ٦٦، ٨٤
الأنس الجليل ٩٩
تاريخ سيناء ١٧٤
تاريخ الطبرى ٩٩
التـوراة ٨، ١١، ٣٣، ٣٤، ٣٨، ٣٩، ٤٥، ٥٨، ٦٢
حياة اللغة العربية ١٠٧

obeikandl.com

رحلة ابن بطوطة ١٧٤ | رحلة ابن جبير ١٧٤

٧ ـ الأشعار

أبا المسك أرجو ١٣٦
اذا أهلِ الرشى ٦٨
اذا صلت ١٣٦
اذا لم يكن ٨٣
اذا ما غضبنا ٢٢٤
اذل الحياة ١٢٢
أرى أمتى ١٥٤
أرى خلل ٧٨، ١٢٨
أظن الشام ١٣١
اليس من العجائب ١٣٢
إن البرية ١٢١
إنى أعيذكم ١٢١
تسومهم الروم ١٥٤
تنصر فالتنصر ١٤٤
جينا بلاد جدى ١٩١
حتى طرقتهم ١٣٧
حمته على الأعداء ١٣٧
حييون إلا أنهم ١٣٧
خليفة فى ١٣٢
دعوت بماء ١١٦
ذكرتك والخطى ١٥٩
زبارجى ١٤٤
زعمت رجال ١٤٣
عرب ودروز ١٩١
عربستان يارب ١٩١
غضبوا عليا ١٧٠
فاصبر فإن غدا ١٧٠
فأن النار ١٢٨
فأن تدع العراق ١٣١
فأن تكن الدولات ١٥٩
فأن لم يطفها ١٢٨
فأن لم يكن ١٢٢
فأنظر إلى حظ ١٦٩
فقال هو الماء ١١٦
فقلت من التعجب ١٢٨
فلو لم تكن ١٣٦

فليتهم إن لم ١٥٤
فليس بمرحوم ١٣٦
فما لى وللدنيا ١٣٦
فهيا بنى الإسلام ١٥٤
فيعقوب الوزير ١٤٤
كل أمرى راجع يوما ٧٩
لا تبقرن بأيديكم ١٢١
لا تلمحن ١٢١
مازلت بالحزم ١٣٧
متى تجمع ٧٧
ملاعب جنة ١٤٦
من الحلم ١٣٦
من مبلغ ٢٠٣
مولاى إن أبا بكر ١٦٩
نجونا من الموت ١٥٩
نعم على قدر ١٤٤
هم المحسنون ١٣٧
وإخوانكم بالشام ١٥٤
وإلا فخانتنى ١٣٦
وتجبى باسمه ١٣٢
وتلك آثارنا ٣٧
وتلك حروب ١٥٤
وزير قد ٦٨
وشر سلاح ١٥٤
وقل بثلاثة ١٤٤
وكم من دماء ١٤٤
ولكن الفتى ١٤٦
وليت فلم تشتم ١٢٠
ومن رعى ١٣٧
ومن عرف ١٣٦
ومن مثل كافور ١٣٦
ومن هون الدنيا ١٥٩
وهم يحسنون ١٣٧
يا عز كفرانك ١٠٩
يا مصر ١٤٣
يقول ما ١٣٢

obeikandl.com

مصادر الكتب

التوراة

التاريخ العام – مير

التاريخ القديم – بورتر

تاريخ سورية – المطران الدبس

فلسطين وتجديد حياتها – حنا صلاح

أبو الفدا

ابن الأثير

الأنس الجليل – الحنبلى

مروج الذهب – المسعودى

تاريخ الطبرى

ابن خلكان

الواقدى

مقدمة ابن خلدون

تاريخ التمدن الإسلامى – زيدان

تاريخ مصر الحديث – زيدان

تاريخ دول الإسلام – منقريوس

تاريخ الدول العثمانية – فريد وجدى

مشهد العيان فى تاريخ سورية ولبنان – مشاقة

عمرو بن العاص – حسن إبراهيم حسن

صلاح الدين – أحمد بيلى

معجم البلدان – ياقوت الحموى

رحلة ابن جبير

رحلة ابن بطوطة

محاضرات الخضرى

أشهر مشاهير الإسلام رفيق بك العظيم

The works of Josephus.

Biblical Geography and History – Kent.

The House of the Seleueids – Bevan.

Jerusalem Under the High Priests – Bevan.

The Philistines – Macalister.

A History of Civilization in Palestine – Macalister.

The Rise and Fall of the Roman Empire – Gibbon.

The Historical Geography of the Holy Land – G.A. Smith.

Palestine under the Moslems – Guy Le Strange.Strange.

The Eneyelopedia Britannica.

The Orient in Bible Times – Grant.

obeikandl.com

فهرس الكتاب

صفحة

٣ التقديم

٣١ مقدمة

٣٢ القسم الأول

٣٣ من بدء التاريخ الإسلامى إلى الفتح الإسلامى

الفصل الأول

٣٣ تاريخها قبل اليهود

٣٣ حدودها

٣٤ مساحتها

٣٤ أسماؤها

٣٥ تأثير موقعها الجغرافى على تاريخها

٣٦ سكانها

الفصل الثانى

٤٥ اليهود فى فلسطين

٤٥ دور البداوة

٤٨ عصر القضاة

٥٠ اليهود كاملة

٥٤ انقسام المملكة وخرابها

صفحة

٥٥ مملكة إسرائيل

٥٧ السمرة

٥٨ مملكة يهوذا

٦٠ بعض أنبياء الله

الفصل الثالث

٦٣ من نبوخذ نصر إلى بومبى

٦٤ فلسطين فى يد الفرس

٦٥ اليونان فى فلسطين

٦٦ السلوقيون والبطالسة

٦٧ المكابيون

الفصل الرابع

٧١ الاحتلال الرومانى

٧١ هيرودس

٧٣ السيد المسيح

٧٥ جلاء اليهود ثانية

٨٠ قلة مسادا

٨١ هدريان

obeikandl.com

صفحة

٨٢ قسطنطين وتنصير فلسطين

٨٣ آثار الرومان واليونان

القسم الثانى

٨٧ **الفتح الإسلامى حتى عصر العثمانيين**

٨٧ العرب قبل الإسلام

٨٩ النهضة الإسلامية

٩١ النبى محمد صلى الله عليه وسلم

٩٣ انقاذ جيش اسامة

٩٣ وقعة اليرموك

٩٧ وقعة أجنادين

٩٨ فتح بيت المقدس

١٠١ إدارة البلاد وأسباب نجاح العرب

١٠٤ الفتح الإسلامى والخلفاء الراشدون

١٠٥ نبذة عن القرآن

١٠٧ آثار الخلفاء

١٠٧ أبطال النهضة الإسلامية

الفصل السادس

١١٥ فلسطين أموية

١١٨ بناء الحرم الشريف

١١٩ الوقائع الأموية

صفحة

١٢٣ محدثات بنى أمية وميزاتهم

١٢٤ بعض أبطال الدولة الأموية

١٢٧ الدعوة العباسية

الفصل السابع

١٢٩ فلسطين عباسية

الفصل الثامن

١٣٣ الدولة الطولونية

١٣٤ الدولة الأخشيدية

١٣٧ بعض أبطال الدولة العباسية

الفصل التاسع

١٤١ الدولة الفاطمية

١٤٤ الحاكم بأمر الله

١٤٨ الدولة السلجوقية

الفصل العاشر

١٥١ الصليبيون

١٥٣ فتح القدس

الفصل الحادى عشر

١٥٧ حالة العالم الإسلامى

١٥٨ معركة حطين

١٦٣ الحملة الصليبية الثالثة

١٦٧ صلاح الدين ومواسم فلسطين

obeikandl.com

صفحة

١٦٨ الدولة الأيوبية

١٧١ الخوارزمية

١٧٣ أضرار الحروب الصليبية

١٧٦ فرسان مار يوحنا

١٧٦ فرسان الهيكل

الفصل الثانى عشر

١٧٩ المماليك البحرية

١٨٠ الملك المظفر قطز

١٨١ الملك الظاهر بيبرس

١٨٢ انتقال الخلافة العباسية إلى مصر

١٨٢ محمد بن قلاوون

١٨٣ المماليك الجراكسة

١٨٣ أبو سعيد برقوق

١٨٤ مجئ التتر

١٨٧ القسم الثالث

عهد الدولة العثمانية

الفصل الثالث عشر

١٨٧ تمهيد

١٨٨ نشوء الدولة العثمانية

١٩٠ السلطان سليمان

١٩١ الأمير على المصرى وظاهر العمر

صفحة

١٩٣ أحمد باشا الجزار

الفصل الرابع عشر

١٩٥ بونابرت فى فلسطين

١٩٧ نابليون والقدس

١٩٧ منشور نابليون

٢٠١ ثورة جبل نابلس

٢٠٢ إبراهيم باشا

٢٠٣ ثورة أمراء فلسطين

٢٠٤ حرب القرم

٢٠٥ نقود وموازين ومكاييل فلسطين

٢٠٧ بعض أسواق فلسطين

٢٠٨ أقسام فلسطين الإدارية

٢٠٩ قس ويمن

٢١٢ الحرية فى فلسطين

٢١٥ ثورة حوران

الفصل الخامس عشر

٢١٧ الحرب العظمى

٢١٩ التموين

٢١٩ وسائط النقل

٢٢٠ المؤسسات

٢٢١ البعثة الألمانية العسكرية

obeikandl.com

صفحة

٢٢٢ الجراد
٢٢٢ الحركة الاقتصادية
٢٢٣ الصحة العمومية
٢٢٣ الأخلاق العمومية
٢٢٣ الديوان العرفى
٢٢٤ الثورة العربية
٢٢٥ الحملات الحربية
٢٢٧ الهجـــرة

صفحة

٢٢٧ لمحة اجتماعية

الفصل السادس عشر

٢٢٩ الاحتلال الانكليزى
٢٣٠ تاريخ الصهيونية
٢٣٣ جدول الملوك
٢٣٧ الكشاف العام
٢٨٧ مصادر الكتاب
٢٨٩ فهرس الكتاب

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢١٥٢١
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6865-8

١/٢٠٠٥/٤٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

obeikandl.com